

الدكتور توفيق الطويل

أستاذ فلسفة بكلية الآداب  
جامعة القاهرة

مذهب المنفعة العامة

في فلسفة الأخلاق

مكتبة النشر والطبع  
مكتبة النهضة المصرية  
إنتاج دار النشر بالقاهرة

اهداءات. ٢٠٠٤

اسرة / اسند احمد سولى الحوهرى  
طنطا

الدكتور توفيق الطويل

أستاذ فلسفة بكلية الآداب  
جامعة القاهرة

مذهب المنفعة العامّة  
في فلسفة الأخلاق

ملتزمة النشر والطبع  
مكتبة النهضة المصرية  
٩ شارع مدني، القاهرة

الطبعة الأولى : نوفمبر ١٩٥٣

القاهرة

مطبعة دار المعارف العامة

١٩٥٣

## إلى وحيدى حُسام

ما مَسَّنِي ضُرٌّ وَلَا أَصَابَنِي ضَيْقٌ ، إِلَّا وَجَدْتُ فِي  
براءةِ نَفْسِكَ وَصَفَاءِ حَبِيبِكَ ، مَا يَرُدُّنِي إِلَى اطمئنانِ  
النَّفْسِ ، وَيُشْبِعُ الرِّضَا فِي كَيْفَانِي طَوْلًا وَعَرْضًا ...  
فإِلَيْكَ أَهْدِي هَذَا الجُّهْدَ ، أَثَرًا مِنْ فَضْلِكَ ، نَضَجَ  
فِي ظِلِّ حَبِيبِكَ

ت . ط

## من أحدث كتب المؤلف

أسس الفلسفة : يمهّد بدراسة الفلسفة مجالاً ومنهجاً ، ثم يتناول  
مشاكلها الرئيسية الثلاث : الأنطولوجيا أو مبحث الوجود ،  
والإيستمولوجيا أو نظرية المعرفة ، والأكسيولوجيا أو فلسفة  
القيم ( الحق والخير والجمال ) ثم يعقب بياب عن الفلسفة  
الإسلامية : تصوراً وفلسفة وكلاماً .

قصة النزاع بين الدين والفلسفة : عرضٌ ومناقشة لتطور  
النزاع بين الدين والفلسفة منذ فجر الفلسفة عند اليونان حتى  
فلسفة المحدثين والمعاصرين ، مع استخلاص العبر من تاريخ  
هذا النزاع .

المجمل في تاريخ علم الأخلاق : وضعه سدجويك H. Sidgwick  
أستاذ الفلسفة الخلقية بجامعة كبردج ، ودرس فيه مذاهب  
الأخلاقيين منذ نشأت فلسفة الأخلاق حتى القرن  
الشرين - الترجمة والتعقيب بالاشتراك مع الزميل الدكتور  
عبد الحميد حمدي .

مذهب المنفعة العامة ... ..

والمؤلف مجموعة أخرى من المؤلفات في مجالات فلسفية شتى .

## فهرس تحليلي للكتاب

صفحة	
٣	إهداء الكتاب ... ..
٤	أحدث كتب المؤلف ... ..
٨-٥	فهرس تحليلي للكتاب ... ..
١١-٩	مقدمة الكتاب ... ..
١٢	تصويبات ... ..
١٦-١٣	معجم في ترجمة أم المصطلحات والمسائل ... ..
٧٤-١٧	الباب الأول : في مقدمات النفعية
١٩	مجل الباب الأول
	الفصل الأول : لحة إلى الجو النفعي
٤٠-٢١	ملاحظات عامة
	من صور المذهب الذي ٢١-٧ : مذهب اللذة السيكولوجي
	٢٢-٣ : من صور مذهب اللذة الأخلاق ٢٣-٤ :
	مذهب اللذة العامة ٢٤-٥ : فروع المذهب النفعي ٢٥-
	٨ : العلاقة بين اللذة والنفعة والسعادة ٢٨-٣٣ : التفرقة
	بين اللذة والسعادة ٣٣-٤ : موازنة بين مذهب اللذة
	ومذهب السعادة ٣٤-٦ : التراع بين التعمين والحنسين
	٣٦-٩ : تسمية المذهب النفعي ٣٩-٤٠ ... ..
٧٤-٤١	الفصل الثاني : مذهب اللذة الأناني
	تمهيد في لغاة المذهب ٤١-٣ : (١) مذهب الفورينائية
	٤٤-٨ : تعقيب ٤٨-٩ : (٢) مذهب الأيقورية

صفحة

٥٠ — ٦ : تعقيب ٥٧ — ٩ (٣) مذهب توماس هوبز

٦٠ — ٦ : تعقيب ٦٦ — ٧٤ ... ..

### الباب الثاني : مذهب المنفعة العامة

١٩٠ — ٧٥ في صورته التجريبية

٧٧ مجل الباب الثاني

#### الفصل الأول : النفعية عند بنتام

١٢٩ — ٧٩ ( ١٨٣٢ — ١٧٤٨ )

تمهيد في تجريبية القرن التاسع عشر ٧٩ — ٨٣ : بنتام وروح  
عصره ٨٣ — ٦ : النفعية قبل بنتام ٨٦ — ٩٢ : مصادر  
مذهبه ٩٢ — ٥ : فضله على النفعية ٩٥ — ٨ : مكان  
اللذة في مذهبه ٩٨ — ١٠٤ : علم حساب اللذات ١٠٤  
— ٠٨ : مشكلة التوفيق بين صالح الفرد وصالح المجموع ١٠٨  
— ١٢ : أساس الأخلاقية في مذهبه ١١٢ : ١٥ : تقدير  
ومناقفة ١١٥ — ١٢٩ ... ..

#### الفصل الثاني : النفعية عند جون ستورت مل

١٩٠ — ١٣٠ ( ١٨٧٣ — ١٨٠٦ )

جيمس مل وبعيته ١٣٠ — ٣٦ : جون ستورت مل :  
من سيرة حياته الطفلة والروحية ١٣٦ — ١٤٢ : علاجه  
لنفعية ١٤٢ — ٤٤ : فضله على مذهب المنفعة ١٤٥ :  
(١) إخضاع النعمة الخاصة للنفعة العامة ١٤٥ — ٤٩ :  
(٢) التضحية في مذهبه ١٥٠ — ٥٤ : (٣) التفرقة الكيفية  
بين اللذات ١٥٤ — ٥٨ : مميزات السعادة ومقوماتها في



صفحة

مذهبه ١٥٨ — ٦٥ : الإلزام الحلقى والمنفعة ١٦٥ — ٦٨ :  
علاوة الفضيلة بالسعادة ١٦٨ — ١٧٠ : علاوة العدالة  
بالأخلاقية ١٧٠ — ٧٤ : مناقشة مذهبه ١٧٤ — ١٩٠

الباب الثالث : صَوْرَةٌ من النفعية الحديثة ١٩١ — ٢٢٣

١٩٣ مجل الباب الثالث

الفصل الأول : النفعية اللاهوتية

١٩٥ — ٢٠٦ (جاي وباليه)

مذهب چون جاي ١٩٥ — ٩٩ : مذهب ولم پاليه ١٩٩  
— ٢٠٣ : تعقيب ٢٠٣ — ٢٠٦ ... ..

الفصل الثاني : النفعية التطورية

٢٣٥ — ٢٠٦ (سينسر ١٨٢٠ — ١٩٠٣)

الجو العلمى الذى ظهرت فيه النفعية التطورية ٢٠٦ — ٢٠٨ :  
موازنة بين النفعية التقليدية والنفعية التطورية ٢٠٨ — ٢١٥ :  
مذهب هررت سينسر ٢١٦ — ٢٢١ : النفعية التطورية في  
الميزان ٢٢١ — ٢٧ : مناقشة مذهب سينسر ٢٢٧ — ٢٣٥

الفصل الثالث : النفعية الهندسية

٢٣٦ — ٢٥٧ (هنزى سدجويك ١٨٣٨ — ١٩٠٠)

الجو العلمى الذى نشأت فيه النفعية الهندسية ٢٣٦ — ٣٨ :  
مذهب سدجويك للنفعية التقليدية ٢٣٨ — ٤٦ : كيف أقام  
النفعية الهندسية ٢٤٧ — ٢٥٣ — مناقشة مذهبه ٢٥٤

صفحة

### الفصل الرابع : النفعية العملية (الدرجاتية)

(جون ديوى ١٨٥٩ - ١٩٥٢) ٢٧٩ - ٢٥٨

الجو الذى ظهرت فيه النفعية العملية ٢٥٨ - ٥٩ : علاقة  
هذا للمذهب بالحياة العامة ٢٥٩ - ٦٣ : موقف العمليين  
عامة من الأخلاق ٢٦٣ - ٦٥ : موقف وليم جيمس من  
الدين والأخلاق ٢٦٥ - ٦٧ : موقف جون ديوى من  
الأخلاق ٢٦٧ - ٢٧٤ : تعليق ٢٧٤ - ٢٧٩ ...

الفصل الخامس : النفعية في القرن العشرين . ٢٨٠ - ٢٩٣

انتقار النفعية وسيادتها في القرن الماضي ٢٨٠ - ٨١ :  
اضمحلالها في القرن العشرين ٢٨١ - ٨٤ : أسباب  
اضمحلالها في القرن العشرين ٢٨٥ - ٨٨ : أم اتجاهات  
التفكير والذين وآثارهم في القرن العشرين ٢٨٨ - ٢٩٣

فصل ختامى : النفعية في الميزان ٢٩٤ - ٣٢٨

تمهيد ٢٩٤ - ٩٥ : مناقشة الموقف النفعي ٢٩٥ (١) اللذة  
كغاية للسلوك الإنساني ٢٩٦ - ٣٠٢ : (ب) اللذة كعيار  
للأحكام الخلقية ٣٠٣ - (ج) الأخلاقية بين مذاهب النفعيين  
ومذاهب المدسسين ٣٠٥ - ٣٠٧ (د) بين النفعيين وإمام  
العتيقين « كانت » ٣٠٧ - ٣١٢ (هـ) مناقشة النفعيين في  
توحيدهم بين اللذة والسعادة ٣١٢ - ٣١٦ (و) مكان السعادة  
في مذاهب الأخلاقيين ٣١٦ - ٣٢٠ (ز) رأينا في مكان  
السعادة من الأخلاقية ٣٢١ - ٣٢٨ ... ..

## مقدمة الكتاب

تُرَدُّ مذاهب الأخلاق الكبرى في الفلسفة الخلقية الحديثة إلى اتجاهين واضحين العالم : حِسِّي تجريبي ، وحُدُثِيّ عقليّ ، يبدو أولهما في أقوى صورِهِ مُثَلًا في مذهب المنفعة في شتى اتجاهاته — عند فلاسفة الجزيرة البريطانية بوجه خاص — وهو المذهب الذي اعتبره جهمرة مؤرخيه أعظمَ مساهمة قدّمها للتراث العقليّ الإنسانيّ فلاسفة هذه الجزيرة في شتى مراحل حياتها ! وينصبُّ هذا الاتجاه التجريبي في نُهْيَرٍ آخرٍ يَتمثّل في مذهب الوضعيين في فرنسا بوجه خاص ، وتبدو هذه الوضعية في موقف المدرسة الاجتماعية الفرنسية من المشكلة الأخلاقية مجالاً ومنهجاً .

أما الاتجاه الثاني فيتمثل في مذاهب الحدسيين — ومنهم العقليون — وهو الاتجاه التقليدي في فلسفة الأخلاق ، ولا يزال له أنصارٌ كثيرٌ بين الطبقة الأولى من الفلاسفة المعاصرين .

وفي كتابنا هذا تفصيل المذهب النفي في مختلف صورِهِ عرضاً ومناقشة — في ضوء كبرى المذاهب الأخلاقية المعروفة — أما مذهب المدرسة الاجتماعية فقد أجهلنا عَرَضَهُ في مقدمة ترجمتنا

العربية لكتاب المجلد في تاريخ علم الأخلاق ، وسعود  
إلى تفصيل الحديث عنه مع الإبانة عن أظهر مذاهب الاتجاه  
الثاني عند الحدسيين والعقليين في كتابنا التالي : « أسس علم  
الأخلاق » .

ويشمل كتابنا هذا ثلاثة أبواب تتضمن تسعة فصول يليها  
فصل مستقل في مناقشة الموضوع بوجه عام ، عرضنا في الباب  
الأول مقدمات النفعية عامة ومذهب اللذة الأناني بوجه خاص ؛  
وقد تطورت هذه الأنانية الفردية إلى منفعة عامة تناولناها بالتفصيل  
— في الباب الثاني — كما بدت في صورتها التجريبية عند أشهر  
أعلامها : جيرمي بنتام ، وجون ستورزت مل ؛ ودرسنا في الباب  
الثالث أظهر صور النفعية وقد غزّت شتى مجالات المعرفة البشرية  
الحديثة ، عرضناها كما بدت في النفعية اللاهوتية عند «جاي»  
و «باليه» ، وعقبنا عليها بدراسة النفعية التطورية عند «هربرت  
شبنسر» ، وتسللنا منها إلى معالجة النفعية الحدسية العقلية عند  
«هنري سدجويك» ثم مضينا بعدها إلى البحث في النفعية  
البرجماتية العملية عند «جون ديوى» ، وعقبنا على هذا بفصل  
تحدثنا فيه عن مآل النفعية في القرن العشرين .

وحرصنا على أن نختم كل فصل من فصول الكتاب بكلمة نناقش فيها الأفكار التي ميزت المذهب الذي نعالجه في ذلك الفصل ، ثم عقبنا على الفصول التسعة بفصل عاشر ناقشنا فيه الأسس المشتركة بين مذاهب الفهمين جميعاً ، ووزّنا موقفها من كبرى المشاكل التي عرضت لحلها ، مستعينين في الإبانة عن تهاقتها ، بما بدا لنا حقاً في مذاهب خصومها ، وفي الفهرس التحليلي الذي نشرناه قبيل هذه المقدمة بمجل النتط التي عالجناها ، وفي فصول الكتاب نفسه تفصيل ما أجهلنا الإشارة إليه ، وقد أضفنا في مستهل الكتاب مُعْجَماً يتضمن ترجمتنا لأهم ما ورد في صفحاته من مصطلحات ومسائل .

وبعد ، فحسبنا الآن أن نقول إن العربية قد خلت - فيما نعلم - من بحث يتناول مجال هذا الكتاب ، وأن نضيف إلى هذا أن الفلسفة الخلقية لم تظفر من جهود الباحثين بالعربية والناقلين إليها إلا بأقل نصيب - إن جاز القول بأن لها من هذا النشاط الملحوظ في هذه السنين نصيباً يستحق الذكر من هنا مَسَّت الحاجة إلى كتابنا التالي « أسس علم الأخلاق » ، فإلى لقاء نرجو أن يكون قريباً ؟

## تصويبات

- ص ٨٥ آخر سطر اقرأ : الحدسيون العقليون من  
« ١٠٣ هامش (١) » : ترجمنا بعض النصوص السالفة  
وتلصنا بعضها الآخر من ...  
« ١٨٥ آخر سطر ٤ » : تُعرف في المنطق باسم مغالطة الجمع  
Fallacy of Composition ويراد  
بها الحكم على الجزئ بما يُحكم به  
على مجموعة الجزئيات .  
« ١٩١ سقطت الإشارة إلى الفصل الخامس عن « النفعية في  
القرن العشرين » .  
« ٢٣٢ من ٣ و ٤ اقرأ : أما منهج الاستنباط العقلي فيبدأ  
بأفكار أولية وقضايا بديهية... الخ .

## معجم في ترجمة أهم المصطلحات والمذاهب والمسائل الواردة في الكتاب

Absolute (opp. relative)	المطلق ( ضد النسبي )
Accident (substance)	العرض ( ضد الجوهر )
Agnosticism (opp. Gnosticisim)	مذهب الأخرية ( ضد مذهب العرفان أو التنوسية )
Altruism (opp. Egoism)	مذهب النيرية أو الإيثار ( ضد مذهب الأنانية أو الأثرة )
Apathia	الطأأينة السلبية ( عند الرواقية )
Apriori (opp. a posteriori)	أولى ، بديهى ، قبل ، سابق على التجربة ( ضد بعدى أو مكتسب بالتجربة )
Apriorism = intuitionism = Nativism	مذهب الفطرة أو الحدس
Asceticism	مذهب الزهد أو التمسك
Ataraxia	الطأأينة السلبية ( عند الأيقورية )
Atomism (opp. monadism)	مذهب الجوهر الفرد ( ضد مذهب الثرات الروحية )
Axioms	أوليات أو بديهيات
Benthamism (opp. asceticism)	مذهب اللذة عند بنتام ( ضد مذهب الزهد )
Calculus (hedonistic)	علم حساب اللذات ( عند بنتام )
Casuistry	الإثناء ( تطبيق الأحكام الكلية على الحالات الجزئية )
Categorical imperative	انظر imperative
Causes : efficient (opp. final)	العلل : الفاعلية ( ضدها الغائية )
Communism	الشيوعية
Criterion : Standard	مقياس : مستوى
Cynicism	مذهب الكلبيين
Cyrenaics	القورينائية

Determinism (opp libertarianism)	مذهب الجبر (يقابل مذهب الاختيار)
Disinterestedness = impartiality	الترامة أو عدم المحاباة
Dogmatism (opp. Scepticism)	مذهب التيقن أو الاعتقاديين ( ضد مذهب الشك )
Dualism	مذهب الثنائية أو الثنوية أو الاثنائية
Duration	الديمومة
Empiricism (opp. Intellectualism or rationalism)	المذهب التجريبي أو التجريبية ( ضد المذهب العقلي )
End (purpose), Supreme, highest, ultimate	غاية (غرض) عليا، تصوى
Epicureanism	مذهب الأبيقورية أو المذهب الأبيقورى
Essence	ماهية أو كنهه ( خصائص ذاتية )
Eudaemonism	مذهب السعادة
Evolutionism	مذهب التطور
Fallacy of composition (opp. P. of division)	مغالطة الجمع ( ضدها مغالطة التفريق )
Fallacy of figure of speech	مغالطة التشبيه
Feelings	وجدانات
Formalism=Logicism	المذهب الصورى — التزمة الصورية أو المنطية
General (opp. particular)	كلى ( ضد جزئى )
Good (ultimate, absolute, Supreme, highest)	الحير ( الأقصى أو المطلق أو الأسمى ) انظر Summum bonum
Happiness (general)	السعادة العامة أو سعادة المجموع
Hedonism (psychological-ethical)	مذهب اللذة السيكولوجى - الأخلاقى
egoistic or individualistic Hed.	مذهب اللذة الفردى أو الأناى
(Universalistic hed. =utilitarianism)	مذهب اللذة العامة أو المنفعة العامة
Ideas, innate (opp. acquired)	أفكار فطرية ( ضد مكتسبة بالتجربة )
Ideal = Ultimate value	الثل الأعلى
Idealism	المثالية التصورية أو المذهب المثالى
Neo-idealism	المثالية الجديدة



Imperative, categorical (opp. hypothetical or Conditional)	الأمر المطلق (ضد المصروط أو المقيد)
Imperturbability	طمأنينة النفس
Impulse	انظر motive — دافع سيكولوجي
Individualism (opp. universalism)	المذهب الفردى أو الفردية (يقابل مذهب الجماعة)
Instrumentalism, operationalism, or experimentalism	مذهب القرائم (في فلسفة جون ديوى)
Integration	تكامل
Intuitionism or intuitionism	مذهب الحدس (بمعناه الواسع يشمل المذهب العقلى فى الأخلاق)
Judgment (factual opp. value)	أحكام واقعية (ضد تعويجية)
Materialism (opp. immaterialism)	المادية أو المذهب المادى ، ضده اللامادية
Motive	الباعث (الحلقى)
Mysticism = sufism	التصوف أو مذهب الصوفية
Objectivity (opp. subjectivity)	موضوعية أو عينية (ضد ذاتية)
Obligation	الإلزام
Ontology	مبحث الوجود
Originality	الأصالة أو الإبداع
Passion	الهوى أو الشهوة
Perfectionism	مذهب الكمال
Pleasure	الذعة
Positivism (logical)	الوضعية المنطقية
Postulates	المسلمات أو القضايا المسلمة
Pragmatism	المذهب العملى أو البرجماتزم
Psychology (ethnic)	سيكولوجيا الشعوب
Purpose, aim, intention, end	غرض : هدف : مقصد : غاية
Qualitative difference, (opp. quantitative diff.).	الاختلاف فى الكيف أو النوع (ضد الاختلاف فى الكم)

Quantification	التكميم
Sanctions	جزاءات ( وعد ووعد أو ثواب وعقاب )
Sciences (empirical or positive, opp. teleological or normative)	علوم تجريبية أو وضعيه ( ضدها علوم فائيه أو معيارية )
Sects, Schools	فرق ، مدارس
Sense (moral)	مذهب ( الحاسة الخلقية )
Sensualism	المذهب الحسى
Socialism	المذهب الاشتراكي
Spiritualism opp. materialism	الروحية أو المذهب الروحي ( يقابل المذهب المادى )
Stoicism	مذهب الرواقية أو للمذهب الرواق
Struggle for existence	التنازع من أجل البقاء
Substance (opp. accident)	جوهر ( ضده عرض )
Summum bonum	( اظنر Good ) ... الخير الأقصى أو الأسمى
Sympathy	( مذهب ) التعاطف أو المشاركة وجدانية
System = doctrine	مذهب ( أو عقيدة )
Self - consistency	التناسق الذاتي
Self-evident = necessary	الواضح بذاته ، أو البديهي أو الضروري
Self - realisation	( مذهب ) تحقق الذات
Self - regard	رعاية الذات
Self-abnigation or denial or renunciation or conquest or Suppressed opp. Self-assertion.	إنكار الذات أو قمعها وقهرها ( ضد تأكيد الذات أو إقرارها )
Tautology	تحصيل حاصل
Teleology	الغائية
Ultimate	الأقصى
Universal	عام
Universally valid	صالح صدق مطلقا ( في كل زمان ومكان )
Utilitarianism = universalistic hedonism	مذهب المنفعة العامة
Value (intrinsic opp. extrinsic or instrumental)	قيمة باطنية ذاتية ( ضدها قيمة خارجية )

# الباب الأول

في مقدمات النفعية

الفصل الأول : لمحة إلى الجو النفعي

الفصل الثاني : مذهب اللذة الأناني



# الباب الاول

## في مقدمات النفعية

نَبَت المذهب النفعي في صورة لذة تختلط بالسعادة وتمتزج بالمنفعة ، وتقوم على الأنانية حيناً وعلى التيرية في بعض صورها أحياناً ، ولهذا آثرنا أن نهد بباب نتناول في فصله الأول دلالات النفعية كما بدت في شتى مذاهبها ، ونزُيل فيه اللبس الذي اكتنف مصطلحاتها ، ثم نعقب في فصله الثاني بالحديث عن اللذة الفردية عند أشهر دعائها من القدماء والحديثين ، حتى إذا فرغنا من هذا التمهيد عرضنا في الباب الثاني لدراسة النفعية التجريبية الحديثة كما بدت عند أشهر أعلامها ، وعقبنا في الباب الثالث بتتبع النفعية في غزواتها لبعض مجالات الفلسفة عند الحديثين والمعاصرين .



# الفصل الأول

## لمحة إلى الجو النفعي

### ملاحظات عامة

من صور المذهب اللذي — من صور مذهب اللذة  
الأخلاقى — فروع المذهب النفعى — العلاقة بين اللذة  
والنعمه والسعادة — التفرقة بين اللذة والسعادة — موازنة  
بين مذهب اللذة ومذهب السعادة — النزاع بين النعميين  
والمدسين — تسمية المذهب النفعى .

### من صور المذهب اللذي :

من العسير أن نجمل خصائص المذهب النفعى « المشتركة »  
بين أعلامه ، لأن اتفاقهم على مجملها لم يمنع اختلافهم في فهمها  
وتحديد تفاصيلها ، فالمألوف أن يقال إنهم متفقون على أن اللذة  
هى وحدها الخير الأقصى ، أو المرغوب فيه لذاته دون نظر إلى  
نتائجها ، أى أن الفعل الإنسانى لا يكون خيراً إلا متى حقق  
أو توقع صاحبه أن يحقق أعظم قدر ممكن من اللذة — صيغة  
ما أيسرها ، ولكنها مع بساطتها قد أثارت من وجوه الخلاف  
عند معتقبيها أوانا شتى ، وتبدو هذه الوجوه من الخلاف في صور

للذهب الذى وفروع المذهب النفعى مما ؛ تمسك بالذة جميع  
النفعيين ، ولكنهم اختلفوا فى فهمهم لدلالاتها ، وتصورهم  
لمقوماتها ، وتحديد مقاييسها ، ونظرتهم لطبيعتها .

فذهب الذة يطلق على مجموعة من النظريات تشترك فى  
اعتبار الذة أسمى غاية للحياة الإنسانية ، ويبدو فى عدة صور  
أظهرها<sup>(١)</sup> :

مذهب الذة السيكولوجى Psychological Hedonism :

ويرى أصحابه أن الناس ينشدون بالفعل كل ما يحقق لذتهم  
فالذة هى الغرض الأنفى لرغبة الإنسان ، والدوافع السيكولوجية  
لكل تصرفاتنا لا يمكن تفسيرها إلا بالرغبة فى الذة والنفور من الألم .

مذهب الذة الأخلاقى Ethical Hedonism :

ويرى أصحابه أن الناس « ينبغي » أن ينشدوا على الدوام  
لذتهم ، فالذة وحدها هى الخير فى ذاته ، ولا شئ سواها يحمل  
فى ذاته قيمته ، وعلى عكسها يحمل الألم أو الشعور الأليم قيمة

---

(١) استعينا بالتصنيف وحده عن : M.C. Sen, Elements of  
Moral Philosophy, p. 192 ff. وكذلك J.S. Mackenzie, Manual  
of Ethics (1929), p. 167-69 وقد أشار إلى أن صاحب هذه الأسماء  
هو H. Sidgwick فى كتابه Methods of Ethics



سلبية قصوى ، فهو وحده الشر في ذاته ؛ والخُلص من الذين يرون أن الذات لا تختلف كيفاً ، أو أن الخلاف بينها لا يؤثر — إن وُجد — في القيم الذاتية الباطنية intrinsic لمختلف الحالات اللاذعة ، لأن هذه القيم لا تختلف فيما بينها إلا قوةً وديمومة .

إن أول المذهبين السالطين يقرر حقيقة : هي أن الناس بطبيعتهم ينشدون لذتهم ، فهو نظرية تقرر أن غرض الرغبات الأنفسي هو بالفعل اللذة ، أما المذهب الثاني فنظرية في القيمة ، أى في السبب الذى من أجله ينبغي أن يُفضّل عمل على غيره ، ومن هنا اتصل هذا المذهب بالنظرة الغائية في طبيعة الفعل الخَيْرِ ، وهو في كل حالاته يعتبر نتائج الفعل — لاذةً أو أليمةً — مقياس الأخلاقية ومعيارها الأوحده ، وهذا من أظهر وجوه الخلاف بينه وبين مذاهب العقلين والحدسيين ممن ردوا الأخلاقية إلى بواعث الأفعال ومقاصدها دون نتائجها وآثارها .

مع صور مذهب اللذة الأُمهورى :

وينصب مذهب اللذة الأخلاقى بدوره في عدة اتجاهات  
أظهرها :

مذهب اللذة الأناني أو الفردي Egoitic Hedonism :

ويرى أصحابه أن ما ينشده الإنسان بالفعل ، وما ينبغي أن  
يلتمسه هو لذته الخاصة أو منفعته الشخصية ؛ إلى هذا ذهب  
توماس هوبز + ١٦٧٩<sup>(١)</sup> T. Hobbes ومن جرى مجراه من  
أمثال جاسندي + ١٦٥٥ Gassendi وهلفتيوس + ١٧٧١  
H.C. Helvetius حديثا .

ومن هؤلاء الفرديين من ذهب إلى أن أقوى اللذات وأحقها  
بالطلب هي اللذة الحسية العاجلة — فيما ذهب القورينائية  
Cyrenaics  
ومنهم من رأى أن أجدر اللذات بالطلب ما اتصف بالدوام  
والاستمرار ، كاللذات الروحية والعقلية — ومن هنا كانت  
السعادة وطمانينة النفس التي قال بها الأبيقورية Epicureans  
قديما .

مذهب اللذة العامة . Universalistic H :

وقد خالف أصحابه دعاة اللذة الفردية فقالوا إن الإنسان  
يلتمس بالفعل ، وينبغي أن ينشد لذة البشر جميعا ، بل لذة سائر

---

(١) تذكر سنة الوفاة مسبوقة بالعلامة التعليلية + فإذا كان  
الفيلسوف لا يزال حيا ذكرنا سنة ميلاده ، ومن تكرر ذكر اسمه  
اكتفينا بالإشارة إلى وفاته أو ميلاده في أول مرة يرد فيها اسمه .

الكائنات الحساسة ، واشتهر هذا المذهب بمذهب المنفعة العامة  
Utilitarianism الذى تمثل عند بنتام + ١٨٣٢ J. Bentham  
وجون ستورت مل + ١٨٧٣ J. S. Mill وغيرهما من أقطاب  
المنفعة — وهو يشق فروعه موضوع هذا الكتاب .

### فروع المذهب المنفعى :

ويتحلّى هذا المذهب المنفعى فى صور شتى أظهرها<sup>(١)</sup> :

مذهب المنفعة اللاهوتى Theological Utilitarianism :

كما بدأ عند جاى + ١٧٤٥ J. Gay وباليه + ١٨٠٥ W. Paley  
وغيرهما ممن جعلوا الله يمثل المنفعة فى أكل صورها .

ومذهب المنفعة الاقتصادى Economical كما بدأ عند آدم

سميث + ١٧٩٠ A. Smith وريكاردو + ١٨٢٣ D. Ricardo

ومالثوس + ١٨٣٤ T. Malthus ممن جعلوا غاية الحكومة أن  
تحقق لمواطنيها أقصى سعادة اقتصادية ممكنة .

ومذهب المنفعة السياسى Political كما وضعه بنتلى Bentley

---

(١) جمعنا هذه الفروع بعد أن كانت متناثرة فى الكثير من مصادرنا  
التي يراها القارئ فى هوامش الصفحات .

الذي جعل « أعظم مقدار من السعادة » مقياساً للتمييز بين القوانين الطيبة والقوانين السيئة .

ومذهب المنفعة التجريبي Empirical كما تمثل عند بنتام ومل — وقد أفردنا له الباب الثاني من هذا الكتاب .

ومذهب المنفعة التطوري Evolutionistic كما تمثل عند هيربرت سبنسر H. Spenser + ١٩٠٣ ولسلي ستيفن + ١٩٠٤ L. Stephen وغيرهما ممن ردوا المنفعة الكاملة إلى أثر التطور .

ومذهب المنفعة الحدسي أو العقلي Intuitional or Rational Utilitarianism كما بدأ عند سد جويك + ١٩٠٠ H. Sidgwick وغيره ممن أقاموا المنفعة على أسس حدسية .

ومذهب المنفعة المثالي Ideal U. عند مور المولود عام ١٨٧٣ G. E. Moore وراشدال + ١٩٣٤ H. Rashdall وليرد المولود عام ١٨٨٧ J. Laird وغيرهم من المعاصرين الذين جعلوا الخير أعم من اللذة التي تمسك بها الخُلاص من اللذيين والنفعيين .

ومذهب المنفعة العمل Pragmatic الذي يمثل اتصال المنفعة بفلسفة القيم عند الاختياريين أو دعاة المصلحة في أمريكا ، ويبدو خاصة في المذهب العمل ( البرجماتزم ) كما يمثله وليم جيمس +

١٩١٠ W. James وجون ديوى + ١٩٥٢ J. Dewey وديوى

المولود عام ١٨٧٦ R.B. Perry .

ومع أن النفعية قد ازدهرت وآتت أكلها في إنجلترا ثم في أمريكا إلا أنها اتصلت بالقارة الأوربية واجتذبت من فلاسفتها أمثال هلفثيوس + ١٧٧١ الفرنسي وبيكاريا + ١٧٩٤ Von Gizycki الإيطالى وفون جيزايكي C. de Beccaria الألماني .

اتسعت النفعية حتى شملت هذه المجموعة الضخمة من مذاهب الفلاسفة — أخلاقيين كانوا أو غير أخلاقيين — بل أكد « بنتام » أننا إذا استبعدنا اللغو والعبث من نظريات خصوم النفعية ما بقى منها إلا ما يتفق مع مذهبه النفعى ! وإلى مثل هذا ذهب المتطرفون من النعميين .

ومع هذه السيطرة التي تهيأت للنفعية على التفكير الإنجليزى خاصة والأمريكى والأوربى عامة — فإن تاريخها يشهد بأنها لقيت من معارضة خصومها أكثر مما لقيت من تأييد دعائها .. !

ومن الطبيعى ألا نَسْوَى في دراستنا للنفعية بين المذاهب التي كانت ألصق بها وأقدر على التعبير عنها ، والمذاهب التي اتصلت

بها أو اقتربت منها أو نسبت إليها تجوّزا؛ سنقف عند المذاهب  
النفعية الأصيلة ونطيل الوقوف، ونمر بنيرها مسرعين أو مكتفين  
بالإشارة إلى أظهر معالمها وأدناها اتصالا بالمذهب النفى الأصيل.

### العلاقة بين اللذة والمنفعة والسعادة :

ومنذ أيام أبيقور + ٢٧٠ ق . م Epicurus تحولت اللذة  
إلى منفعة ، ولكنها كانت منفعة فردية شخصية مكن لها في  
مطلع العصر الحديث « هوبز » ، وأثار الأخلاقيين من معاصريه  
وخلفائه بأنايته المرغلة ، فتحولت المنفعة الفردية بعده إلى منفعة  
للمجموع ، وسرعان ما جرى لفظ « السعادة » على أقلام  
النفعيين . إن النافع هو ما يحقق لذة أو يبعد ألما ، أو هو ما يوفر  
السعادة بتعبير آخر ، كان شعار النفعيين : « أعمل لتحقيق أكبر  
قسط من اللذة (أو المنفعة) لأ أكبر عدد من الناس » ، فتحول  
إلى المطالبة بتحقيق أكبر قسط من « السعادة » لأ أكبر عدد  
من الناس ، بهذا اختلطت اللذة بالمنفعة أولا ، ثم ما لبثت حتى  
امتزجت بالسعادة<sup>(١)</sup> ، فكان الخلط بين دلالات هذه الألفاظ ،

(١) من قبيل هذا الخلط بين اللفظين ما نراه في تصنيف « فنت »

للمذاهب تبعا للناية ، انظر :

W. Wundt, Ethics, Vol. II. (Ethical Systems) Eng. Trans.,  
P. 168 ff.

ولهذا وجب أن نقف قليلا عسى أن نزيل هذا اللبس :

لم يقنع « أبيقور » باعتبار اللذة خيراً ، بل اعتبر الوسائل المؤدية إليها خيراً ، ولكنه رأى أن من اللذات ما يجلب ألماً ، ومن الآلام ما يحقق لذة ، فطالب باجتنب اللذة التي تسلم إلى الألم ، والرضا بالألم الذي ينتهى باللذة . ومحك هذا التعديل هو مراعاة المنفعة ، فتحولت اللذة بهذا إلى منفعة ، واستمر هذا قائماً عند جبهة المحدثين ، وإن حول بعضهم أناية هذه القرينة إلى نوع من « النيرية » altruism ، ويميّز بين كيف اللذات ولم يقنع بالفرقة بينها كَمَا .

ويبدو لنا أن بين اللذة والمنفعة علاقة خصوص وعموم متبادلة ، التوحيد بينهما لا يصدق دواما ، بل إن من اللذات ما قد يجلب ضرراً ، ومن المنافع ما يجر ألماً — كاللواء للـر .

على أن عواقب التوحيد بين اللذة والمنفعة لم تكن أخطر من عواقب الوحيد بين اللذة (أو المنفعة) والسعادة . إن تهافت هذا التوحيد واضح ، لأن من الأفعال اللاذة ما قد ينتهى بالعاسة ، ومن الأشياء النافعة — كالاختراعات الحديثة — ما لا يحقق السعادة .

بل إن هذا التوحيد قد أدى إلى أن يدخل في زمرة اللذات

والنعميين من هم أشد الفلاسفة مقتا للمنفعة واستخفافا بالذمة  
معياراً للأخلاقية ، فلنقف هنا قليلاً :

غاية الأخلاقية عند « بنتام » و « مل » هي السعادة ،  
وكذلك الحال عند أفلاطون + ٣٤٨ ق. م . ومع ذلك فإن  
من الخطأ البين أن يحشر أفلاطون في زمرة النعميين . ولو أنه  
أدرك « مل » لاحترق نظريته ورآها شبيهة بنظرية السوفسطائية  
التي وحدت بين الفضيلة ولذة الفرد ، وإن كان « مل » يتجاوز  
لذة الفرد إلى لذة الجماعة . إن أفلاطون يرفض النظريتين معا لأن  
كلاهما تقيم الأخلاقية على الوجدان وليس على العقل ، وتضع  
غاية الأخلاقية خارج الأخلاقية نفسها ، ويكفي هذا ليكون  
أفلاطون على خلاف بين مع « مل » كما كان بالفعل مع  
السوفسطائية . ولا عبرة بعد هذا باتفاق أفلاطون مع النعميين في  
اعتبار السعادة غاية الأخلاقية .

إن ما يسميه « مل » بالسعادة خليق بأن يسميه أفلاطون  
باللذة ، والحكيم عنده يزاول العنة في حياته فينصرف عن اللذة  
ويتجرد من علائق جسمه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً — فيما  
نعرف من محاوره فيدون — وإذا كان قد عاد بعد هذا فلأن  
في حديثه عن اللذة في محاوره فيلايوس فإن اللذة هنا ليست



حسية ، ثم إنها تتضمن النبطة بالحكمة والفضيلة ؛ أما السعادة فإنها تقترن عنده بالعدالة التي تتحقق بخضوع القوة الشهوانية للفضيلة ، واستسلام القوة العنصرية للعقل ، ولا عبرة بمد هذا بما يصيب المادل السيد من محن وبلايا . إن حياته قد تحفل بالمصائب وتخلو من الذات ، ومع هذا يظل سعيداً بعدائه ، إن السعادة عند أفلاطون اسم جديد للخير الأقصى<sup>(١)</sup> .

وشبيه بهذا في كثير من الوجوه يمكن أن يقال في أرسطو + ٣٢٢ ق . م وموقفه من النغمية ، إذ اعتبر الخير الأقصى سعادة ، ورأى أن الفعل الخلقى يقترن عادةً بوجودان من المتعة الذاتية ، فشابه المحدثين من النغميين في أن السعادة عندهم تتضمن وجدان المتعة ، ولكن بينهما فارقا ملحوظا ، إن الفعل الخلقى عند أرسطو لا يكون خيراً لأنه يحقق متعة ، بل إنه يحقق متعة لأنه خير ، النغمية الحديثة تقول إن المتعة أساس القيمة الخلقية ، وأرسطو يقول إنها نتيجة تنشأ عن القيمة ، إن السعادة عنده اسم جديد يطلق على الخير الأسمى<sup>(٢)</sup> وهو يتميز بأنه غاية تختار لذاتها ،

---

W.T. Stace, A. Critical Hist. of Greek Philosophy (١)

س ٢٢٠ — ٢١ (1950) .

Cf. ibid., 315 (٢)

وبأنه يكفي وحده لتحقيق السعادة<sup>(١)</sup> ، وتمثل السعادة في كل فعل يطابق أشرف فضيلة في الإنسان وهي فضيلة العقل النظري — الذى به يتميز من النبات والحيوان — فالسعادة تتحقق بالتأمل العقلى وهو وظيفة الإنسان بما هو إنسان ، وإن كان أرسطو قد أقرّ بقيمة اللذة وصرح بأن الفاضل هو الذى يستشعر اللذة عند إتيان الأنفال الفاضلة ، وتقرن اللذة بالأنفال الفاضلة ، وهي علامة تشهد بمدى استعداد الإنسان للفضيلة ، ولا يفكر أرسطو — كما أنكر المتزمتون من العقليين — الخيرات الطبيعية ، بل صرح بأن السعادة تقوم في استخدام الخيرات الطبيعية على أحسن وجه<sup>(٢)</sup> ، فإذا كان أرسطو قد شابه النعميين المحدثين في وضع السعادة غايةً للأخلاقية ، فإنه يخالفهم في فهم طبيعتها ، وتصور دلالتها ، ومن هنا تعذر إدخاله في زمرة النعميين .

وشبيه بهذا يمكن أن ينسحب على الأخلاقيين الذين اعتبروا السعادة غاية الحياة الخلقية — وما أكثرهم ! وهل نمة أخلاق يستطيع أن يزعم أن مذهبه يفضى بمقتضيه إلى التماسه ؟ ولكن

---

(١) قد يذكرنا هنا بقول سينيوزا : إن السعادة ليست جزاء الفضيلة ، ولكنها الفضيلة نفسها .

(٢) Sen, p. 9-11

للسعادة في أذهان الأخلاقيين دلالات شتى ، ومن الممكن أن  
نميز بينها وبين اللذة على الوجه التالي :

### التفرقة بين اللذة والسعادة :

أيسر تعريف للذة pleasure أنها وجدان يصاحب إشباع  
الرغبات الشخصية ، أما السعادة happiness فإنها وجدان  
يصاحب تحقق الذات ككل ، بصرف النظر عن إشباع الرغبات  
المؤقتة ، بل برغم الألم الذي ينشأ عن رفض إشباعها أو الفشل في  
إرضائها ، من هنا تميز مذهب السعادة من مذهب اللذة برفض  
اعتبار الخير الأقصى مجرد مجموع لذات معينة ، والإيلحاح في النظر  
إليه باعتباره لذة النفس موحدة في كل<sup>(١)</sup> ، وإلى ما يشبه هذا  
ذهب كثير من الأخلاقيين<sup>(٢)</sup> ، فليست السعادة لذة الساعة ولا  
مجموع لذات تتحقق بإشباع رغبات متتالية ، ولا هي توازن بين  
اللذة والألم ، وإنما هي وحدة من لذات تتم بإخضاع لذات أخرى

---

(١) Muirhead, Elements of Ethics, p. 104-06 وقد نصح

القارىء بالرجوع في هذا إلى :

J Dewey's Psychology, pp. 202-04 & 293

(٢) فارن مثلا J. Seth, A Study of Ethical Principles

خامس طبعة ص ٢٠٩ — ١٠ .

أو استبعادها عند الضرورة حتى ينشأ إشباع كامل يقتزن بشعور  
الإنسان بأنه كل ما يجب أن يكون !  
إن اللذة تبقى ما تبقى الفعل الذى أدى إليها ، ولا يشعربها  
إلا صاحبها ، أما السعادة فتمتاز بالثبات والدوام ، وهى ليست  
إنماء تاما للألم وإن كان هذا ممكنا ، بل إن الأخلاقية تقوم فى  
الصراع بين الواجب والهوى ، وتمس الحاجة إلى التضحية  
باللذات الشخصية فينشأ الألم ، وعنصر الألم فى التضحية لا يقلل  
من السعادة التى تتحقق عن طريقها .

هذا بالإضافة إلى أن السعادة عامة وليست نسبية ، لا بمعنى  
أنها بالفعل تصيب الناس عامةً بل بمعنى أنها تقبل الشركة ، أما  
اللذات فإن ما يكون منها متعة للإنسان قد يسبب لغيره ألماً<sup>(١)</sup> .

موازنة بين مذهب اللذة ومذهب السعادة :

تزيد ما أسلفناه وضوحاً بالحديث عن التضاد القائم بين  
مذهب اللذة Hedonism ومذهب السعادة Eudae monism ،  
يشفقان ظاهرياً فى اعتبار السعادة وحدهما خيراً أقصى ، ويختلفان  
فملاً فى أمور نجملها موجزين فيما يلى :

---

. Cf. Sen, p. 68 ff. (١)

القانون الخلقى عند جمهرة أتباع السعادة عام مطلق وهو عند  
الذين نسي متغير، لأنه يقوم على الحساسية ولا يستند إلى العقل ،  
وطاعته سرهونة بنتائج الفعل وآثاره ، وهي عند أتباع السعادة  
مقطوعة الصلة بالتأجج موقوفة على البواعث والمقاصد ؛ يستوى  
عند الذين إحسان من يفيض قلبه بحب الإنسانية ، وإحسان  
من تدفعه إلى الإحسان مآرب شخصية أو منافع ذاتية ، بل إن  
إحسان هذا المحتمل أسمى في نظر الذين ، إذ به يحقق المحسن  
خيراً لذاته وللآحزين ، بينما يسقط المحسن الأول ذاته من  
حسابه<sup>(١)</sup> ! إن سلطة القانون الخلقى تستمد عند الذين من  
فكرة الجزاءات التي تقررها الطبيعة ، أو تقتضيها إرادة الله ،  
أو تفرضها تقاليد المجتمع ، أما عند أتباع السعادة فإن الفضيلة تحمل  
جزاءها في باطنها ، ويدرك القانون الأخلاقي بالقياس إلى إعتبرات  
عقلية تقرى بالسلوك الخير من غير إكراه ؛ هذا إلى أن مستوى  
الأخلاقية عند أتباع السعادة موضوعي ثابت ، وعند الذين  
نسي متغير . . . إلى آخر ما يمكن ذكره شاهدا على اتصال  
مذهب السعادة بمذاهب العقلين ، وارتباط مذهب اللذة بمذاهب  
التجريبيين .

وإن كان مذهب اللذة يتفق مع مذهب السعادة في اعتبار القانون الخلقى -- وهو المبدأ العام الذى يحدد خيرية السلوك أو شريته -- خاضعا لفكرة الخير الأقصى ، وعلى عكسهما يقف مذهب العقليين الذين يعتبرون القانون الأخلاقى غايةً عليا وليس وسيلةً يجوز إخضاعها لغاية أسمى<sup>(١)</sup> .

حسبنا هذا في التفرقة بين اللذة والسعادة ، إن فيه ما يكفي للتدليل على أن النفعيين كانت تعوزهم الدقة في فهمهم لدلالة السعادة حين استخدموها بمعنى اللذة ، واعتبروها غاية الحياة الأخلاقية ، ولنفقَبْ بكلمة نشير فيها إلى كبرى المشاكل التى عاجلها النفعيون فكأوا بها معبرين عن الأنجاه التجريبي في الأخلاق .

#### النزاع بين النفعيين والحُدسيين :

كان القرن الماضى عصر النفعية الذهبى ، وكانت إنجلترا مهدها الأول ، واصطُرعت فيها مدرسة النفعيين مع مدرسة الحُدسيين Intuitional School حول مشكلتين كانتا ولم تزالا بعد مثارا للجدل العنيف بين فلاسفة الأخلاق ، هما نشأة المثل

---

(١) . ibid, p. 15

العليا ideals ونوع للقياس أو المستوى criterion or Standard الذى تقاس به خيرية الأفعال وشريرتها<sup>(١)</sup> .

فأما الحدسيون فقد رأوا أن المثل العليا روحية فى نشأتها ،  
والخير عندهم ضرورة يقتضيها العقل ، وهو يدرك بالحدس كما  
تدرك الأوليات الرياضية axioms — وهى عند أصحابها واضحة  
بذاتها صادقة بالضرورة ومن ثم كانت فى غير حاجة إلى برهان  
أو تأكيد ، والعقل يدركها بطبيعته ويستنبط منها بالاستدلال القياسى  
نتائجها التى تلزم عنها ، ومعنى هذا أن الإنسان يولد مزودا بقواعد  
عملية خلقية لا تجيئه اكتسابا ، وهى ثابتة دأمة مطلقة من حيث  
إنها عامة فى الناس لا يحددها زمان ولا مكان ، وواضح من هذا  
أن منهج البحث عند هؤلاء الحدسيين استنباطى deductive  
وليس استقرائيا inductive .

وكذلك كان موقفهم من المستوى الخلقى ، إنه فى رأيهم  
مستقل عن كل ما يترتب على الفعل الخلقى من سعادة أو تعاسة ،  
إن الأفكار الخلقية تصدق فى كل زمان ومكان يصرف النظر  
عما ينجم عنها من لذة أو ألم .

وعلى عكس هؤلاء كان موقف النفعيين من هاتين المشكلتين ،  
إن المثل العليا يمكن تتبعها والارتداد بها إلى التجربة مصدراً لها ،

---

W. R. Sorley Recent Tendencies in Ethics, p. I ff. (١)

ويقصدون بالتجربة الإدراكات الحسية ووجدانات اللذة والألم التي تصحب هذه الإدراكات أو تعقبها ، ومن هنا ذهبوا إلى القول بأن حقائق الشعور الخلقى — من خير وشر وواجب وتبعة وتأنيب ضمير ونحو ذلك — سردها آخر الأمر إلى التجربة ، فرفضوا بهذا رأى الحدسيين في القواعد الخلقية التي اعتبروها فطرية يولد الإنسان سروداً بها ولا تبيته اكتساباً ؛ وواضح من هذا أن منهج البحث الخلقى عندهم تجريبي ولا يمكن أن يكون استنباطياً .

وكذلك كان موقفهم من المقياس أو المستوى الذي تقاس به خيرية الأفعال وشريتها ، إن الأحكام الخلقية مرهونة بما يترتب على الأفعال الإنسانية من نتائج وآثار ، فهي خير بمقدار ما تحقق من لذة ، وشرٌّ بمقدار ما تجلب من ألم ، ومن هنا وضح الفارق بين الحدسيين والنفعيين في تصور الأخلاقية في اتصالها بالبواعت والمقاصد — فيما يقول الحدسيون — أو ارتباطها بالنتائج والآثار — فيما ذهب النفعيون — وهو فارق ملحوظ بين اتجاه الحدسيين والعقليين من ناحية ، والتجريبيين والعاثيين من الأخلاقيين من ناحية أخرى<sup>(١)</sup> .

---

(١) فارن : توفيق الطويل : العقليون والتجريبيون في فلسفة الأخلاق ص ٤٠ وما بعدها .



ولكن كيف تلتقى النفعيون الاسم التقليدي لمذهبهم  
"Utilitarianism" .. ؟

تسمية المذهب النفعي :

قلنا إن اللذة قد تحولت على يد أبيقور وخلفائه إلى منفعة ،  
ونضيف إلى هذا أن « مل » فيما يظهر كان صاحب الفضل في  
إشاعة الاسم التقليدي لهذا المذهب ، إذ قيل إنه عثر على اللفظ  
في روايات « جولت » — حوليات الأبرشية — كما يصرح بذلك  
في « سيرة حياته » Autobiography ولم يكن أول من استخدمه  
بهذا المعنى كما زعم ، فقد استخدمه « بنتام » عام ١٧٨١ وأكّد  
بعد أنه الاسم الوحيد الذي يلائم مذهبهم ، وأشار هالتي M. Halvéy  
في كتابه عن « تطور النظرية النفعية » إلى وجود هذا اللفظ في بحث  
وضعه « أوستنس » J. Austens ونشره عام ١٨١١ عن الحس  
والحساسية ، ولكن « مل » قد استخدم اللفظ للدلالة على جمعية  
صغيرة ألفها في شتاء عام ١٨٢٢ / ٢٣ ، ومن هنا اعتقد خطأ أنه  
أول من استخدم اللفظ بمعناه المألوف <sup>(١)</sup> .

---

(١) ibid, p. 3-4 note وقارن :

Mill's Utilitarianism ص ٦ من طبعة (١٩٣٨) Everyman's

سمى المذنب بهذا الاسم لأنه ينشد النافع ، ولما كانت اللذة ليست أنفع الغايات ، أُغفل الاسم في الدراسات العلمية الحديثة ، ولكنه بقي للدلالة على اسم المدرسة التي تدين بالنعمية ، أما الاسم الجديد فقد أشرنا إليه في تصنيف مذاهب اللذة عند « سدجويك » Sidgwick — ونعني مذهب اللذة العامة<sup>(١)</sup> .

هذه لمحة إلى بعض معالم النعمية حاولنا بها أن نضيء بعض ما غمض من مجالاتها ، تمهيداً للحديث عن النعمية منذ نبتت لذة فردية تقوم على الأنانية الخالصة ، حتى تمثلت في صورة دعوة للنعمة العامة أو لسعادة المجموع .

# الفصل الثاني

## مذهب اللذة الأنانى

- تمهيد في نشأة المذهب — (١) مذهب الفوريانية —  
تعقيب — (٢) مذهب الأبيقورية — تعقيب —  
(٣) مذهب توماس هوبز — تعقيب

### تمهيد في نشأة المذهب :

نبقت المنفعة في صورة لذة فردية تستند إلى الأنانية الخالصة ،  
وتمثلت عند طائفة من الحسين الذين أخلصوا لمنطق نزعتهم  
الحسية نظريا وعمليا ، وكانوا أجراً من استعجاب لنداء الشهوة  
واستسلم لوحى اللحظة التي يعيش فيها ، من غير أكثر من أياملاء  
عقل أو صوت ضمير ، وجعلوا من هذا مذهباً فلسفياً ارتدوا به إلى  
رجل عماش بفكره وسلوكه مثلاً أعلى يسترشد به طلاب المبادئ  
والنبل !

أغفل « سقراط » + ٣٩٩ ق . م الكتابة وعاش معلماً  
فانتهى مذهبه عند طائفتين من أتباعه إلى حركتين متضادتين :  
اقتن الكلبية cynics بما بدا في خلقه من ضبط للنفس وتمسك

بالحق وتشبث بالبساطة فقصروا اهتمامهم على الدعوة للفضيلة بعد أن تمثلوها في حياة الزهد والحرمان ؛ وافقن القورينائية Cyrenaics بأحاديث أستاذهم عن السعادة التي اعتبرها الباعث على مزاولته للفضيلة ، وسرعان ما تحولت هذه السعادة في نظرهم إلى إقبال على اللذات الحسية العاجلة ، ومحاربة حياة الزهد والحرمان !

وشبيه بهذا يمكن أن يقال في المصير الذي آل إليه مذهب أرسطو + ٣٢٢ ق . م انتهى عند طائفتين من أتباعه إلى حركتين متضادتين شبيهتين بالحركتين السالفتين ، تخير « الرواقية » Stoics من مذهبه « الطبيعة الناطقة » وأعجبتهم إشادته بدور العقل في حياة الناس ، فآخذوا العقل في مذهبه الأخلاق مرشدهم الأمين ، ومجدوا من إملاءاته حتى يخدموا بها نار الأهواء والشهوات ، فخاروا اللذات وطالبوا بالزهد والحرمان ، وجعلوا شعارهم : عِشْ على وفاق الطبيعة — أى العقل ، واهتم الأبيقورية Epicureans بدور اللذة ومكان السعادة من مذهبه ، إن اللذة في ذاتها ليست شراً ، وإن كان الإسراف في طلبها مضرة ، إنها ترشد الإنسان إلى أفعاله الخيرة وتقتن بها ؛ أما السعادة فإنها غاية الحياة القصوى ، يبذلها الفيلسوف عن طريق الاستغراق في التأمل العقلي ، إنها تسير أشرف فضيلة تميز

الإنسان من سائر الكائنات ، وهي فضيلة النظر العقلى ...  
وسرعان ما تحول هذا الجانب من مذهبه إلى مذهب فى اللذة  
عند الأبيقورية .

يعنينا من هذه الحركات الأربع مذهب التورينائية  
والأبيقورية ، فهما نبتت اللذة الفردية التى تقوم على الأثرة  
الخالصة ، بدت عند الطائفة الأولى حسية عاجلة ، واتسعت عند  
الطائفة الثانية حتى شملت الحسية والروحية معا ، ثم تطورت فى  
مطلع العصر الحديث إلى مذهب فى الأثرة النفسية على يد توماس  
هوبز + ١٦٧٩ T. Hobbes ومن ذهب مذهبه ، وفى هؤلاء  
جميعا يتمثل مذهب اللذة الأنانى أصدق تمثيل ، فلنعرض  
مذاهبهم فى هذا الصدد موجزين :

## ١ - مذهب القورينائية

اتصل « أرسطيوس » + ٣٦٦ ق . م Aristippus منشيء القورينائية بالسوفسطائية قبل أن يتلمذ على سقراط ، ومن هنا كان تأثيره بنظريتهم في الأخلاق والدين معاً ؛ اللذة عنده هي الخير الأقصى ، وهي غاية الحياة الإنسانية ومقياس القيم ومقياس الأحكام الخلقية ؛ وقد كان <sup>(١)</sup> « پروتا غوراس » + ٤١٠ ق . م السوفسطائي يقول في مذهبه النسبي إننا لا نستطيع أن نعرف من الأشياء الخارجية أكثر من آثارها في نفوسنا ، والإدراك نسبي لأنه يقتضى نسبة بين عقل مدرك وموضوع مدرك ( أى بين عاقل ومعقول ) فتابعه في هذا « أرسطيوس » وتأدى به هذا إلى إقامة الأخلاقية على وجدان الشعور والألم ، فالحركة اللطيفة التي نسميها باللذة هي الخير الوحيد ، والحركة العنيفة التي نسميها بالألم هي الشر الوحيد ، واللذات تنفق كيفاً ولكنها تختلف درجةً وديمومةً ؛ وقد اتفق القورينائية مع سائر المدارس السقراطية --- من كلبية ومينارية وأفلاطونية --- في

(١) H. Sidgwick, Outline of Hist. of Ethics (1939) p. 32-3

« وفي ترجمتنا العربية : المجل في تاريخ علم الأخلاق » ص ١٠٦ - ١٠٨

الاعتماد بأن الحكمة أو المعرفة هي خير ما يملك الإنسان ، وأفضل صنوف هذه الحكمة معرفة الخير ، وعند هذا انتهى الاتفاق بينها ، فتشعبت بعده إلى اتجاهات قد يصاد بعضها بعضاً ، فرأى « أرسطوس » مع غيره من أنصاف السقراطيين<sup>(١)</sup> ألا حاجة بنا إلى البحث النظري لاكتشاف الخير ومعرفة الفضيلة ، فالأخلاقية تقوم على وجدان اللذة والألم ، وكل ما ينطوي عليه سلوكنا من جمال سرّد الإعجاب به إلى أنه « نافع » أو مؤدّد إلى خير ، ومن هنا انتهى إلى القول بأن الخير لا يمكن أن يكون إلا أنه تنشدها جميع الكائنات الحساسة مساقّة بدوافعها الطبيعية ، بينما تنفر هذه الكائنات من ضدها — وهو الألم .

واعتبر القورينائية الحياة مجموعة آفات ، لكل أن منها لذته ، وهذه اللذة الحسية المؤقتة صوت الطبيعة فن الضلال أن نتردد في الاستجابة له ، وليست القيود التي تمنع الإنسان من التمتع باللذة إلا من وضع العرف ، ومن هنا وجب تحطيم هذه القيود المصطنعة ومزاولة الذات من غير عائق ، بشرط ألا تتعلق بها أو تفكر في مستقبلها ، لأن هذا كقبيل أن يترق النفس قلقتاً ، إن إلحاح الشهوة لا سبيل إلى الخلاص منه إلا

---

(١) Semi - Socratics هم الكلية والقورينائية واليغارية — أما

أنلاطون فهو السقراطي الكبير .

بإشباعها ، أو بالتخلص من الحياة إن عز ذلك !  
وآلت للدرسة بعده إلى ابنته « أريتيه » Arété ثم إلى  
ابنها « أرسطوس الصغير » وواصلت اعتناقها للذة الحسية وإسرافها  
في الإلحاد ، واعتُير أهلها — كما اعتبرا للذيون عامة — أحرار  
فكر ، وكان لم فضل في تحطيم بقايا العقيدة الوثنية بين المستنيرين ،  
وفي حديث « تيودورس » وإيروهميروس Euhemerus عن  
الآلهة في مطلع القرن الرابع ما يشهد بهذا الإلحاد .

والرواية التي وصلتنا عن « أرسطوس » تمثله لنا وقد حقق  
في حياته مثله الأعلى على أكل وجهه ولا يزال التاريخ يحفظ  
سيرته مع صديقه المستهتر « لائس » Laïs التي كان يرمز بها  
إلى الشهوة ، اتهمه خصومه بأنه يحول بمذهبه الإنسان حيوانا  
ينساق مع فطرته وشهوته من غير ضابط ، فقال : إني أملك  
« لائس » وليست « لائس » هي التي تملكني ، أي أنه ليس  
عبد شهواته ، إنه يسيطر عليها وإن استجاب لما يختارا ؛ إن  
اللذة أداة للاستمتاع ، فإذا سئمت وجب اغتنامها ، وإن راحت  
فلا ندم ولا أسف على ما فات .

حقيقة إن القورينائية قد استفرقتهم لذات الحس العاجلة ،  
ولكن نظرية في الرجل الحكيم عند بعضهم قد أنقذتهم من  
وهدة الحسية البهيمية القذرة ، فالحكيم عند جمهورهم هو الذي



يمتاز بالتبصر والعقل وُبعد النظر ، والاستخراق في طلب اللذة .  
قد يفضى إلى الألم والحسران ، وهو ما ينبغى أن يتفاداه الحكيم ،  
إذن فالحكيم هو الذى يظل سيد نفسه فيضبط رغباته وقد يرجي  
الملح منها متى حقق له هذا لذة أكبر أو ألما أقل<sup>(١)</sup> وعلى هذا  
— فيما يبدو — كان أرسطوس مع « لايس » !

ومن هنا نلاحظ أنهم — مع استراقهم في لذات الحس —  
قد سلخوا بوجود لذات عقلية تبدو في الصداقة والمحبة العائلية  
وغبطة الإنسان برفاهية وطنه ... وانهى هذا إلى أن يقول  
« أنيسريس » Anniceris إن الحكيم من ضحى بنفسه في سبيل  
أصدقائه أو أفراد أسرته ! هذا قبس من نور في دنيا من الظلام ...  
وستبدو هذه الومضة أظهر في مذهب « أبيقور » .

إن الفلسفة في نظر الإغريق هي فن الحياة الخيرة ، وهي  
الملم الذى يعرض لدراسة هذه الحياة ، ومن هنا كان المنتظر أن  
يعترفوا عن فلسفة اللذة ، فشر المتأخرون من التورينائية بأنهم  
مضطرون إلى تغيير فكرتهم الرئيسية ، فعرف « تيودوروس »  
الخير بأنه البهجة التى تتوقف على مزاوله الحكمة باعتبارها

---

W.T. Stace, Critical Hist. of Philos. (1950), p. 162 (١)

متميزة عن مجرد اللذة<sup>(١)</sup> ، وصرح « هجسياس » Hegesias  
مثمناً بأن السعادة متعذرة المنال ، وأن التجربة تشهد بأن آلام  
الحياة أقوى من لذاتها ، وأن السعادة يتمذر بتحققها ، ومن ثم  
كانت غاية الحياة غير ممكنة التحقيق ، بل إن الموت أفضل من  
الحياة ، لأنه يحقق نوعاً ممكناً من السعادة على أقل تقدير ،  
هي سعادة سلبية قوامها الهرب من الشعور بالألم ... بهذا تحوّل  
طلب اللذة إلى عزوف عن اللذة ، ومن ضاق بالحياة كان عليه  
أن يتخلص من آلامها بالانتحار ! فسمى من أجل هذا :  
« الناصح بالموت » واستجاب له الكثيرون حتى خشى الملك  
بطلميوس الأول استفحال دعوته للانتحار فأمر بقتله وإغلاق  
مدرسته<sup>(٢)</sup> !

### تعقيب

حسبنا في التعقيب على هذا أن نشير موجزين إلى أن  
مذهبه أقرب في جوهره إلى اتجاه السوفسطائية منه إلى مذهب  
سقراط ، إن سقراط لم يوصَ بمزاولة الفضيلة ابتغاء ما ينجم عنها

(٢) H. Sidguick, *ibid*, p. 84-5 وفي لسختنا العربية « ص ١٧١

من ميزات ، إن الفضيلة هي الطريق الوحيد الذي يسلم إلى السعادة ، ولكن السعادة بدورها هي الباعث على التزام الفضيلة ، وليس معنى هذا أنه لم يعترف بأن واجب الإنسان أن يؤدي الخير لفئاته لا لما يترتب عليه من مقام .

إن الحياة قيمتها مرهونة بنهايتها ، وإذا كان الإنسان يشارك سائر الكائنات في خصائص وبتميز عنها في أخرى ، وجب أن تكون غاية ملائمة للجانب الذي يميز طبيعته وبه يكون إنسانا ، من هنا ننتهي إلى رفض إشباع اللذة الحسية أو إرضاء الشهوة البهيمية غايةً عليا ينشدها الإنسان ، أما التخلص من الحياة فمعجزٌ ويأس لا يليق بإنسان سليم ؛ إن الحياة شرط الفضيلة ، وهل تستقيم الفضيلة بغير إنسان حي ؟ إذن فالمثالية الأخلاقية تستبعد التشاؤم وتقتضى الحرص على الحياة كشرط لقيام الفضيلة ؛ حيث تنعدم الحياة لا توجد الفضيلة .

على أن نظرة القورينائية إلى الحكيم قد ردت للمذهب بعض قيمته ، وإن خرجت به عن حدود منطقته ، ولكن المذهب سيجد في الأبيقورية ما يبرئه من بعض مأخذه :

## ٢ - مذهب الأبيقورية

انصرفت الفلسفة بعد ممات أرسطو عن التأمل في الوجود لذاته إلى التفكير في حياة الإنسان ، وترتب على هذه الذاتية Subjectivism أن قنع التفكير الفلسفي بالبحث في الأخلاق وما تقتضيه من اعتبارات ، ومن لم يستطع أن ينسى نفسه ويُفنى في الوجود ذاته ، لا يقوى على إبداع تفكير خالد يتحدى الزمن ، من هنا كانت المدارس التي أعقبت أرسطو إذا عرضت للميتافيزيقا والمنطق والطبيعة لم تدرسها لذاتها ، بل لأنها تمهد للأخلاق !

ويعيننا من يمثل هذا الاتجاه في ذلك العصر « أبيقور » + ٢٧٠ ق . م لأنه يمثل اللذة الفردية التي تعيننا في هذا البحث ، اتفق أبيقور مع « أرسطوس » في أن اللذة هي الخير الأسمى ، وأن الألم هو الشر الأفعى ، ولكن أبيقور عدل مدلول اللذة وجعله أرحب مما كان عند القورينائية ، فشم على يده لذات الحس ولذات العقل والروح جميعا ، وتمشيا مع مذهبه للمادى في تفسير الوجود أقر اللذة الحسية ويمكن لها ، وصرح بأن الإنسان كالحيوان من حيث إنه ينشد اللذة منساقا بنظرته

دون تدخل من عقله أو ثقافته ، وما يستطيع العقل أن يتصور خيراً إلا وكان مقترناً على الدوام بعنصر حسي ، فالإنسان يلتمس اللذة بطبيعته ، ويسخر العقل لتهيئة الوسائل لتحقيقها ، وكل لذة خير ما لم تقترن بالألم فتصبح من أجل ذلك شراً ، أو وسيلة سيئة للسعادة ، وإذا نجحت عن الألم لذة وجب طلبه ، وبهذا استحال « مذهب اللذة » إلى « مذهب في المنفعة » ، يرى المثل الأعلى في طلب أكبر قسط من اللذات والمنافع يبقى مدى الحياة .

وهكذا أصبح الإنسان لا يرفض لذة إلا من أجل نتائجها الآلمية ، ولا يختار ألماً إلا متى كان وسيلة لتحقيق لذة أعظم ، وأكد « أبيقور » أنه لا يقصد باللذة إلا ما يقصده الرجل البسيط السوي حين يتحدث عن متعه الحسية ، لأن استبعاد نداء الشهوة من فكرة اللذة يسلبها مغزاها ، ولكنه يرى أن الحكيم هو الذي يعمل على ضبط نزغاته ، ويعرف ما يستحق الإشباع منها وما يستحق التمتع ، وإذا كان الجسم يتعرض للألم ولا يستطيع أن يتفاداه فإن العقل يستطيع أن يخفف من حدة الألم الجسماني بما يهيئه للإنسان من قدرة على تذكر اللذة الماضية وتوقع اللذة المقبلة ؛ من هنا نشأت التفرقة بين كيف اللذات عند أبيقور ، ووضوح الخلاف بين مذهبه من ناحية والمذهب الحسي

الدارج كما يبدو عند القورينائية من ناحية أخرى ، ذلك أن مذهب أبيقور يمتاز بالاعتراف بالوجدان الناشئ عن تذكر الماضي والتوقع السابق للمستقبل ، ومن هنا رأينا الحكيم الأبيقورى ينشد نوحاً من السعادة المتصلة والطمانينة الدائمة ، ولا يقنع بلذة الحس الراهنة .

وإذن فأسمى الذات عنده ما كان عقلياً ، هذه النظرة تتصل برأى أفلاطون فى جمهوريته حين حقر من لذة الحس ، إلا أن أفلاطون قد رأى أن مجرد التخلص من الألم الناشئ عن الحاجة يأخذ الحسيون خطأً على أنه لذة ، ومرّد هذا الخطأ عنده إلى إدراك خاطئ illusion يتولد عن التباين القائم بين الحالتين ، أما أبيقور فيرى أن إشباع الحاجة يمدد الوجدان اللذاتى المادى بالحياة التى لا يهبجها ألم ولا يثيرها قلق ، وإذا كان أرسطوبوس والقورينائية من ورائه قد التمسوا اللذة الحاضرة وأشفقوا من التقيّد بالمستقبل فطالبوا بالتححرر من عبوديته ، فإن أبيقور يصرح بأن التححرر من المستقبل عبودية للحاضر ، وأن حرية الإنسان لا تقوم إلا فى التماس غاية تكون هدفاً للحياة كلها حرص أبيقور فى كل هذا على تحصيل اللذة ، والذات عنده إيجابية تتمثل فى متع الحس ، وسلبية تتمثل فى الذات الباطنية التى تبتدو فى الخلو من الانفعال ، هذه هى الطمانينة السلبية

أو الأتركسيا Ataraxia المعروفة عند الأبيقورية ، أو الأباتيا Apathia التي يشاركون فيها الرواقية ، وهي التوازن الباطني وهدوء العقل والتحرر من الانفعال الذي ينشأ عن التأمل في غايات الحياة لذاته ، وهذه اللذات السلبية أعظم ديمومة ، ومن ثم كانت أسمى مكانا ، وإن كان للذات الحسية مكانها الأول عند الأبيقورية على ما أشرنا من قبل .

ومهمة الفلسفة أن تزود صاحبها بطمأنينة النفس وهدوء العقل وتحرره من المخاوف ، فإن أعظم ما ينتاب الإنسان من وجوه القلق الذي ينشأ عن توقعه للمستقبل مرجعه إلى خوفه من الموت وخشيته من غضب الآلهة ، ومصادر هذا الخوف لا يمكن تفاديها إلا بدراسة الكون ومكان الإنسان منه ، أى بعلم الطبيعيات وبه يتحرر الناس من شر الخرافات وشقاء الأوهام . وقد وجد أبيقور الخلاص في مذهب الجوهر الفرد Atomism عند « ديموقريطس » + ٣٦١ ق . م وهو الذي يفسر الكون بطريقة آلية خالصة ، ومن ثم تكون الآلهة عديمة الجدوى مع أن أبيقور يسلم بوجودها وظهور أطيافها في أحلام اليقظة والنام على السواء ، ولكنه لا يرى مبرراً للخوف من غضبها وانتقامها لأنها مقدسة خالدة ، وما يجوز لئلاها أن يهيجها الغضب

أو يعمسها الرضا أو يسبب لغيره ألماً ؛ فإذا زال الخوف من شيء يعقب الموت ، بقي الخوف من الموت نفسه . ومرد هذا عند أبيقور إلى خطأ في التفكير ، فنحن نخاف ملاقات الموت مع أن هذا التلاقي لن يكون أبداً ، عند ما نكون أحياء يكون الموت بعيداً عنا ، فإذا أقبل الموت انعدم وجودنا .

وتعشياً مع هذا المنطق أوجب أبيقور أن يتجنب الإنسان كل ما يؤدي إلى القلق أو الانفعال حرصاً على طمأنينة نفسه ، ومن ثم لا يهتم بالحب والزواج ، ولا يساهم في الحياة السياسية والاشتغال بالشئون العامة إلا في ظروف استثنائية ، وليس في هذه الدعوة من بدع طالما كان أبيقور ينشد — على ما عرفنا — لذته الفردية ، أي منفعته الشخصية .

بل إن مسaire المنطق النفي تأدت به إلى تشويه الفضائل التقليدية باسم المنفعة الذاتية ، فالحرص على العفة والاقتصاد في التمتع بالذات الطبيعية مرجعه إلى الخوف مما يترتب على الإسراف في التمتع من قلق وألم ، وبالعفة ينظم الحكيم الأبيقوري شهواته فلا تطغى اللذات الدنيا على العليا ، والعدالة — كغيرها من الفضائل — ليست خيراً في ذاتها ، إنها مجرد تعاقد لا تقام الأذى المتبادل ، فإذا لم يوجد هذا التعاقد أو كان في وجوده مضرّةً جاز



للإنسان الخروج على مبدأ العدالة أو عصيان القانون وهو آمن من عذاب ضميره ، إذ لماذا يطلب الحكيم بتنفيذ هذا التعاقد متى سئحت له فرصة الجور والعدوان وكان هذا في مصلحته ؟<sup>١</sup> والصدافة لا تقوم إلا على المنفعة المتبادلة ، وإن كان الحكيم قد يضحي بحياته في ظرفٍ ما من أجل صديق ، ومع ذلك فالصدافة كغيرها من الفضائل ليست غاية في ذاتها ، وإنما هي وسيلة نافعة للسعادة ، ولكن المثل الأعلى عند الأبيقورية — والرواقية — قد اكتمل في أخوة الحكماء ، وبدا واضحاً في انسحاب الأبيقورية من الصراع السياسي والنزاع الخطابي ، والانصراف إلى الحياة البسيطة الهادئة محاكاةً للألهة في راحتها الأبدية بعيداً عن تلاقي الجواهر الفردة اتفاقاً — أي هذا الذي نسميه دنيانا الحاضرة .

ولكن الأبيقورية قد انحدرت في أواخر حياتها إلى ما كانت عليه القورينائية ، ومن هنا اشتهر أبيقور خطأً بالاستهتار ، وأتباعه أخلق باللاتهام<sup>(١)</sup> .

---

(١) Cf. Sidgwick, *ibid.*, p. 85 ff. ( في لسختنا العربية

ص ١٧٣ وما بعدها ) ثم لارن : W. Wallace, *Epicureanism*, ch. VII : وكذلك Bertrand Russell, *Hist. of Western Philosophy* (1948),

نلاحظ مما أسلفنا أن الأخلاق عند الأبيقورية قد تجمعت في تأويل فكرة اللذة ، وأن اللذة عندهم هي لذة الآن الذي هم فيه — حسية أو عقلية — على نحو ما ذهبت التورينائية ، وأنهم آثروا لذات العقل والروح على لذات الحس ، لأن الحس لا يقوى على تذكر لذة مضت أو توقع لذة مقبلة ، وأن فكرتهم عن اللذة سلبية وليست إيجابية ، هدفهم أن يحققوا للإنسان حالة الطمأنينة التي تقوم على الخلو من الألم وتغاضى القلق والمتاعب ، أما السعادة الإيجابية فليست في مقدور البشر ، هذا إلى أن اللذة عندهم لا تكون في تعدد الرغبات وإرضائها أو تكثُر الحاجات وإشباعها ، لأن التمدد يجعل إشباعها متعذراً ، إنه يعقد الحياة ولا يضيف إلى سعادتنا شيئاً ، فمن الحكمة أن نقلل رغباتنا وحاجاتنا ما أمكننا ذلك ، إن الحكيم الذي يعيش على كسرة من الخبز وشربة من الماء يستطيع أن يحيا مع « زيوس » في غمرة من السعادة ، إن البساطة والبساطة والاعتدال والعفة خير ما يسلم إلى السعادة ، ثم إن المثال الأبيقورى وإن كان يتضمن إمكان التصرف بنبل وسمو ، إلا أنه في صميمه أنانى أثر ؛ إنه يقوم على الفردية للطرفة ، ويتطلع إلى هذا النبل من خلال الذات<sup>(١)</sup> .

. Stace, W.T. ibid, p. 358 ff. (١)

## تعقيب :

حسبنا في التعقيب على ما أسلفنا أن نقول إن للذهب الأبيقورى في اللذة الفردية حسي في أكثر مقوماته ، وفيه توافرت سموات المذاهب الحسية في مجال الأخلاق بوجه خاص ، فقد التمس اللذة واعتبرها معيار التقييم ، حوّلها إلى منفعة شخصية ذاتية وتفهّم الفضائل المعروفة في ضوءها ، أى في ضوء أنانيته فأحالها إلى ردائل ، وأنكر وجود خير في ذاته فيسّر له هذا أن يحمل الفضائل أداة لإشباع رغباته وتحقيق مصالحه ، وما لهذا وجدت الأخلاق .

ويتميز للذهب الأبيقورى بظاهرة شاركه فيها معاصروه من الرواقية والشكاك ، وهي أن الأخلاق عندهم جميعا سلبية وليست إيجابية ، أقصى أمانهم أن يحققوا للفرد نوعا من طمأنينة النفس وهدوء العقل وصفاء البال ، ويبدو هذا فيما أشرنا إليه من تركسيا وأباتيا ، من أجل هذا آثروا أن يقطعوا صلّتهم بالعالم ويتعمدوا عن زحمة الدنيا وضجة مشاغلها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ذلك أدعى إلى تنادى الانفعال الذى يمكر صفو النفس ويقضى على سعادة الإنسان ، هذه النقطة أقرب ما تكون إلى أخلاق النساك والصوفية ، وليست أخلاق الرجل الذى يلتمس سعادته

في الكفاح ، ويجد لذته في تحقيق مثله العليا التي تتطلب جهاداً  
مريراً وصبراً طويلاً ، وحقيقة أننا لا نميل إلى مذهب نيتشة  
+ Nietzsche ١٩٠٠ في جملته ، ولا نرحب بدعوته التي صور  
فيها مثله الأعلى قائماً في إرادة القوة Will to be mighty وقهر  
المنافسين والسير على جشهم في غير فرق ولا رحمة ...

لا نرحب بهذه الدعوة التي تردنا إلى ما يشبه حياة الغابة ،  
ومع هذا فإننا نقدر دعوته إلى الاعتزاز بالقوة ، واحتمار الضعف  
وحب الصراحة وكراهية الكذب والنفاق والخداع وأنصاف  
الحلول ونحو هذا بما لا غنى عنه في حياة « السوبرمان »  
أو الإنسان الأعلى ، وإن كان الأصل في دعوته أنها تقوم على  
الأنانية السافرة وتوكيد الذات ، والتمبير عن الفردية المتطرفة وهي  
لا تتفق مع نزعتنا الأخلاقية<sup>(١)</sup> ، بيد أن ضيقنا بالجانب السلبي  
في الأخلاق الأبيقورية يكاد لا يقل عن نفورنا من قسوة الفردية  
المسرفة في مذهب نيتشة .

هذا إلى أن اللذة الفردية تقضى على فكرة الواجب — على  
النحو الذي أشرنا إليه في تعقيباتنا على المذهب القورينائي .

---

(١) توفيق الطويل : المثل الأعلى بين وأد الشهوة وإشباعها من

حسبنا هذا عن مذهب الأبيقورية ، وللتابع حديثنا عن  
الآلة الفردية كما تبدو في مطلع العصر الحديث عند توماس هوبز  
فإن المنفعة الشخصية التي بدت نوانها في مذهب « أبيقور » قد  
نمت ومكنت لنفسها في مذهب هوبز ومن جرى مجراه ، ثم  
اتسع مدلولها ولكنه لبث مكينا عند بنتام ، وأخذت سعة المدلول  
تؤثر في ثباته عند « مل » و « سدجويك » فلنعرض آثار  
هذا التطور الذي أدرك فكرة المنفعة .

### ٣ - مذهب توماس هوبز

سار هوبز + ١٦٧٩ T. Hobbes في النزعة الحسية  
المادية إلى أقصى آماها ، فأنكر الروح ولواحقها ، ولم يعترف  
بوجود النفس مستقلة عن الجسم ، واعتبر إحساسات الإنسان  
وأخيلته مجرد « مظاهر » لحركات في أجزاء جسمه الداخلية ،  
وسردّ المواطف والوجدانات إلى اللذة والألم ، ومرجع هذين إلى  
الدورة الدموية ، فكل إحساس يحرك الدم يثير في الإنسان  
لذة ، فإن عاق دورة الدم أثار ألماً ، ومرجع تصرفات الإنسان  
إلى غريزة حب البقاء ، وجميع الدوافع الإنسانية ترمى في نظره  
إلى حب الذات ، وأم ما في نظريته في السيكولوجيا الأخلاقية  
أن شهوات كل إنسان ورغباته تتجه بطبيعتها إلى حفظ حياته  
أو إلى هذا التمادي في حفظ الحياة تمادياً يشعر به وكأنه لذة ، وهذا  
يتضمن المهرب من الألم ، ولا يميز هوبز بين طلب اللذة الغريزية  
باعتباره حالة سيكولوجية واقعية ، وبين طلب اللذة للقصور  
باعتباره تعبيراً عما ينبغي أن يكون ، ويرد الانفعالات التي يبدو  
أنها لا تصدر عن حب الذات إلى حالات من حب الذات ،  
فالشفقة عنده حزن لمصائب الآخرين مرده إلى أن الإنسان

يتصور أن المصيبة نفسها قد نزلت به ! والحرص على أداء الواجب مرجعه إلى الرغبة في الظفر بما يترتب على اتباع الواجب من مغام ، والإعجاب بالجمال إعجابا قد يبدو أنه مجرد عن الهوى هو في الواقع شعور بلذة متوقمة ! ليست الغيرية Altruism في حقيقة أمرها إلا أنانية مقنعة ! والناس إذا لم يلتمسوا اللذة الراهنة رغبوا في اكتساب القوة أداة لإدراك اللذة المقبلة ، فيستشعرون بهجةً مردها إلى مزاوله القوة التي تدفعهم إلى ما نسميه فعلا خيرا ، ويميل الناس الاجتماعية ترجع إلى الرغبة في تحقيق منفعة شخصية ينالها المرء من الآخرين أو عن طريقهم ، أو ترد إلى الرغبة في اكتساب الشهرة أو المجد ؛ والإنسان ينفرد بطبعه من الاجتماع بغيره من الناس ، ولكنه بفطرته محتاج إلى التعاون المتبادل ؛ والخوف المتبادل بين الناس ينتهي إلى الرغبة الطبيعية في الاشتراك في التحالفات السياسية وقبول الالتزامات التي تستلزمها ، ونفورا الإنسان الطبيعي من الاجتماع بغيره من الناس تشهد به تصرفاته ودلالاتها على رأيه في أقرانه من الناس ، فهو فيما يقول هو بزر « إذا هم برحلة سلح نفسه ، وإذا أسلم للنوم عينيه أغلق أبوابه ، وحتى إذا استقر في بيته أقل دواليبه ، وهو يفعل هذا كله مع علمه بأن هناك قوانين وحراسا على الأمن مزودين بالسلاح ليثأروا من كل

أذى يمسّه ١٠٠٠ « الإنسان ذئب حيال أخيه الإنسان ، إذا تهيأت له القوة اعتدى على من دونه واستحوذ على غير ما يملك ، فإن أعوزته القوة اصطنع الحيلة لبلوغ مآربه ، كان هذا حاله حين كان هجيا ولم يزل هذا حاله متمدينا ، إن المدنية لم تفعل أكثر من أنها حجبت العدوان بسقار من الأدب ، وأحلت النعمة أو القصاص في ظل القانون مكان استخدام العنف ومعالجة الأمور بالفظظة ١٠٠٠

إذن فما الذى ينبغى أن يفعله هذا الإنسان حتى يأمن على نفسه ويطمئن إلى مصالحه ؟ إنه أنانى بفطرته نافر من الناس بطبعه ، ولكنه يعيش معهم جنبا إلى جنب ، والأفعال الإرادية عند الناس تهدف إلى حفظ حياتهم وتحقيق لذاتهم ، فليكن هذا هو غاية الإنسان التى ينبغى أن يحققها سلوكه ؛ إن غاية الأفعال الإنسانية تحددها طبيعة الإنسان ولا يملكها عقله ، حسبُ العقل أن يرشده إلى الأساليب التى تمهد لتحقيق غاياته في حفظ بقائه وتحقيق لذاته — وإلى هذا ذهب القورينائية والأبيقورية من قبل — وبهذا العقل نفسه يلتمس الإنسان الأمان من أجل مصلحته الذاتية ، ومن هنا وجب أن نلتمس السلام فإن عز السبيل وجب تحقيقه عن طريق القتال ، إنه تعاقدٌ بين الناس غايته تحقيق



مصالحهم الشخصية ، وللتوصل إلى ذلك قد يتغلى الإنسان عن بعض حقوقه الطبيعية أو يتنازل عن منفعة عاجلة في سبيل منفعة آجلة تكبرها ، ويضطر إلى أن يكون صادقا أميناً متسامحاً عادلاً باراً لعهوده ، ينأى بنفسه عن سب الآخرين وتحقيرهم أو الزهو والغطرسة عليهم ... وغير هذا مما يتلخص في هذه القاعدة : لا تعامل الناس بما لا تحب أن يعاملوك به .

ولكن هو بزلا يدعو إلى طاعة القواعد الأخلاقية لذاتها ، بل لما يترتب على طاعتها من منافع ذاتية ، بل إنه يرى أن اتباع الإنسان لقواعد الأخلاق سرهون بمراعاة كافة الناس لها ، إذ ليس من العقل في شيء أن أسبق إلى أداء نصيبي في عقد متى ساورنى شك معقول في أن الطرف الثانى لن يقوم بعد ذلك بتعهداته ! ولا يمكن للإنسان أن يقصر بغير ذلك إلا متى كان في مجتمع يوقع العقاب بكل من لا يقوم بتعهداته في العقد ، ولا يكون هذا إلا بقيام « سلطة عامة » لها من القوة والسيطرة ما يُلزم الأفراد باتباع قواعد الأخلاق التى تكفل المصلحة المشتركة بينهم ، فإن مما يعوق الطبيعة عن تحقيق غايتها في حفظ الذات :

أن يكون الإنسان ساذجاً فيقوم وحده دون غيره باتباع

القواعد الأخلاقية لصالح الآخرين ، وبذلك « يجعل نفسه فريسة لغيره » .

أو أن يكون متمتعاً بحيث يرفض اتباع هذه القواعد مع اطمئنانه التام إلى أن الآخرين سيتبعونها ، وهو بهذا لا يلتمس السلام ولكنه ينشد القتال .

وقد عاش الناس قبل قيام الحكومات في حالة من الممجيبة لا مكان فيها لحق أو باطل ، لعدالة أو ظلم ، وهي حالة حرب يتحفظ فيها كل فرد للعدوان على جاره ، إنها حالة خلو من القواعد الأخلاقية تتمثل فيها التماسه والشقاء ، ومن أجل هذا كان أول واجب يمليه حب الذات القائم على العقل أن يخرج الإنسان منها إلى حالة السلم الذي يتهاى في ظل دولة منظمة ، وهذه الدولة إما أن تنشأ عن تعاقد بين المواطنين على طاعة حاكم مطلق أو مجلس يقوم متحدداً بشئون الحكم ، وإما أن تنشأ بالاغتصاب عن طريق القوة التي تمكن الظافر من إخضاع المغلوبين لأسره ، وفي كلتا الحالين يجب أن تكون سلطة الحاكم مطلقة لا تحتل نزاعاً ، إته مسئول أمام الله وحده عن أداء واجبه في تحقيق الخير لرعاياه ، وأواسره هي مقياس الصواب والخطأ ومستوى الخير والشر ، إنه يمثل الهيئات التشريعية والقضائية والتنفيذية والدينية

معاً ، بهذا يصون أمن البلاد ويقيها شر الفتن الدينية والحروب الأهلية ، وبهذا هاجم « هوبز » حرية الاعتقاد الدينى والمجالس النيابية فى سبيل الأمن الذى يحقق مصلحة مشتركة يفيد من ورائها كل الأفراد ، ومن أجل هذه الغاية رحب باستبداد الحاكم ورأى أن وضع أوامره موضع الجدل أول خطوة مؤدية إلى الفوضى ، وهو خطر يفوق كل ما فى التشريع والإدارة من نقائص ؛ وصرح هوبز بأن نداء الضمير الفردى مدعاة لهذه الفوضى ، ومن هنا ارتد الإلزام الأخلاقى فى مذهبه إلى سلطة خارج الذات ، هى السلطة السياسية .

من هذا نرى أن مذهب هوبز يقوم نظرياً على مبدأ الأثرة ، وخلاصته أن من الطبيعى ومن ثم يكون من المعقول ألا يقصد سلوك الإنسان إلا لحفظ حياته وتحقيق لذاته ، بينما تقوم الأخلاق الاجتماعية على القوانين والنظم التى تضعها السلطة السياسية ، وبهذا يؤكد المذهب نسبة الخير والشر بمعنيين ، هما من ناحية غرض الرغبة والنفور عند الفرد على التعاقب ، أى أنهما يتغيران بتغير الأفراد ويختلفان باختلاف ظروفهم ؛ ثم إن الحاكم السياسى — من ناحية أخرى — هو الذى يقرر الخير والشر لمواطنيه .

وقد أثار هذا الوجه من المذهب معاصري هوبز وخلفائه على  
السواء ، فاتفق هؤلاء جميعاً على أن يفسروا الأخلاقية تفسيراً مضاداً  
يهدمون به مذهبه ، وسنعود إلى بيان هذا بعد قليل .  
وهكذا بدا للإنسان في مذهب هوبز هجياً شريراً غير  
مدنى بالطبع ، أنانياً يؤثر مصلحته على كل اعتبار ، نفوراً من  
الاجتماع بغيره من الناس ، ولكن مصلحته اقتضت أن يتنازل  
عن جزء من حريته لتحقيق مصالح أخرى يحققها اجتماعه بغيره  
من البشر ، ومن ضرورات الاجتماع التهادن والتعاون والسلام .  
ومن هنا كان العقد الاجتماعي عنده ، قوامه الأثرة التي تقر  
التضحية بخير عاجل في سبيل خير آجل يكبره ، ولا سبيل إلى  
احترام هذا التعاقد إلا عن طريق حاكم مستبد مطلق تجتمع في  
يده كل السلطات ، ويخضع لأوامره جميع المواطنين<sup>(١)</sup> ، فحسبنا  
هذا بياناً لمذهب هوبز ، ولنعقب عليه بكلمة خاطفة عسى أن  
يضع مدى الحق أو الباطل في مذهبه .

تعقيب :

كان هوبز مؤدياً للأمير الذي تولى عرش إنجلترا باسم شارل  
الثاني عام ١٦٦٠ ، وكانت إنجلترا في ثورة على حق الملك المقدس

١ . Sidgwick, *ibid.*, p. 163 ff. (١)

في خلافة الله على أرضه ، ودكت الثورة عرش الملكية وأنشأت على أنقاضها جمهورية يتزعمها « كرمول » وفي سورة المطالبة بالحرية والديمقراطية وضع هوبز فلسفته السياسية التي ضمنها مذهبه الأخلاق ، كانت في جملتها رداً على الاضطراب السياسي الاجتماعي الذي تعانیه بلاده ، فصور الدولة تنينا عظيماً<sup>(١)</sup> تتلاشى معه إرادة الأفراد وتمحى ضمائرهم . إنه لا يعترف بدعوى الثائلين بأن الملكية أمانة إلهية ترتفع فوق كل جدل ، ولكنه يراها ضرورة اجتماعية لا مفر منها لكل مجتمع يطمح في الأمن والاستقرار ؛ من أجل هذا يقيمها على الاستبداد ويضع في يد صاحبها من القوة والسيطرة ما يمكنه من إشاعة الأمن وتحقيق الخير لمواطنيه ، وبهذا يأمن المجتمع همجية أفراده ونفورهم الطبيعي بعضهم من بعض ، ويتقى شرهم الذي تدفعهم إليه فطرة طبيعتهم . . . ومعنى هذا كله أن هوبز قد فلسف أحوال بلاده وعالج اضطرابها بمذهبه الأخلاقي ، فكان مذهبه في اللذة الفردية صدى حالة عارضة مرت بوطنه . وإذا كان « سدجويك » يرى في هذا المذهب « أصالة وقوة واتساقاً واضحاً » فإننا نرى قيمته تاريخية أكثر منها قيمة علمية ، وقد كانت حالة بلاده عرضاً طارئاً لم يلبث أن زال ، وكان كذلك

---

(١) عنوان أشهر كتبه : Leviathan (1650) أى التنين .

مذهبه الذى إذا اعتبرت شيعته بسد هوبز إن أقوى فضل لهذا المذهب أنه كان مثاراً لنقد جيلين من المفكرين الذين أرادوا أن يقيموا الأخلاق على أسس فلسفية نجاءت مذاهبهم فى صورة ردود على مذهب هوبز ومنالطاته ، ولم يعيش مذهبه الدكتاتورى بعده ، بل من وطنه سارت الديمقراطية إلى سائر الدول الأوربية ، ولما كانت فكرته عن العقد الاجتماعى مرتبطة بمذهبه فى اللذة الفردية رأينا أن نقف عندها قليلاً :

حاول هوبز أن يوفق بين فكرته فى الحكم المطلق ونظريته فى العقد الاجتماعى ، ولم يجعلها استبدادية دينية أساسها حق إلهى مقدس ، ولا شعبية دنيوية على النحو الذى بدا عند روسو + ١٧٧٣ J.J. Rousseau فيما بعد ؛ إنهما يتفقان فى نظرية العقد الاجتماعى ويختلفان فيما عدا ذلك ، فالإنسان عند هوبز همجى أنانى شرير بطبعه ، ينفر بفطرته من الاجتماع بغيره من الناس ، والتعاقد إنما جاء من رغبة كل فرد فى أن يأمن على نفسه من شر أخيه ، أى لىكى يحتفظ بحياته ويحقق منافعه ، أما « روسو » فقد رأى أن الإنسان بطبيعته أليف ودود ، إنه خير بفطرته ، والتعاقد إنما جاء من رغبة الأفراد فى توحيد جهودهم للعمل لصالح الإنسانية ، وغاية هذا التعاقد التسوية بين الأفراد

في الحقوق والواجبات ، ومن هنا كانت ديمقراطية الحكومة  
وحق الناس في التمرد عليها إن أفسدت الحكم ولم تحقق الغاية  
المرجوة من وجودها ، وقد سبقه جون لوك في القول بقيام الدولة  
على أساس من التعاقد الاجتماعي بين الأفراد لصون حياتهم  
وحماية أملاكهم ، والشعب ممثلاً في أغليته هو صاحب الرأي في  
حكومته ؛ كما أن سبينوزا + ١٦٧٧ Spinoza قد كتب يؤيد  
الديمقراطية في نفس الوقت الذي أيد فيه هوبز الدكتاتورية  
المطلقة ، وجاء روسو بعد ذلك فأكمل الجهود المباركة التي بدأها  
سبينوزا ، وإن كان هذا قد وافق هوبز في أن الإنسان نفور بطبعه  
من الاجتماع بغيره من الناس .

إن الإنسان شرير بطبعه وليس خيراً على نحو ما ظن  
روسو ، ولكنه تأزر مع غيره من الأفراد بغية التعاون لدفع  
الخطر ... إلى آخر ما يراه « سبينوزا » في هذا الصدد .

وهكذا نرى حين نضع « هوبز » في مكانه بين أصحاب  
الفكر السياسي من معاصريه وخلفائه أنه استمد نظريته  
السياسية — التي ضمنها مذهبه الأخلاقي — من أحوال بلاده  
وصداها في نفسه ، ومن هنا كانت قيمة مذهبه الأخلاقي تاريخية  
وليست علمية ، وتداعت وفقاً لذلك فكرته عن اللذة التي تستند

إلى الأنانية الخالصة ، واختفى أنصار مذهبه أو كادوا<sup>(١)</sup>.

ويشهد بقيمته التاريخية انشغال مفكرى الأخلاق إبان جيلين بالرد على وجهات النظر التي تضمنها مذهبه ، حتى قيل بحق إنه كان نقطة بدء صدرت عنها اتجاهات الفلسفة الخلقية الحديثة ؛ على أساس مذهب هوبز قام المذهب العقلى الحدسى عند معاصريه من أفلاطونى كامبردج ، ضاقوا برهن الأخلاقية بإرادة الحاكم فأكدوا استقلالها عن كل إرادة بشرية أو إلهية ، وألحوا فى إقرار اليقين الأخلاقى الصادر عن الحدس ، وساءم مكان الأنانية من مذهب هوبز ، فردّوا الأعلاقية إلى العقل وجعلوه السلطة المشرعة فى مجال الأخلاق .

وشارك هؤلاء فى مهاجمة هوبز وتفنيد أخطائه طائفة من الفلاسفة فى القرن الثامن عشر خارج كامبردج هم دعاة « الحاسة الخلقية » ، فقررروا أن فى الإنسان بطبيعته شعوراً فطرياً نحو الجماعة ، وأدخلوا الايثار باعثاً على السلوك الأخلاقى ، وفصلوا بين الأخلاقية وإرادة الحاكم السياسى لأنهم ردوها إلى طبيعة الفعل

---

(١) من الباحثين من رفض اعتبار « ماندفيل » Mandville بل حتى « هلقينوس » من دعاة مذهب الذة الأنانى — انظر Mackenzie p. 171



الإرادي ، وردّ آدم سميث + ١٧٩٠ A. Smith وشوبنهاور + ١٨٦٠ Schopenhauer بواعث الفعل الخلقى إلى المشاركة الوجدانية وتعاطف الإنسان مع غيره ضيقاً وسروراً ؛ وظهرت فكرة الإيثار مع الأثرة جنباً إلى جنب ، أو طمست هذه الأثانية وأخذت معالمها عند بعض الأخلاقيين .

وأكد بطر + ١٧٥٢ Bishop Butler أن في الطبيعة البشرية — بالإضافة إلى جانبها الحيوانى الشهوانى — جانباً عقلياً فطرياً يتمثل فيما نسميه بالضمير Conscience ، وظيفته أن يميز بين الخير والشر ، وأن يصدر على أفعال صاحبه وتصرفات الآخرين أحكاماً موضوعية لا تقوم على الهوى ولا تستند إلى الأثرة .

وتطلع أصحاب المنفعة العامة إلى الصالح العام وحاولوا أن يتجاوزوا هذه اللذة الفردية إلى مصلحة المجموع ؛ وجاء « كانت » + ١٨٠٤ Kant ، فلم يقنع بهذه المذاهب كلها وردّ الأخلاقية إلى العقل العملى الذى يدبر حياة الإنسان ، وأقر الواجب « أمراً مطلقاً » Categorical Imperative يستمد قيمته من ذاته ، ولا تتوقف أخلاقيته على ما ينجم عنه من نتائج — لآذة أو البية ، نافعة أو ضارة .

بهذا وبغيره خفت صوت الأثرة وغلبه صوت الإيثار ،  
واخضت اللذة غايةً عليا لحياة الإنسان ، وسمت فكرة الواجب  
واحتلت مكانها في فلسفة الأخلاق ، وأخذ الإنسان يعرف قيمة  
حياته كإنسان ، تسيّر سلوكه مبادئ عليا تصدر عن أسى جانب  
في طبيعته ، ولا تخضع حياته الخلقية لنزوة طارئة أو هوى مفاجيء  
أولده مغرية أو أنانية مُلحة ؛ بهذا انهدم مذهب اللذة الأثاني ،  
وأصبح اتجاه القورينائية والأبيقورية قديما وهوبز وجاسندي  
+ P. Gassendi وماندفيل Mandville ومن إليهم  
حديثا قصة تُروى عبرةً وعظة — أو هكذا ينبغي أن تكون  
نظرتنا إلى هذه المذاهب ، بهذا تسمو قيمة الحياة الإنسانية وتفترق  
عن شريعة الغابة .

بل إن من الباحثين من رأى أن هوبز مع غُلوه في لذيته  
يمكن أن يشار الشك في دعوته إلى الأنانية ؛ ذلك أنه رأى أن  
سعادة الإنسان هي الباعث الوحيد الذي يغريه بإتيان أفعاله ، فتخلى  
بهذا عن توحيد بين السعادة واللذة ، لأن السعادة عنده لا تقوم  
في راحة العقل القانع ، بل تقوم في اتصال الأمانى عند الإنسان  
بحيث لا تتحقق له رغبة حتى تنشأ عنده رغبة أخرى<sup>(١)</sup> بل لقد

---

G. C. Robertson, Hobbes (ed. W. knight), p. 136 (١)

اتمى هوبز في آخر أمره إلى الاعتراف بقانون العقل الذى يتطلع إلى صالح المجموع ، ومع أن أعمال الناس تختلف — ويجب أن تختلف — باختلاف الظروف ، إلا أن قوانين الطبيعة ثابتة أبدية ، إن الظلم والكنود والظفرسة ونحوها لا يمكن تبريرها أمام محكمة الضمير ، لأنها تُفضى إلى الحرب ، ولا يمكن أن تكون الحرب أداة لحفظ الحياة ، وأن يكون السلام أداة لفنائها ...<sup>(١)</sup> من هنا كان شك الباحثين فى اعتبار هوبز من دعاة اللذة الفردية ، ولكن الواقع أن روح مذهبه تؤكد هذا الاتجاه الأناني بما لا يدع مجالاً للشك ، وما نظن أننا فى حاجة لتأييد هذا الرأى بعد الذى أسلفناه ، وحسبنا أن نذكر أن مذهبه يدور حول حفظ الحياة وتحقيق الذات ، والإنسان عنده أنانى يؤثر مصلحته على كل اعتبار ، ومصلحته هى التى تدفعه إلى التغلب على نفوره الطبيعى من الناس ، فيجتمع بهم تحقيقاً لمصالحه وإشباعاً لذاته ، والمقد الاجتماعى عنده يقوم على الأثرة الخالصة ، والحكم الاستبدادى مرده إلى أنانية الإنسان التى تستوعب طبيعته وتحتاج إلى من يكبح جماحها ... إلى آخر هذا الذى عرفناه من

(١) . ibid., p. 142

قبل ، وفي هذا وغيره مما سلف ما يكفي لاعتبار هوبز داعية من دعاة اللذة الفردية لا محالة .

حسبنا هذا تعقيباً على الذين من أتباع الأنانية الفردية ، فإننا سنعود في آخر الكتاب لمناقشة اللذة غرضاً أقصى لرغبات الإنسان ، ومعياراً أسمى لأحكامه الخلقية ، وسنرى مدى ما في هذا الاتجاه من زيف وبطلان ، ولنمض الآن إلى الحديث عن اللذة كما بدت في النضية التجريبية عند أشهر أعلامها . ثم تعمقها بعد ذلك في مظانها من مجالات الفلسفة الحديثة .

# الباب الثاني

مذهب المنفعة العامة

في صورته التجريبية

الفصل الأول : النفعية عند چيرى بنتام

الفصل الثاني : النفعية عند جون ستورّت مل



## الباب الثاني

### مذهب المنفعة العامة

#### في صورته التجريبية

مهدنا للنفعية في الباب السالف بعرض صورها ومناقشة مصطلحاتها ، والإيانة عنها في صورتها الأولى حين كانت لذة فردية تستند إلى الأنانية الخالصة ، ونريد في هذا الباب أن تتناولها بعد أن أصبحت التماسا لسعادة المجموع ، وتميزت بخصائص التجريبية التي سادت تفكير القرن الماضي ، نعرض في الفصل الأول فلسفتها الواقعية كما بدت عند « جيرمي بنتام » وتحدث عنها في الفصل الثاني بعد أن خفّت حدة واقعيها وغزتها على يد « جون ستورت مل » عناصر عقلية ممتعة ؛ فإذا فرغنا من هذا عقبننا بعرض صور من النفعية غزت مجالات الفلسفة عند المحدثين والمعاصرين :





# الفضل الأول

النفعية عند بنتام

١٧٤٨ - ١٨٣٢

تمهيد في تجريبية القرن التاسع عشر - بنتام وروح  
عصره - النفعية قبل بنتام - مصادر مذهبه - فضله  
على النفعية - مكان اللغة في مذهبه - علم حساب  
الذات - مشكلة التوفيق بين صالح الفرد وصالح المجموع  
- أساس الأخلاقية في مذهبه - تهدير ومناقشة . .

تمهيد في تجريبية القرن التاسع عشر:

سادت النزعة التجريبية فلسفة الجزيرة البريطانية منذ عصر  
النهضة حتى يومنا الحاضر ، وأخذت هذه التجريبية صوراً شتى ،  
حسبنا منها أن تشير إلى صورتها التقليدية التي بدت في القرن  
السابع عشر والثامن عشر<sup>(١)</sup> ، وبلغت ذروتها في فلسفة هيوم ، لتمييز  
بينها وبين التجريبية الحديثة التي خلقتها في القرن التاسع عشر ،  
وتمثلت عند طائفة من الفلاسفة أشهرهم جيرمي بنتام + ١٨٣٢  
J. Bentham وجيمس مل + ١٨٣٦ James Mill وجون

(١) من فرانسيس بيكون وتوماس هوبز وجون لوك (ق ١٧)

مل باركلي وحافيد هيوم (ق ١٨) .

ستورت مل + ١٨٧٣ J.S. Mill — أساطين النفعية التجريبية  
التي تستغرق هذا الباب — ثم هربرت سبنسر + ١٩٠٣  
H. Spencer والسيرلسى ستيفن + ١٩٠٤ L. Stephen — من  
أعلام النفعية التطورية التي سنتناولها في فصل من فصول  
الباب التالي .

توقفت التجريبية القديمة إثر رحلة شنها على « هيوم » عام  
١٧٦٤ توماس ريد + ١٧٩٦ T. Reid والمدرسة الاسكتلندية  
من ورائه ، لم تصمد هذه التجريبية لضغط هذه الحملة ، ولم تُفق  
من ضربتها حتى زودها بنتام بفيض جديد من الأفكار أعانها  
على أن تصمد للنزاع حتى جاء جون ستورت مل وردّ للمدرسة  
الاسكتلندية ضربتها بحملة شنها عام ١٨٦٥ على السير ولیم هملتون «  
+ ١٨٥٦ W. Hamilton فاكتسح المدرسة الاسكتلندية من  
الميدان ، وكان انتصاره بعد قرن من الزمان انتقاما لهزيمة هيوم  
أمام « ريد » عندئذ ثبتت دعائم التجريبية مرة أخرى وأثبتت  
أنها أقوى المذاهب الفلسفية المعاصرة وأصلحها للبقاء .

وبعينا من خصائص هذه التجريبية الحديثة شعبيتها ، لم  
تقم على أكتاف العلماء والإحصائيين — كما كان حال للمذاهب  
الفلسفية المعاصرة — ولم ينهض بها أساتذة في الجامعات أو مفكرون

يشغلون وظائف علمية مرموقة ، بل اضطلع بها مفكرون يشتغلون  
بمهن حرة عملية ، من هنا تغلخت هذه التجريبية في كل مجالات  
التفكير المعاصر ، غزت بنفوذها الآداب والسياسة والأخلاق  
والقانون والتربية والإصلاح الاجتماعى وغيره من مجالات ،  
وسيطرت على تيارات الفكر فيها وشكلتها بروحها وتركت عليها  
طابعها ، بهذا أصابت نفوذاً واسع النطاق لم يتبهاً لحركة فلسفية  
أخرى ، وتمكنت الفلسفة بهذا من أن تنسل إلى البرلمان وتؤثر  
في السياسة ، وتوجه التشريع ، وتسيطر على التربية ، وتقدم  
حلولاً للمشاكل العملية فى شتى ميادين الحياة ، بهذا خلفت عصر  
التنوير<sup>(١)</sup> وورثت تقاليده فى الانصراف عن التأمل العقلى المحض  
إلى التفكير فى خدمة الحياة العملية وحل مشاكلها .

ولكن الواقع أن التجريبية التقليدية حين انحدرت إلى  
القرن التاسع عشر ، كانت قد استنفدت الكثير من إمكانياتها  
النظرية ، كادت تحتفى الأصالة والإبداع من آثار أهلها ، حقيقةً  
إنهم لم يكونوا مجرد نقلة أو مقلدين ، إنهم لم يعيشوا على استهلاك

---

(١) أخس ما يميز عصر التنوير سيطرة العقل على الحياة الإنسانية ،  
وإضاءة عقل الفرد وضيقه بنور المعرفة ، وعمد طادة من بداية القرن السابع  
عشر إلى بداية القرن التاسع عشر ، بدأ فى انجلترا بتجريبية يكون  
وهويز ولوك .

ما تلقوه من أسلافهم من تراث ، لقد ورثوا رأس المال ولكنهم أحسنوا استغلاله ، وقد خلفوا وراءهم قيماً جديدة لها خطرها في الحياة ، وكان فضلهم غامراً في إخصاب التجربة وتنظيم المناهج وفتح آفاق جديدة للبحث ، ولكن غلوة هذه التجريبية في الاهتمام بمادة التجربة قد عرضها لخطر جسيم ، إن الوضع الصحيح يقتضى أن تسيطر الفلسفة على التجربة وتستغلها لصالح البحث ، فإذا استسلمت الفلسفة للتجربة وخضعت لسلطانها استهدفت للإجذاب ؛ من هنا رأينا فلسفة هؤلاء التجريبيين قد انحرفت بهم عن المشاكل الفلسفية الرئيسية ، فاستخفوا بالبحث النظرى الخالص ، ووقفوا من المشاكل الميتافيزيقية موقفاً سلبياً محضاً ، ونقلوا نظرية المعرفة إلى مجال علم النفس ، وحولوا المنطق إلى مناهج تجريبية ...

إن التجريبية الحديثة حركة تمتاز بالشمول والسعة أكثر مما تمتاز بالدقة والعمق ، غزت بالبحث مبادئ جديدة ، وإليها ندين بالمنطق التجريبي ومناهج البحث وامتدادها إلى معالجة المشاكل العملية في مجال الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وغيرها ، وإن تخلفت عن التجريبية التقليدية التي سبقتها في مباحثها الإستمولوجية<sup>(١)</sup> .

حسبنا هذا عن خصائص التجريبية التي سادت التيارات العقلية في القرن التاسع عشر ، وسنرى في ضوءها مذهب المنفعة العامة كما بدا عند بنتام ومل ، فيه تمثلت هذه الخصائص وتجسمت ، وكان بنتام بوجه خاص أصدق معبر عن هذه الخصائص .

### بنتام وروح عصره :

من الفلاسفة من يسبق عصره فيعيش بأفكاره غريبا بين معاصريه ، ومنهم من يجمع في تفكيره أظهر خصائص الزمن الذي يعيش فيه ، ويحسن التعبير عنها والترويج لها فيعيش أليفا بين معاصريه ، وقد كان بنتام من الصنف الأخير ، وكان مذهبه في المنفعة أصدق تعبير عن روح عصره ؛ وتميزت فلسفة العصر بالسعة والشمول ، فأنسعت آفاق بحثها ، وتغلقت في شتى مجالات المعرفة ، واصطبغت بالزرعة الحسية التجريبية التي سادت تفكير العصر حتى تضاعفت

---

R. Metz, A Hundred Years of British Philosophy. (١)

. (1988), p. 47 — 51

إلى جانبها كل نزعة أخرى<sup>(١)</sup>. وفي بنتام ونفعيته تتمثل هذه  
الخصائص :

ركز بنتام اهتمامه في فقه القانون ولم يسمُ في ذلك على  
تفكير عصره ، بل اعترف بأنه مدين في ذلك المجال لأسلافه  
من أمثال « هلفثيوس » و « بيكاريا » ، وعن طريق البحث  
في القانون انتهى إلى الاهتمام بالأخلاق والسياسة<sup>(٢)</sup> وصرفته  
نزعته الحسية عن التأمل السقلى المجرد إلى الفلسفة العملية التي  
تتمثل في الأخلاق وما يستند إليها من مجالات التفكير  
— كالسياسة والتشريع والإصلاح الاجتماعى ونحوه ، من هنا  
تغلخت فلسفته في شتى مجالات المعرفة ، وكان تأثيره الغلاب على  
معاصريه ، فالتفت حوله التقدميون من المفكرين الأحرار ، وكان  
أول نفعى اجتمع حوله المريدون الذين تألفت منهم مدرسة من  
مدارس التفكير تحمل اسمه ، ونشطت هذه المدرسة في شرح مبادئه  
الذمعية وتطبيقها على مشا كل الحياة العملية ، والدعوة للمذهب

---

(١) عاصرت بنتام حركة روحية انحدرت عن الألمان وروج لها من  
الأدباء « كولريديج » + ١٨٣٤ ونزعة حدسية مثلها وليم  
هملتون + ١٨٥٦ وجيمس ماكتنوش + ١٨٣٢ ( من المدرسة  
الإسكتلندية ) ولكنهما حركتان ضعيفتان إذا قيستا بتجريبية هذه الفترة .  
Bertrand Russell, Hist. of Western Philosophy (٢) :

وإشاعته في العالم التمددين يمينا ويسارا ، بل تحولت أفكاره إلى برنامج سياسي يلتف حوله جماعة الراديكاليين من الفلاسفة الذين مهدوا لظهور مذهب التطور عند داروين ومذهب الاشتراكية — وبفضل تلامذته كان لأفكاره دورها تحت قبة البرلمان ، وإن كان بنتمام لم يواجه الجماهير ولم يتزعم الحركة الراديكالية إلا في سن الستين لأنه كان حمييا مسرفاً في الحياء ، ولكنه استطاع أن يطبق ، بإدته النفعية على أعرض المشاكل السياسية والقانونية والإدارية بدقة ومهارة لا نجد لها عند أحد النفعيين نظيرا ، وبفضل ما أوتيته من قدرة على التعبير ، ومهارة في وضع المناهج الكفيلة بدقة التطبيق كان مؤسس النفعية الحديثة غير منازع .

وفي بنتمام ونفعيته تمثلت النزعة الحسية التي سادت تفكير العصر ، استغرقه الإعجاب بالعلوم التجريبية ودقتها ، فاستسلم للتجربة الحسية حين استهدف لأخطارها ، وبدا كلفه وحرصه عليها في الموضوعات التي يتوخى بحثها ، والمناهج التي يصطنعها لدراستها ، وفي مذهبه النفي أصدق مثال يشهد بنزعه الحسية ، لم يعالج الأخلاق كما تعالج العلوم الصورية — على نحو ما فعل الحنديون والمقليون من الأخلاقيين ، وإنما حاول أن يدرسها

كما تدرس العلوم الطبيعية التي تمتاز بالدقة والضبط الذي تكفله لها مناهج الاستقراء ومقاييسها ، ولم يتطلع إلى تصوير مثل إنسانى أعلى ، بل هاجم معيارية الأخلاق التقليدية ، وحاول وضع علم رياضى لقياس الذات ووزن الآلام التماسا للدقة والضبط ، وتمشيا مع نزعتة الحسية سوى بين أنواع الذات ورفض أن يفرق بينها كيفاً ... إلى آخر ما سنراه مما يشهد بنزعتة الحسية . بهذا وبغيره كانت النفعية أصدق تعبير عن تفكير بنتام ، وكان تفكيره أصدق تصوير لروح عصره .

#### النفعية قبل بنتام :

بشر بالنفعية الكثيرون من أسلافه ، بل تلقى عن بعضهم رسالتها ، حتى صيغته مذهب « أكبر قسط من السعادة لأ أكبر عدد من الناس » قد استعارها بنتام من سابقيه ! إن هذا لا يطن في الجهد الذى بذله ، ولا يحيط من قيمة التراث الذى خلفه ، ولكنه يشهد بأن بنتام كان صدى عصره وابن بيئته .

ولكن كيف تطورت « الفردية » التى كانت طابع مذهب اللذة الأنانى فأصبحت رغبة فى تحقيق مصلحة المجموع ؟ لعلنا لاحظنا من تعقيباتنا على « هوبز » أن الطابع الفردى فى فلسفة



اللذة عند القدماء قد استمر قائماً حتى مطلع العصر الحديث ، وأن  
هوبز + ١٦٧٩ قد أثار معاصريه وخلفاءه من فلاسفة الأخلاق  
بنزعتهم الفردية الأصيلة ، ودعوته إلى الأنانية السافرة ، وكان من  
أثر هذا الغلوان أخذت تظهر الدعوة للانصراف عن الأثرة إلى  
العقل مدبراً للحياة الخلقية ، ووضع الاتجاه إلى فكرة التماطف  
الذي يدفع صاحبه إلى مشاركة غيره وجدانياً في مسراته وأحزانه ،  
وتأكدت فكرة الصالح العام معياراً أسمى للفضائل والقيم ، وبهذا  
تهيأ الجو لقيام مذهب المنفعة العامة عند بنتام ومل (أبا وأبنا) <sup>(١)</sup> .  
بل أخذ هذا الجو يتكشف قبل توماس هوبز ، إذ بدأ  
بيكون + ١٦٢٦ F. Bacon فوضع السياسة والتشريع في أرفع  
مكان ، وأوجب أن تقوم الأخلاق على نفس المبدأ الذي يقوم  
عليه التشريع ، فاحتلت فكرة الصالح العام مكان الصدارة  
في البحث الخلقى ، ولكن سيكون ترك فكرته يعوزها التحديد  
الذي أضفاه عليها بنتام <sup>(٢)</sup> بعد قرنين من الزمان .  
كانت فكرة « الخير العام » عند بيكون غاية تهدف إليها

---

(١) الأب هو جيمس مل + ١٨٢٦ James Mill ، والأبن هو  
جون ستورت مل + ١٨٧٣ John Steuart Mill وقد تتلمذ عليهما  
مماً — وهؤلاء الثلاثة هم أعلام النفعية التجريبية الحقيقيون .  
(٢) W. Wundt, Ethics, Vol. II., p. 143

أفعال الناس ، ثم جاء « كبرلند » + Cumberland ١٧١٨ فكان — فى رأى البعض — أول رائد حقيقى لمذهب المنفعة العامة ؛ لأنه كان أول من أكد « الخير العام للجميع » غايةً علياً ومعياراً أسمى تتقرر بمقتضاه جميع القواعد والنضائل ، وطالب كل إنسان عاقل بأن يقوم بخدمة غيره من الكائنات الأخرى حتى تتحقق سعادة الفرد والمجموع معاً ، وبهذا أضفى « الخير العام » قانون الأخلاق الأسمى<sup>(١)</sup> .

وجاء « شاقسبرى » + Shaftesbury ١٧١٣ فرفض أن يتصور الإنسان فرداً منعزلاً عن غيره من الناس ، وأوجب النظر إليه من خلال علاقته بمجموع يؤلف هو جزءاً منه ، ومن ثم أنكر رأى « هوبز » الذى ذهب فيه إلى أن الإنسان الخير يسارع إلى نشر الفساد بين أقرانه متى ترك من غير رقابة حكومية ، وصرح « شاقسبرى » بأن الرجل الخير هو الذى تنزن دوافعه وميوله بحيث يعمل على ترقية الخير للمجموع ، فلا تقوم خيريته على أفعاله الخارجية من نتائج نافعة ، إن الخير عنده هو الذى تنزع ميوله ووجداناته من ذاتها وبشير لإكراه خارجي إلى العمل على تنمية خير المجتمع الإنسانى أو سعادته ، بشرط ألا تطفى الدوافع

---

. Sidgwick, op. cit., p. 174 (١)

التي تنزع إلى المحافظة على الفرد ، فإذا وُجد التوازن بين بواعث  
الواجب ودوافع حب الذات ، سعد الفرد وتحققت الخيرية ،  
وكان مقياس الأخلاقية قائماً في النزوع إلى تنمية الخير العام للجنس  
البشرى ؛ وهذه الوجدانات الاجتماعية المجردة عن الهوى ، النزاعة  
إلى خدمة الآخرين ، تحتل في الحياة الإنسانية مكاناً ممتازاً ،  
وتوافرها يحقق التمتع الذاتي ، والافتقار إليها شقاء و بلاء مؤكد ؛  
وفي مذهبه في الحاسة الخلقية Moral Sense يقرر أن الإنسان  
يحب الخير لذاته أو لجماله ، لا لما يترتب على إتيانه من لذات  
أو منافع ، وينفر من الشر لذاته أو لقبهه ، لا لما ينجم عن ارتكابه  
من مضار أو متاعب ، ذلك لأنه كان يوحد في فلسفته بين الخيرية  
والجمال (١) .

وتابعه في هذا التيار تلميذه « هاتشيسون » + ١٧٤٦  
F. Hutcheson الذي هذب آراءه وجعلها — فيما يقول  
سدجويك — مذهبا من أكثر المذاهب الخلقية التي بين أيدينا  
إحكاماً وإتقاناً ، وعن طريقه أثرت هذه الآراء في تفكير  
« هيوم » + ١٧٧٦ D. Hume واتصلت بمذهب المنفعة  
العامة ؛ ردهاتشيسون — مع أسجاده شافتسبري — الحاسة الخلقية

إلى طبيعة الإنسان باعتباره كائنا اجتماعيا ، ورأيا أن الذوق الخلقى  
المفروس في فطرتنا يلزمنا بإتيان كل فعل مفيد للمجتمع ككل ،  
وأن ما يفيد المجتمع على هذا النحو هو ما ينزع إلى تحقيق « أكبر  
قسط من السعادة لأكثر عدد من الناس » ؛ استخدم هاتشيسون  
هذا التعبير الذي أصبح شعار النفعية المتأخرة ؛ ولكن نفعية  
هاتشيسون وأستاذه تقوم على غيرية تهدف إلى الصالح العام غايةً  
لها ، وتسمو بالإحسان للغير والمشاركة الوجدانية حتى تملب نداءها  
على صوت الأنانية عند التعارض ، وهو رأى يتفق مع نزعتهما  
الحدسية الخالصة ؛ أما النفعية عند بنتام ومن ذهب مذهبه فإنها  
تقوم أصلا على بواعث فردية ترتد إلى الأثرة ، وهو اتجاه يلائم  
نزعتهن التجريبية ويتسق معها<sup>(١)</sup> .

بل ظهر في عام ١٧٣١ مقال وضعه جون جاي J. Gay  
عن مبدأ الفضيحة أو الأخلاقية الرئيسي ، فاعتبره البعض أوضح  
تعبير عن الموقف النفعي في عصره ، وعلى هذبه كتب بروان  
Brown وتكر Tukur وباليه Paley وغيرهم من ممثلي النفعية  
اللاهوتية ، وسنعود للحديث عنها فيما بعد .

وفي سنة ١٩٤٠ نشر أول بحث وضعه دافيد هيوم

---

. Cf. Wundt. op. cit., p. 168ff. (١)

D. Hume عن الأخلاق في الكتاب الثالث من بحثه في الطبيعة البشرية *Treatise of Human Nature* ، وفي عام ١٧٥١ نشر كتابه « بحث في مبادئ الأخلاق » *Inquiry concerning the Principles of Morals* وضمنها وجهتين مختلفتين من النظر ، ولكن كتابه الثاني أقرب إلى التعبير عن رأيه الصحيح ، ويبدو دُتوه من النفعية عندما يعالج البحث في الباعث الخلقى على الأفعال الإنسانية ، فيرد هذا الباعث في بحثه الأول إلى الأناية الخالصة ، وهو موقف سلم به « جاى » وهارتلى وبروان وتكر وباليه وبنتام وجيمس مل ، أما في كتابه الثاني فقد عرض لدراسة الطبيعة البشرية وصرح بأنها تجمع بين نزعات الغيرية الأصيلة وميول الأثرة السافرة ، واعتبر الإحسان المجرد عن الهوى نزعة طبيعية خالصة ، ومع أنه لم يحسن استخدام المبدأ النفعى الذى سلم به ، إلا أن بعض مؤرخيه قد اعتبروه مؤسس النفعية من بعض وجوهها<sup>(١)</sup> .

وبين الكتابين السالفين نشر دافيد هارتلى *D. Hartley* بحثاً تحت عنوان : « مشاهدات على الإنسان » (١٧٤٩) هذب فيه نظرية تداعى المعانى ، وكان يوجب أن يسترشد السلوك

---

. Cf. Plamenatz, op cit, ch.II. (١)

الإنسانى بالكتاب المقدس لا بالتأجج التى تترتب على أفعال الإنسان ، ولكنه سلم بمبدأ المنفعة ، وسبق بنتام فى إثارة البحث فى حساب اللذات ، كما سبق مل إلى التفرقة بين أنواع اللذات كنيافاً ، ومن هنا كانت قيمته فى تاريخ النفعية .

هؤلاء هم أظهر المفكرين الذين بشروا بالنفعية قبل بنتام ، وإن ذهب بعض مؤرخيها خطأ إلى إن جون لوك J. Locke كان بكتابه « بحث فى العقل البشرى » ١٦٩٠ مؤسس النفعية الإنجليزية ، وليس أدل على خطأ هذا من أن لوك لم يؤمن بمبدأ السعادة التصوى ، وإن كان لتجربيته خطرها الملحوظ فى تطور النفعية<sup>(١)</sup> .

#### مصادر مذهبه :

ومن مؤرخى « بنتام » من يرى انه بدأ حياته العقلية بمجموعة قليلة من الأفكار ، أخذ أغلبها من « دافيد هيوم » وبعضها من « هلفتيوس » + C. A. Helvétius و « بيكاريا » و Beccaria و « بريستلى » Priestley ، فقد زار بنتام الجامعة

---

(١) تارن فى هذا مادة Utilitarianism فى Encyclopedia of Religion & Ethics مجلد ١٢ طبة ١٩٢١ وكذلك : Albee, Hist. of English Utilitarianism.

التي تم فرج فيها « اكسفورد » ليصوت في انتخاباتها النيابية ، فوجد في مكتبته على كُتب من كليته Queen's College نسخة من كتيب وضعه في ذلك الوقت « بريستلي » تحت عنوان : « مقال عن الحكومة » ، وفي هذا الكتيب وجد بنتمام العبارة السحرية « أعظم قسط من السعادة لأكثر عدد من الناس » . ويسجل بنتمام هذا الحادث الخطير في حياته بقوله « إنه بهذا الكتيب ، وبهذه العبارة التي تضمنها ، تحدت مبادئ في الأخلاق — خاصةً وعامةً — من هذا الكتيب بل من تلك الصفحة أخذت هذه العبارة لفظاً ومعنى ، وهي العبارة التي غزت أنحاء العالم المتمدين » هذا ما يقوله بنتمام ، ولكن مؤرخيه من أمثال السير لسلي ستيفن L. Stephen وهاليفي Prof. Halévy ومونتاج Dr. Montague متفقون على أن بنتمام وجد هذه العبارة عند « بريستلي » ولكنها ليست من وضعه ، إن واضعها الحقيقي هو « فرنسيس هاتشيسون » السالف الذكر<sup>(١)</sup> . بل إن بنتمام نفسه ليعترف في هذا بفضل دافيد هيوم + D. Hume ١٧٧٦ فيصرح بأن قراءته لكتابه « بحث

---

cf. J. Plamenatz, *The English Utilitarians* (1949). (١)

p. 47. وبارن B. Russell في كتابه السالف الذكر ص ٨٠٢ .

في الطبيعة البشرية « نبهته إلى ما لفكرة المنفعة في السلوك  
الإنساني من خطر ، وأزالت عن عينيه غشاوة طالما حجبت عنها  
هذه الحقيقة ، وكان فضله بمد هذا في التمسك بالفكرة وجعلها  
أساس تفكيره وقوام مذهبه<sup>(١)</sup> .

هذا إلى أن بنقام قد راقه من « هوبز » نظرتة إلى طبيعة  
الإنسان ، فقد صورها كما بدت في حالتها الفطرية الأولى قبل أن  
تخضع لقانون ، وسار في مذهبه الواقعي من الإنسان الذي يعمل  
بوحى من فطرتة ، إلى الإنسان الذي يسير بمقتضى قانون ، إن  
الإنسان عنده شرير بفطرتة ، وليس خيراً بطبيعته كما ذهب  
روسو + ١٧٧٨ J. J. Rousseau بعد ذلك ، وما كان لشرح  
متخصص في العقوبات --- مثل بنقام — أن يعتقد أن الناس  
بفطرتهم كرام أخيار ، فإن ميزة الأخلاق تقوم في قدرتها على أن  
ترد إلى حظيرتها قوما ما كانوا ليرتدوا إليها بنير الأخلاق ،  
والاعتقاد بهذا يستلزم أن تفترض مقدما بديهية تقر فيها أن  
الناس بطبيعتهم أنانيون — وهذا ما فعله بنقام ، فجاء مذهبه  
واقعياً يعبر عن أخلاق السوق والدعائم !

---

Cf. R. Metz, A Hundred Years of British Philosophy (١)

(1939), p. 58



وارتد بنتام كذلك إلى نيوتن + ١٧٢٧ J. Newton وكان شديد الإعجاب بآثاره العلمية ، كشف « نيوتن » قانون الجاذبية فاعتقد الكثيرون من معاصريه أنه ختم به علم المادة — علم الطبيعة — وتطلعوا إلى إقامة علم للإنسان ، واعتقد بنتام أن مبدأ المنفعة كفيل بتحقيق هذا الأمل ، إن مبدأ المنفعة ومبدأ الجاذبية متماثلان ! إلى هؤلاء ترتد أصول مذهب بنتام ، في تفكيرهم ووجدت نواته ، ولكن بنتام هو الذى تمهد نموها حتى استقامت مذهبا كاملا .

### فضله على النفعية :

إذا كنا نتتبع عناصر مذهبه إلى أصولها الأولى عند سابقيه ، فليس معنى هذا أننا نسلبه فضله على تدعيم المذهب ونشره ، إنه أول رائد حدد معالمه وأوضح مسراجه ، ومع أنه استعار مبادئه من سابقيه ، فإن فضله بعد هذا غامر ، كانت مهمته أن يضع المناهج التى تحول المبادئ النظرية إلى خطط عملية ، يقول « لسلى ستيفن » إن بنتام كان يعتقد أن الفرق بين العلم الذى أراد أن يضعه ليحدد الطرق التى يتيسر بها تطبيق المبادئ النفعية ، وبين العبارة العامة التى استعارها عن غيره وهى : « أكبر مقدار من

السعادة لأكبر عدد من الناس» كالتفرق بين العبارات التي ذهب فيها أصحابها إلى أن الكواكب السيارة تنجذب نحو الشمس ، وبين قانون الجاذبية الذي يقول إن الأجرام السماوية يجذب بعضها بعضا بنسبة أحجامها طردا ومرجع المسافة بينها عكسا ؛ من هنا كانت مهمة بنتام أن يكتشف إلى أي حد وبأية طريقة يستطيع الإنسان أن يقيس اللذات قياسا كيميا مضبوطا — بالإضافة إلى فضله في نقد النظم القائمة ومقترحاته بصدده إصلاحها — كان بنتام — بعلم الحساب الأخلاقي الذي سنتحدث عنه بعد — يريد أن يستكمل علم الإنسان على نحو ما استكمل « نيوتن » علم الطبيعة بقانون الجاذبية ؛ وقد أبان عن أصول مذهبه وقواعده في ثلاثة كتب : المدخل إلى مبادئ الأخلاق والتشريع — من جزين (١٧٨٩) والثاني — وإن كان قد نشر قبل الكتاب الأول بثلاثة عشر عاما — هو « نبذة عن الحكومة » حل فيه على مقدمة « بلاكستون » Blackston للتعليقات ، والثالث هو علم الواجب وسنعود إلى الحديث عنه بعد قليل .

وكان لنشر كتابه الأول قصة ، ذلك أنه كان في روسيا عام ١٧٨٦ حين أصدر « پاليه » Paley كتابه في مبادئ الفللفة الخلقية السياسية ، وستحدث عنه عند ما نعرض للكلام

على النفعية اللاهوتية — فلاحظ أصدقاء بنتام وتلامذته أن الكتاب يعبر عن كثير من الأفكار التي عاجلها بنتام من قبل ، فأغروه بالعودة إلى إنجلترا ليكن لشهرته بين مواطنيه . وفي عام ١٧٨٩ نشر بنتام « مدخله » الذي كان قد كتبه قبل ذلك بتسعة أعوام<sup>(١)</sup> — فكان أعظم ما كتب ، وفيه وضع المبادئ التي توخى بها هداية سلوكه في مقبل أيامه . وكان قد أودع أحد أتباعه مذكراتٍ فنشرها بعد وفاته بعامين تحت عنوان علم الأخلاق أو الواجب ( في جزئين ) Deontology وفي هذه الكتب الثلاثة أودع خلاصة مذهبه .

ولكن « جون ستورت مل » يعتقد في بحث قصير كتبه عن بنتام أن ناشر الكتاب الأخير « بورنج » J. Bowring . قد غير في أصول هذا الكتاب كثيرا<sup>(٢)</sup> .

وإذا كانت النفعية قد ازدهرت في إنجلترا بفضل الشهرة

---

An Introduction to the Principles of Morals and (١)  
Legislation انظر طبعة ١٩٤٨ وفيها الكتاب الثاني  
Government وانظر مقدمة W. Harrison للطبعة .

(٢) عنوان المقال Essay on Bentham وقد نشر أول مرة في  
« مجلة لندن وستمنستر » ثم أعيد نشره في الجزء الأول من  
Dissertations . and Discussions

التي تهيأت له بين مواطنيه ، فقد تكفل تلامذته بنشرها في القارة الأوروبية والأمريكية حتى أثناء حياته ، وكان أكبر هؤلاء « ديمونت » Dumont أحد مريديه وأصفيائه، واستدعى « ديمونت » إلى روسيا ليضع لها دستورا يقوم على مبادئ بنقام النفعية ، وفي عام ١٨١٧ قام بهذه المهمة لوطنه « جنيف » وفي عام ١٨٢١ استدعى البرلمان البرتغالي بنقام ليضع للبرتغال دستورا شاملا ، وبعد عام أعلن بنقام للعالم استعداده لوضع دستور لأي دولة تحتاج إلى تشريع ، وتكفلت هذه الشهرة الواسعة بإذاعة النفعية والتكئين لمبادئها في العالم المتمددين طولاً وعرضاً. (١)

مطالمة اللذة في مذهبه :

ويقوم هذا المذهب على أساس أن الفعل الخير هو الذي يحقق — أو يحتمل أن يحقق — أكبر مقدار من اللذة (أو السعادة) لأكثر عدد من الناس ، هذا هو مبدأ المنفعة ، وهذه هي غاية الحياة الخلقية التي ينبغي أن يطمح إلى تحقيقها الأفراد والجماعات الإنسانية معا ، ومن ثم تكون أخلاقية الأفعال الإنسانية مرهونة بما يترتب عليها من منافع تحقق السعادة للناس ، وتصبح اللذة هي الخير الوحيد كما يصبح الألم الشر الوحيد في

حياة الإنسان ، ويتمحول علم الأخلاق إلى علم حساب لتقدير ما ينبج عن الأفعال من لذات وآلام .

أساس اللذة عند بنتام — ومن جرى مجراه من النفعيين — فردى أنانى ، يقول فى مطلع الجزء الثانى من مدخله السالف الذكر : إن الطبيعة قد وضعت الإنسان تحت سيطرة سيدين شديدين هما اللذة والألم ، إليهما وحدهما مرجع ما ينبغى أن يأتية من أفعال ، وبهما يتحدد ما سيقدم عليه من تصرفات ، فهما مستوى الصواب والخطأ ، وبعرضهما ترتبط سلسلة العلة والمعلول ، يتحكمان فى كل ما تقوم به من أفعال ، وما يطوف بمخوابرنا من أفكار ، وكل جهد نبذله للتحرر من سيادتهما لا ينتهى بغير إثبات هذه السيادة وتوكيدها . وصفوة القول أن الإنسان قد يدعى القدرة على رفض سيادتهما ، ولكنه يبقى فى الواقع عبداً لهما فى كل حال ؛ إن مبدأ المنفعة يعترف بهذه السيادة ويفترضها أساساً لهذا المذهب الذى يهدف إلى تحقيق السعادة عن طريق العقل والقانون .

ويعود بنتام إلى تفسير موقفه من اللذة فى كتابه السالف عن علم الواجب أو علم الأخلاق ، وفيه يصرح (ج ١ ص ١٧-٨) بأن الغاية فى مجال الحياة الخلقية هى السعادة : إن غاية كل كائن

ناطق أن يحقق لنفسه أعظم مقدار من السعادة ، فكل امرئ أقرب إلى نفسه منه إلى غيره من البشر ، وليس في وسع أحد أن يقدر له آلامه ولذاته ، فففسه لا بد أن تكون بالضرورة أول ما يعنيه ، ولا بد أن تكون مصلحته أول ما يشغل باله .

ومن أجل هذا يحذرنا بنجام من أن تتوقع من الآخرين أن يقوموا بعمل غيري لا مصلحة لهم فيه : لا تحلم قط بأن الناس سيحركون خنصر أصابعهم لخدمتك إلا إذا كانت منفعتهم بتصرفهم هذا واضحة أمامهم ، إنهم لم يفعلوا ذلك قط ولن يقدموا على فعله في مقبل أيامهم طالما كانت طبيعتهم البشرية مصوغة من مادتها الراحنة ، ولكنهم يقبلون على خدمتك مختارين متى كان في ذلك تحقيق لخدمة أنفسهم ، وما أكثر الفرص التي يمكنهم فيها أن يخدموا أنفسهم من خلال خدمتهم لك — (ج ٢ ص ١٣٣) .

إن بين مذهب بنجام الذي ومذهب الزهد والتفكك تبايناً ملحوظاً — فيما يقول تلميذه ديمونت — فإن الزهدة والنسك تفرغهم اللذات وتثير في نفوسهم الرقع ، لأنهم يعتبرون كل إشباع لرغبات الحس إجرامياً كريهاً ، فهم يقيمون الأخلاقية على الحرمان ، والفضيلة على إنكار الذات ، أو بعبارة أخرى

تقوم الأخلاق على عكس ما يحقق المنفعة أو يجلب اللذة ؛ ومن ثمَّ يرضون عن كل ما يقلل متع الإنسان ويسلبه لذاته ، و يضيقون بكل ما يؤدي إلى منفعته أو يزيد من سعادته ، أما بنتمام فلم يقنع بالدعوة للذة غايةً قصوى للحياة الإنسانية ، وإنما طالب بإشباع الرغبات وإرضائها — لا العمل على تقليلها تمكيناً للسعادة كما ذهب أبيقور اللذي من قبل .

وإذا كان هذا هو مكان اللذة من أفعالنا — حتى ما بدا منها غيريا — فلماذا لا يعترف الإنسان بسلاطنتها على نفسه ؟ يقول بنتمام إن أكبر ما يعوق اعتراف الإنسان بسيادة اللذة والألم وهيمتهما على سلوكه ، هو تأثره بالعبارات الخلقية التي اخترعها فيلسوف الأخلاق للتعبير عن أفكاره المتعسفة ، : « إن نعمة حديثة هي نعمة معلم الأحداث أو الحاكم ، فهو قوى وحكيم وطارف وفاضل ، أما قراؤه فهم ضعاف وحمقى وجملة وأراذل ، وصوته هو صوت القوى يستمد قوته من سمو حكمة » « وطلسم الجبروت والكسل والجهل قائم في كلمة واحدة ، كلمة خداعة ذات سيادة ، من الضروري أن نكشف عنها القناع في هذه الصفحات ، إنها كلمة « ينبغي » — « ينبغي » أو « لا ينبغي » وفقاً لظروف قولها ، عندما نقول « ينبغي أن تفعل كذا » أو « ينبغي ألا تقدم على

فعل كذا» ، ألا تكون قد فصلت في كل مسألة في الأخلاق فصلاً حاسماً ؟ إذا كان استخدام هذا اللفظ مسلماً به من كل وجه ، لكان ينبغي أن تحتفى كلمة « ينبغي » من قاموس الأخلاق (ح ١ ص ٣١ - ٢) .

وبمثل هذا يهاجم بنام غير هذا من مصطلحات الأخلاق التي نقرت الناس من الاعتراف بسيطرة اللذة والألم عليهم ، وأثرها في تشكيل السلوك الإنساني ، فيحمل على لفظ « الإلزام » obligation الذي اشتق من اللفظ اللاتيني obligo الذي يفيد التقييد ؛ من سلطة المتكلم المتمجرف نبتت هذه الكلمة ، وتجمعت حولها سحابة من ظلمة الغموض والإيهام ، فوضعت المجلدات الكثيرة لتبديدها . « وفي الحق إن من العبث أن نتحدث عن الواجبات ، إن اللفظ نفسه يحمل معنى كرهها منقراً ، وبالتأ ما بلغ حديثنا عنه فلن يصبح قاعدة للسلوك ، إن الإنسان أو الفيلسوف الأخلاقي يستكين إلى مقعد مريح يطمئن إليه ، ثم يأخذ في نثر آراء قاطعة جازمة في كبرياء حول الواجب والواجبات ، فلماذا لا يعمل بما يقول ؟ لأن كل إنسان يفكر في مصالحه ، إنه شطر من صميم طبيعته أن يفكر في مصالحه ، والأخلاق متى أرتى الرشاد وجد من مصلحته أن يبدأ برعاية



مصالحه<sup>(١)</sup> ! (ج ١ ص ٩ - ١٠) .

وهكذا يقرر بنقام أن اللذة تحتل مكان الصدارة في حياتنا الأخلاقية ، وتوجه مع الألم كل تصرفاتنا ، وأن تأثر الإنسان بالعبارة الأخلاقية الخلابه هو الذى يحول دون اعترافه بأثرها الغلاب فى سلوكه ، وإلى تصوير اللذة باعتبارها الباعث على السلوك الإنسانى ذهب غيره من النفعيين التجريبيين من أمثال جيمس مل + ١٨٣٦ وجون ستورت مل + ١٨٧٣ .

أنكر بنقام - ومن ذهب مذهبه من النفعيين - كلمة « ينبنى » باعتبارها ذات سلطة على ميول الناس الطبيعية ، ذلك أن فلسفة الأخلاق وظيفتها وضع قواعد لهداية أفعالنا وإحراز أعظم إشباع ممكن لدوافعنا الفطرية ، ومن الممكن أن تتفق لذة المجموع مع لذة الفرد بإدخال الجزاءات الدقيقة ؛ بهذا أقام بنقام مذهبه الأخلاقى فى اللذة على أساس مذهب اللذة السيكلوجى ولم يجد فى هذا أقل تناقض<sup>(٢)</sup> ، وبهذا اتفى التعارض بين ما ينبنى أن يكون وبين ما هو كائن ، إن فيلسوف الأخلاق

---

(١) ترجمنا النصوص السالفة كلها أو لمحصناها عن كتاب :

J. Martineau, Types of Ethical Theory, Vol. II, p. 305-308  
(طبعة ثالثة) وذكرنا فى صلب كلامنا الصفحات والجزء الذى رجع إليه هذا المؤلف .

Mackenzie, p. 168-69 note (٢)

لا يقول : ينبئ على الإنسان أن يفعل كذا ، بل يقول : إن من طبيعة الإنسان أن يفعل كذا ، وإذا كان لهذا الإنسان نفع من وراء إقدامه على السرقة ، كان غير مسئول عن ذلك ، إن المسئول عنه هو الإخصائي في عقاب المجرمين ، هو للمشرع الجنائي الذي يسمي تقدير العقوبات ، أو يكافئ الشرطي الزبده بأقل مما يستحق ، أما المجرم فإن سره إلى خطأ ينبئ أن يبرئه منه الأخلاقيون ، والسكير لا يُلامُّ على إفراطه في السكر إلا لأنه يحتاج سكره بثمان باهظ ، وليس الزاهد الذي يفرط في حق جسمه بأقل جنابة ممن يضر نفسه ويؤذي غيره ، ذلك أن الشر هو الشر في نظر الأخلاق . وفي هذا كله سائر بنتام نزعتة الحسية التي أنكر فيها معيارية الأخلاق واعتبرها علما وضعيا .

علم بحساب اللذات <sup>(١)</sup> : Hedonistic Calculus

كان بنتام يريد أن تتوافر في علم الأخلاق الشروط التي لا يستقيم بدونها العلم بوجه عام ، وأظهر شروط الموضوعات التي يتناولها البحث العلمي خضوعها للقياس ، وإذا كانت اللذة عنده

---

(١) تارن Sidgwick, *ibid.*, p. 240-41 وكذلك Mackenzie,

. *ibid.*, p. 170

غاية الحياة الخلقية والباعث الوحيد على إثبات الأفعال الخيرة فكيف نخضعها للبحث العلمي؟ أى كيف نخضعها للقياس، وأى المقاييس يلائم طبيعتها؟ لا يكفي أن تكون الأخلاق بحثنا يهدف إلى الإكثار من اللذة والإفلال من الألم في حياة الإنسان ما أمكن ذلك، وهل يكفي علماء الطبيعة بأن يقولوا إن ظواهر الطبيعة منظملة مضطردة الوقوع؟ ومن الخطأ أن يقال إن الإحساسات لا تخضع للقياس، فإن بنتمام لا يهتم بكيفية الذات والآلام، ولا يمينه كل ما يجرى في الضمير، إنما يعنيه الفعل الذى تبدو فيه العلاقات التى يصنع بها الناس أفعالهم، وقد أخضع علماء الطبيعة الظواهر الطبيعية فى كل صورها لمقاييسهم فكشفوا بهذا عن كنوز ثمينة من الحقائق، فليحتد فلاسفة الأخلاق مثالم وليحاولوا إخضاع الموضوعات الأخلاقية لمقاييس تسلم إلى الدقة والضبط الذى تمتاز به الدراسات العلمية.

من هنا اهتم بنتمام بوضع علم حساب لقياس الذات وتقديرها ومعرفة مدى ما يحققه الفعل الإنسانى منها، فأصبح هذا الحساب عنده معيارا للمفاضلة بين الأفعال الإنسانية والفرقة بين خيريتها وشريتها؛ ولكن الذات منها المتجانس ومنها المتجانف، ولكل منهما مقاييسه:

فأما الذات والآلام المتجانسة فهي التي يمكن أن يقارن بعضها ببعض لأنها من طبيعة واحدة ، وقد وضع بنقام لقياس هذا الصنف من الذات سبعة مستويات صنفها بعض مؤرخيها إلى أربع مجموعات هي :

١ — الشدة Intensity والديمومة duration .

٢ — التيقن من تحقق الذة certainty ومدى احتمال تحققها propinquity or remoteness ، فالعمل الذي يحقق الآن لذة يفضل فعلا آخر يحققها فيما بعد .

٣ — الخصوصية أي ما يحتمل أن يتولد عنها من لذات ، ثم الصفاء ، أي تجردها من الألم .

٤ — الشمول (أو السعة) extent ويراد به مدى امتدادها إلى عدد الذين يتمتعون بها ، ولفكرة الشمول عنده خطرهما للمحوظ في تكييف مذهبه ، ولهذا نكتفي الآن بالإشارة المقتضبة إليها مرجئين تفصيل الحديث عنها إلى حينه .

بهذا الحساب الذي أسلفناه تيمجد الصفات الذاتية للذات المتجانسة ، وتتحقق غايتنا في تحويل الذات إلى كميات تُيسَّرُ المقاضلة بينها .

ولكن من الذات ما كان متنافراً غير متجانس إذ ليس

من اليسير أن نقارن بين لذة القراءة ولذة الحب ولذة الرياضة ،  
وغير هذا من لذات لا يسهل تصنيفها إلا على نحو ما يصنف علماء  
النبات صنوف النباتات ، وإذا كان علماء الطبيعة يلجأون — إذا  
لم يتيسر لهم قياس ظاهرة قياسا مباشرا — إلى طريقة غير مباشرة  
لقياسها ، فكذلك ينبغي أن يكون حال فلاسفة الأخلاق مع  
الذات المتسافرة التي لا يكون بينها تجانس ، وأصدق مقياس  
لقياسها هو المال ، تُقدر كل لذة بمبلغ تساويه ، ونقارن بين  
أثمانها فتسهل المقاضلة بينها ، هذا هو المقياس الذي تحتمله طبيعة  
هذا الصنف من الذات ، وكما أنشأ « ليبنز » Leibnitz  
+ ١٧١٦ حسابا للأفكار الإنسانية أنشأ بنتام حسابا ماليا  
للأخلاق .

ولكن تقدير الذات يستوجب — بالإضافة إلى صفاتها  
الذاتية أو تقويمها مالياً — تقدير نتائجها الاجتماعية ، كالخوف  
الذي يصيب أفراد الجماعة بسبب الجريمة ، والمثل السيء الذي  
يفشو بين الناس ، والاضطراب الاجتماعي الذي ينجم عنه ،  
والمعاقب الذي يحمق بالمجرم فيسبب له ألما ويحمله على احترام  
القوانين التي توضع لمصلحة الجماعة ... هذه وغيرها مسائل ينبغي  
أن تُلاحظ ابتداء تحقيق المنفعة للمجموع .

بهذا أنشأ بنظام علم الحساب الأخلاقي الذي يمكن الإنسان من تقدير لذاته ، ويُيسر له أن يحسن اختيار الأفعال التي يأتيها ، ومن هنا تحقق عامل الاختيار الإرادي في سلوك الإنسان وبهذا تحققت الأخلاقية بمعناها التقليدي للمؤلف .

### مشكلة التوفيق بين صالح الفرد وصالح المجموع :

سلب بنظام علم الأخلاق طابعه المعياري الحقيقي يوم أنى كلمة « ينبغي » من مفردات الأخلاق ، ثم أقام مذهب الأخلاق في مطالبة الإنسان بأن يعمل على تحقيق منفعة المجموع على أساس من مذهب اللذة السيكولوجي ، الذي يقرر أن الإنسان ينشد بطبيعة لذته في كل تصرف يأتيه ، فكيف أمكن التوفيق بين صالح الفرد وصالح المجموع ؟

سنرى عند الحديث عن مكان البواعث والجزئات في مذهب بنظام ، أنه رد الجزئات إلى التدبير العقلي وجعل للبواعث العقلية السيادة في مذهب ، وتمشياً مع هذا الاتجاه رأى — عند البحث في بواعث الفعل النيرى — ألا يقنع بردها إلى الأريمية أو الرغبة في صنع الجليل للآخرين ، بل يرجعها كذلك إلى الرغبة في إحراز السمعة الطيبة والأمل في كسب الأصدقاء وامتنال أوامر

الدين ، و يعرض لتعميل إشارتنا للصالح العام على مصلحتنا الشخصية فيقول مع هوبز ولوك + ١٧٠٤ J. Locke إن الأنانية في الأصل هي الباعث الوحيد الذي يغري الإنسان بالإقدام على أفعاله أو الإحجام عن إتيانها ، ولكن التروى والتبصر قد علمه أن مصلحته تقتضى أن « يظهر » أمام الناس بمظهر الذى لا يحفل بمصلحته الشخصية ولا يقيم لها وزنا ، ولكن مجرد التظاهر قد يكشف للناس فيبدو صاحبه وكأنه محتمل ! من هنا خطر له أن من مصلحته أن يكون بالفعل غيرياً في تصرفاته ، فيتمسك بالخلق الذى كان في أول الأمر يتظاهر به ، وتفسير النظرية altruism على هذا النحو يذكّرنا بنظريات ماندفيل Mandeville وهلثيوس ومن إليهما .

وبهذا الاستدلال العقلى المعقد توصل بنتمام إلى نتيجته التى فسر بها معنى النظرية ، وقرر فيها أن المصلحة الذاتية تتطلب من صاحبها أن ينشد تحقيق مصلحة المجموع في غير أثرة ، وأن هذا هو خير طريق يسلكه إلى تحقيق مصلحته الشخصية<sup>(١)</sup> .

ويبدو نزوع بنتمام إلى العمل لصالح المجموع في وضعه « الشمول » في حسابه الأخلاقى بين الموازين التى تمكن من

---

. W. Wundt, *ibid.*, Vol. II. p. 146 (١)

اختيار الفعل الخير ، فهو يقرر أن شعور الإنسان باللذة يزداد حين تتجاوزه إلى غيره من الناس .

وبهذا الشمول أدخل بنجام الفيرية في تعريف الأنانية ! وجعل مذهبه يوجب إثبات الأفعال التي تشبع ميول مجموعة من الناس ، لا التي تحقق مصلحة ذاتيةً ما ، ومتى استبعدنا عواطف الفيرة والتنافس وغيره من نفوس الناس ، نمت سعادة الإنسان عند شعوره بأن الناس يشاركونه لذته ، معنى هذا أن في الناس اعتماداً يدفعهم للتعاطف ، ويحمل كلا منهم على أن يشارك غيره وجداناته ، من هنا كانت رغبة الإنسان في أن يشارك غيره لذاته طمعاً في ازدياد شعوره باللذة ، ويقضى هذا التعاطف أن يعمل الإنسان على محو آلام غيره وكأنها آلامه ؛ وهكذا افترض بنجام أن الإنسان اجتماعي بطبيعته ، ينطوى على حب وإنسانية ، وهذا هو الذي يفسر لنا ضيق الإنسان بالوحدة أو العزلة ، وميله إلى تحقيق الصالح العام ونحو هذا من ظواهر .

لم يجد بنجام مشتقة في التوفيق بين المنفعة الفردية والمنفعة العامة ، ذلك لأنه وحّد بينهما وأزال احتمال تعارضهما في بعض المناسبات ، وكان متأثراً في هذا التوحيد بينهما برجال الاقتصاد الذين يعتقدون في توازن السوق الحرة ، فالتاجر يفيد من بيع



الطيب من منتجاته ، إذ يحفظ بعامله من ناحية ، ويفيد من ازدياد عددهم من ناحية أخرى ، وعلاؤه يفيدون بدورهم من ازدهار تجارته وتوسعها ، لأن هذا يمكنه من تقليل مصروفاته وتخفيض أسعاره ، والحرص على جودة بضائمه ، من هنا اتفقت المصلحتان ؛ أثر في بنتمام قانون العرض والطلب وغيره من القوانين التي يتحدث عنها الاقتصاديون من أمثال آدم سميث + ١٧٩٠ ممن اهتموا بأفعال الفرد أكثر من اهتمامهم بالتعاون بين الأفراد .

بل إن فكرة الشمول (أو السعة) في حساب بنتمام متأثرة من غير شك بفكرة المشاركة الوجدانية Sympathy عند آدم سميث ، إن القول بانتشار المنافع من طبيعة القول بانتشار الوجدانات ، والأصل في المنفعة أنها نتيجة تنشأ عن حادث وتكون نافعة — كالمال . ولكن الشمول البنتمامي قد رد النتيجة إلى عدد المنتفعين ؛ بهذا لم تعد المنفعة نتيجة تنشأ عن علة ، بل أُنحِت إرضاء لميل ينتشر بالصدوى الوجدانية ، ومن هنا يصبح من واجب كل إنسان أن يسعى لتحقيق منفعة المجموع ، وبالرجوع إلى المثل الذي ساقه بنتمام للتدليل على وحدة منفعة التاجر ومنفعة عملائه ، قد ننهي إلى تضيق عمل

الحكومة - بل إلى إلغائها ! إذا ما حاجتنا إلى الحكومة بعد  
أن تتفق مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ؟ ستسود حياة  
الأفراد ومجتمعهم محبةً وتعاطف ، ومن ثم تنتهى ضرورة قيام  
الحكومة<sup>(١)</sup> ؟

هكذا وفق بنتام بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ،  
ومشكلة التوفيق بين المصلحتين قد حيرت النفعيين ؛ ورطوا  
أنفسهم حين ربطوا بين مصلحة المجموع ومصلحة الفرد ،  
وزادوا ورطتهم حين أقاموا نفعيتهم الأخلاقية على أساس من  
مذهب اللذة السيكولوجي ، وسنعود إلى هذه المشكلة في تعقيبنا  
على بنتام ثم في عرضنا لمذهب مل وفي مناقشتنا لتهاوته .

### أساس النزوعية في مذهب :

كانت العلاقة بين أخلاقية الفعل الإرادى والبواعث التي  
تؤدى إليه ، أو النتائج التي تنجم عنه ، من أعقد المشاكل التي  
ميزت النفعيين والتجريبيين عامة من الحدسيين والعقليين من

---

(١) حتى مع اقتراض هذا الأمل تظل حاجتنا إلى وجود الحكومة  
قائمة ، لأن وظيفة الحكومة لا تقتصر على حفظ الأمن وترقية مستوى  
المجموع في داخل البلاد ، بل تتجاوز هذا إلى صد العدوان الخارجى  
كما نعرف .

ناحية أخرى<sup>(١)</sup>. وفي تصور بنتام لأخلاقية الفعل تتمثل النزعة التجريبية في فهم الأخلاقية ، إذ استخف بالبواعث بمقدار اهتمامه بالنتائج والآثار ، فهو يرى أن الباعث هو الرغبة في إشباع اللذة أو تماشى الألم ، أما المقصد (عنده) فيراد به النتائج التي يتوقع الإنسان أن تنشأ عن إتيان الفعل<sup>(٢)</sup>. ثم يعقب بنتام فيقرر بأن الباعث في ذاته لا يكون خيراً ولا شراً ، لأن الباعث الواحد قد يفضى إلى نتائج طيبة وقد ينتهي بنتائج سيئة ، إن الفيلسوف الأخلاقي كالمشرع من حيث اهتمامه بخيرية النتائج وشرتها ؛ لا تضاف الخيرية ولا الشرية للبواعث في ذاتها ، وإن كانت توحى بنوع النتائج المتوقعة ، وإذا كان العقليون يرون أن النية resolution هي التي تحدد خيرية الفعل أو شرهته ، ولا عبرة بمد هذا بنتائجه وآثاره ، فإن بنتام — والنفيعيين من ورائه — يقيمون أخلاقية الفعل على ما يقرب عليه من لذة أو ألم ، من منفعة أو ضرر ؛ أما البواعث فإنها لا تغير من طبيعة

---

(١) توفيق الطويل : العقليون والتجريبيون في فلسفة الأخلاق ص ٤٥ وما بعدها .

(٢) يكثر بنتام من التمييز بين المصطلحات المتشابهة من باعث motive ومقصد intention وميل disposition ونزوع tendency وغير ذلك . لحسننا ما ذكرنا في صلب الكلام .

الأفعال كثيراً ولا قليلاً ، وتمشياً مع هذا المنطق رفض النفعيون ما يقوله خصومهم من أن الخير يحمل في باطنه جزاءه ، وينطوي في طبيعته على مبرراته ، فأقر بنتام — على عكس هذا — أن الخيرية أو الشرية محتاجة إلى جزاء Sanction . إن الجزاء الطيب يفرى بالفعل الفاضل ، والجزاء السيء يدفع عن ارتكاب الشر ؛ وردّ بنتام هذه الجزاءات إلى أربع<sup>(١)</sup> : جزاءات بدنية وسياسية ( قانونية ) واجتماعية عرفية ودينية ، فرتكب الشر — الذى يسبب للآخرين الأذى — ينال جزاءه من متاعب الجسم أو آلام النفس ، ويمحق به عقاب القانون ، واحتقار المجتمع وعذاب جهنم ، وعلى عكسه يكون حظ الخير الذى يحقق لنفسه وللآخرين نفعاً<sup>(٢)</sup> .

هذا موقف يسائر تجريبية بنتام واهتمامه بالتشريع ، فإن الفيلسوف التجريبي لا يروقه تعليق فلسفته على النوايا والبواعث وما يدخل في بابها ، والمشرع لا يطالب القضاة بالكشف عما

---

(١) قائمة الجزاءات وعددها يختلف باختلاف كتبه الأخلاقية الثلاثة - السالفة الذكر ، ومرجع التصنيف المذكور في صلب الكلام إلى مدخله .  
(٢) The Johnston, Intr. to Ethics, p. 146 ff. وقارن :  
L. Stephen English Utilitarians, Vol. I., p. 249-63 ثم ارجع إلى بنتام نفسه في كتابه « المدخل إلى مبادئ الأخلاق والتفريع » طبع ١٩٤٨ في الفصلين الثالث والماشر عن الجزاءات والبواعث .

تكنه الضمائر وتحقيه النفوس ، فحسبه نتأج الفعل وآثاره شاهداً  
على سلامة الفعل أو شذوذه ؛ ومع هذا آثار موقف بنتام —  
والنفعيين عامة — نائرة النقاد ، فلنمقب على مذهبه (١) :

### تقرير ومناقشة :

كان بنتام معبراً عن روح عصره وممثلاً للتجريبية التي  
سادت تفكيره — كما أشرنا من قبل ، وقد تكفل بنفوذ  
وشعبيته من نشر النفعية ومدى نفوذها إلى شتى مجالات التفكير  
في عصره ، بهذا هجرت الفلسفة برحها العاجى واتصلت بالحياة  
اليومية وسخرت جهودها لحل مشاكلها .

وكان « توماس ريد » قد شن حملته على « هبوم » وحطم  
قوائم التجريبية في عصره ، ولكن التجريبية قد أخذت تسترد  
نشاطها على يد بنتام بعد بضع سنين ، وأخلص بنتام لنزعمته الحسية  
وأخضع تفكيره لمنطقها ، وبدا هذا أوضح ما يكون في مذهبه  
النفعى ، حشد لتأييده ثروة من التجارب والخبرات ، وأخضع  
دراساته لمنهجه الاستقرائى المحض ، وفيه يتمثل التباين بين تجريبية  
النفعيين وحداسية معاصريهم من أتباع المدرسة الاسكتلندية ،

(١) تارن بوجه عام R. Le Senne, Traité de Morale Generale

— على نحو ما سنعرف عند مناقشة النفعية — وبهذه التجريبية ارتفعت الأخلاق — لأول مرة — على يد بنتام إلى مصاف العلوم الطبيعية الدقيقة ، وكان في الحساب الذي ما يشهد بهذا التطور الجديد<sup>(١)</sup> .

بهذا تحققت النزعة الواقعية في الأخلاق ، وأصبحت الأخلاق لا تهدف إلى خلق أولياء وقديسين ، بل ترمى إلى توجيه النشاط الإنساني إلى إسعاد المجتمع على قدر الإمكان ، وليس حساب الذات إلا محاولة لتقدير جهود الإنسان ، وتقوم مدى نجاحها في تحقيق الذات أو تفادى الآلام ، تقويما رياضيا يمتاز بالدقة والضببط .

ليست مهمة الفلسفة الخلقية أن نضع مثلاً عليا يسير بمقتضاها السلوك الإنساني ، وإنما تقوم مهمتها في دراسة المجتمع دراسة علمية تُصطنع فيها مناهج المشاهدة والتجربة ، فإن المجتمع قد وُجد قبل أن نشرع في إصلاحه وإخضاعه لمذى الأخلاق ، وقيام المجتمع يتضمن شروط وجوده ، فحسب الإنسان أن يلاحظه كما هو في الواقع ، وأن يستخلص من ملاحظاته قوانين النشاط الإنساني ؛ إن للمجتمع طبيعته ، وبهذا الوضع يتحتم أن تنشأ فيه

قوانين الأخلاق ، وما من قوة تستطيع أن تمنع وجودها ، أراد  
بنتام بهذا أن يكون « نيوتن » الأخلاق .

وخير ما في هذه الواقعية أن كرامة الفرد فيها مصنونة ، إنها  
لا تنتهي بالفرد إلى أن ينفى في المجتمع ويذوب في مطالبه ،  
ويتقبل صاغراً قوانين الأخلاق التي تفرض عليه من سلطة  
أخرى ، إن صالح الفرد ليعلو على صالح الجماعة ، بل إن مصلحة  
المجموع نفسها تقوم على بواعث فردية ، وتستند إلى دوافع ذاتية ،  
ومنطق المذهب لا يسيغ أن يضحى الفرد في سبيل المجموع دون  
ثمن يتقاضاه ، إن الإنسان وحده هو الوصي على نفسه ، القيم على  
لذته ، المنوط بحراسة سعادته ، وهذا يؤكد استقلال الشعور  
الفردى ، ويصون للذات طابعها الاستقلالى ، وإن لم ينته هذا  
الاستقلال إلى استسلام الفرد لنزواته وأهوائه وإلا استحال قيام  
علم الأخلاق .

بهذا امتاز مذهب بنتام عن مذهب هوبز ، فقد سلب  
الأخير الفرد حريته واستقلال ذاته ، لأن مرجع الإلزام الخلقى  
عنده إلى الدولة أو إلى حاكمها السياسى ، وعلى الفرد أن يستجيب  
لهذه السلطة راضياً أو كارهاً ؛ بل حاول بنتام أن يبسط من  
أناية هوبز حتى تستوعب مبدأ التغيير ، وتشمل فكرة

الإحسان للغير ، وإن كانت لنا على هذه المحاولة ملاحظة تأتي بعد قليل .

إذن فقد كان له فضله الملحوظ في تثبيت التجريبية التي كانت تعاني من ضربات خصوصها في عصره ، ولكن إخلاصه لمذهبه الحسي وغُلُوّه في نزعة الواقعية قد جره إلى مهاوٍ لم يكن في وسعه أن يتفادى الوقوع فيها ، إذ انتهى إلى إخضاع الأخلاق لمناهج الاستقراء وحدها ، فأنكر على الأخلاقيين أن يتجاوزوا البحث فيما هو كائن إلى دراسة ما ينبغي أن يكون ، وأن يتخطوا النظر في الواقع الأليم إلى البحث في المثل الأعلى لسلوك الإنسانى ؛ كان هذا هو موقف « بنتام » في إنجلترا إبان الثلث الأخير من القرن الماضي ، ولم ينقض ذلك القرن حتى كانت الوضعية الفرنسية قد ثبتت هذا الاتجاه وكننت له ، هذا ما نراه عند أتباع المدرسة الاجتماعية الفرنسية الذين غيروا بمجهودهم المشكلة الأخلاقية التقليدية مجالاً ومنهجاً<sup>(١)</sup> ، وكانوا في هذا أوضح من بنتام وأقوى ، وما يقال عنهم ينسحب على بنتام ويقال على جميع الحسينيين في موقفهم من الأخلاق ، ما من شك في أن فلسفة الأخلاق لا تستغنى قط عن دراسة الظواهر الخلقية كما هي في الواقع ، ولناهج الاستقراء في

---

(١) أكبر ممثلها دوركايم + ١٩١٧ وليفى برون + ١٩٢٩ .



هذا الصدد قيمتها المتأخرة ، إن هذه الدراسة التجريبية تزودنا  
بثروة من المعلومات لا يستقيم بغيرها فهمنا للأخلاق ، إذ كثيرا  
ما نعرف عن طريقها السبب في نفور بعض الجماعات من سلوك  
معين ، أو العلة في مرضاتهم عن سلوك آخر ، ولكن فلسفة  
الأخلاق لا تنفع بهذه الدراسة التجريبية ، ولا تستقيم بغير التطلع  
إلى مثل إنسانى أعلى يسير بمقتضاه سلوك الإنسان ، فمن الضلال  
أن تنتهى بنا دراستنا للواقع — كما انتهت بيتنام — إلى مهاجمة  
الالتزامات والواجبات التى ينبغى أن يقوم بها الإنسان ، أو  
الاستخفاف بالمثل العليا التى تعبر عن مطامح الإنسان بما هو إنسان .  
ولكن كيف السبيل إلى هذا مع اعتناق بنقام المذهب  
الحسى ؟ إن إخلاصه لهذا المذهب قد اقتضاه الاستسلام للتجربة  
حتى استعبدته التجربة وافقد القدرة على التحرر من استبدادها  
واستخدامها لصالح أبحاثه ، هذه مضرة الحسية عند جميع أتباعها ،  
تصرفهم عن مشاكل الفلسفة الرئيسية فى مجالها الميتافيزيقى  
والإستمولوجى ، إلى الانغماس فى زحمة الحياة العملية حتى يفنوا  
فى ضجيجها !

ويبدو نقص مذهبه الحسى فى تهافت حسابه الذى الذى  
أراد أن يُقَوِّم به اللذات والآلام ، إن إجراء هذا التقييم يقتضى  
أن تكون اللذة مشعورا بها أو حاضرة فى الذهن ، ولكن قيام

الإنسان بتطبيق الموازين التي تضمنها الحساب الذي السالف  
الذكري يفقده الشعور بها ، أو يضعف إحساسه بوقتها ، ومن ثم  
لا يكون القياس دقيقاً ؛ بل إن القيم الذاتية للذات لا يمكن أن  
تخضع للقياس الرياضي ، إذ كيف يتسنى لنا أن نحول شدة اللذة  
وعمقها أو صفاءها إلى أرقام دقيقة ؟ ثم إن مقارنة لذة بأخرى من  
نوعها وطبيعتها أمر عسير ، وأشد منه عسراً أن تكون الموازنة بين  
لذتين من طبيعتين مختلفتين ، كأن نوازن بين لذة حسية وأخرى  
عقلية أو فنية .

وتحويل قيم الذات المتنافرة إلى مال ليس بالأمر الهين  
اليسير ، إذ كيف يتيسر لنا أن نحول لذة الإحسان إلى فقير ،  
أو العطف على مريض ، إلى قيمة نقدية دقيقة ؟ إن تحويل  
الكيفيات إلى كميات ممكن في الظواهر الطبيعية ، ولكنه  
مستحيل أو يكاد يكون ضبطه مستحيلاً في المشاعر والوجدانات ،  
من هنا فشلت محاولته — كما فشلت محاولات سبينوزا + ١٦٧٧  
وليبنتز + ١٧١٦ في رد الأخلاق إلى دقة الرياضة ، إن ظواهر  
الأخلاق تختلف عن النسق الرياضي من حيث اتصالها بالإنسان  
في دنيا الواقع ، وعن الظواهر الطبيعية من حيث تعبير مجراها  
بتدخل الإرادة البشرية .

من هنا أنكر تكيم الذات الكثيرون من فلاسفة الأخلاق

— من أمثال جرین + ١٨٨٢ وسدجویک + ١٩٠٠ وبراډلی + ١٩٢٤ ومکنزی + ١٩٣٥<sup>(١)</sup> وغيرهم من نقاد بنتام ، وإن وجد العکیم من يدافع عنه بعد بنتام — مثل راشډال<sup>(٢)</sup> . ١٩٢٤ +

وقد فطن أرسطو قديماً إلى ما فات بنتام حديثاً ، من أن اللذات تختلف كيفاً إلى جانب تفاوتها كما ، وهو رأى يفتق وفهم الناس لطبيعة اللذات ، إذ قرر أرسطو في دراساته السيكولوجية أن الأفعال الإنسانية التي تختلف نوعاً لا يمكن إلا أن تقترن بلذات تختلف كيفاً ، فعمل القوى العقلية يخالف عمل الحواس في كيفه ، بل تختلف أنواع كل منهما عن أنواع الأخرى ، ومن ثم تختلف اللذات التي تنشأ عنها ، فالإنسان يتوخى التمتع في فهم مسألة متى كان في التمتع لذة عقلية ، ولو تساوت اللذات كيفاً لكانت كلها خليفة بأن تزيد من وجوه النشاط الإنساني بغير تمييز ، ولكن التجربة تشهد ببطلان ذلك ، فإن عمل قوة من قوى النفس يعوقه شعور الإنسان بلذة قوة أخرى ، فمماشق المكان

---

(١) T.H. Green في كتابه Prolegomena to Ethics و H. Sidgwick في كتابه Methods of Ethics و F.H. Bradley في كتابه Ethical Studies و J.S. Mackenzie في كتابه Manual of Ethics و H. Rashdall في كتابه Theory of Good and Evil (2 vols.) انظر ف ١ — ك ٢ من الجزء الثاني عن حساب اللذات .

لا يستطيع أن ينصت إلى مناقشة أثناء استماعه إلى لاعب ماهر على الشان ، طالما كانت لذته من اللعب على الشان أقوى من لذته من المناقشة ، أى أن لذة الشان تعوق عمل العقل <sup>(١)</sup> .

وإلى التفرقة بين اللذات كماً وكيفاً ذهب جون ستورت مل ، أشهر دعاة النفعية الحديثة — كما سنعرف فى الفصل التالى . أما محاولة التوفيق بين منفعة المجموع ومنفعة الفرد فقد رد فيها الغيرية إلى الأثرة ، فشابه فى هذا هوبز وهلفتيوس وغيرهما من أصحاب اللذة الفردية ، وما أحرانا أن نستعيد ما قاله أوجست كونت + ١٨٥٧ A. Comte فى حملته على هلفتيوس من أن القاعدة التى تقول :

« إن عمل الفرد من أجل غيره خير طريقة يحقق بها مصلحة » قاعدة مشثومة ، ومن الضلال أن يقال للناس : اصغوا إلى صوت أنانيكم فإن هذا كفىل بأن يجعلكم غيريين تلتمسون مصلحة الآخرين ، وتنشدون سعادة المجموع ، كأنما أراد أتباع هذه الفكرة أن ينصحوا الناس بالابتعاد عن أتباع الفضيلة حتى يكونوا فضلاء !

الواقع أن الطبيعة البشرية تجمع بين نزعات الأثرة والإيثار ،

ومن الخطأ ردها إلى الأنانية الموهلة وحدها أو النيرية الطاغية وحدها ، وعن النزاع بين هاتين النزعتين ينشأ الموقف الخلقى ؛ وتبدو آثار النيرية الأصيلة في فطرة البشر جلية في السلوك الذي يقوم على مشاركة الإنسان لغيره وجدانيا ، وعطفه على المحتاج وإشفاقه على المريض ... من غير أن يريد من وراء هذا جزاء ولا شكورا ، وإن كان بين علماء النفس من يرد هذا التعاطف إلى أن الإنسان يتصور نفسه في الوضع المحزن الذي يستدعي إشفاقه ويستثير عطفه !

ولكن بنتام ينظر إلى هذا التعاطف الوجداني من خلال الأثرة فلا يعنيه منه إلا أنه يزيد شعور الإنسان بلذته — على النحو الذي أشرنا إليه من قبل — ولكن الواقع أن الطبيعة البشرية أرحب من أن تكون مجرد نزوع أناني موهل ، إن حب الذات فيها يقترن بالنزوع النيري والتشارك الوجداني ، والنزاع بينهما هو الذي يحدد لنا الأخلاقية في سلوك الإنسان .

ثم ما هذا الشمول الذي أدخل به « بنتام » النيرية في تعريف الأنانية ؟ لقد وقع بنتام في خطأ سيكولوجي حين اعتبر الشمول — أي امتداد اللذة للآخرين — من بين المقاييس التي تقوم بها الذات تقويما كيا ، أي أن شعور الإنسان باللذة يزداد بمقدار عدد من تصيبيهم من ناس ، ولكن هذا غير صحيح في كل

الحالات ، فقد يُسعد الإنسان مجموعة من الناس على حساب سعادته ، ومن ثم يكون في إسماعه للآخرين شقاؤه ، ورُب معترض يقول إن الإنسان لا يمبأ بما ينجم عن إسماعه للآخرين من ألم ، فيسعد بتضحيته دون اكترات لآلامه ، وهذا الاعتراض يقوم على فرضين كلاهما خاطيء :

أولهما أن يوهب الإنسان الميل القوى إلى التعاطف والتشارك الوجداني ، فيسعد بكية قليلة من هذا التعاطف لأنه يراها أسى كيفا أو نوعا من كية تكبرها من اللذة الشخصية الخالصة ، وهذا يمكن ولكنه لا ينقض ما قلناه من قبل ، لأن تجربة الإنسان في هذه الحال ألم أو فقدان لذة ، وهو لا يرضى بهذا إلا لأنه يرى أن اللذة القليلة التي لا يزال يشعر بها أسى نوعا من اللذة التي افتقدها ، وبعبارة أخرى إنه ككائن ناطق خليق بأن يميز بين اللذات تميزا كيفا على غير ما فعل بنتام ، وربما قيل بالإضافة إلى هذا إنه لا يحفل الألم إذ ليس هناك ألم يعبأ به ، إنه قد أصاب فعلا خلال تعاطفه الوجداني كية من اللذة أكبر من الكية التي كان يمتثل أن يصيبها عن طريق فعله الأناي ، وهذا الكلام يقوم على افتراض وجود تعاطف قوى لا يتوافر إلا للقليل من الناس ، فإن لذات التعاطف في أكثر الحالات أضعف من

مشاعر حب الذات ، ومن ثم يجوز القول بأن مجموع لذات الآخرين يكلف الفرد لذته .

وثانى القرضين أن يقال إن المجتمع يعوض من يسعد الآخرين بالثناء والمدح الذى يخلعه عليه ، مع أن المجتمع كثيراً ما يفوته إظهار هذا الشعور ، ويُعجزه أن يبدي هذه الوحدة فى التفكير وفى الشعور وفى العمل ، تلك الوحدة التى تجعل التضحية بالذات مثار الإعجاب عند جميع أفرادها ، فإذا استمع الشاب الثرى لنصيحة المسيح فتحلى للفقراء على كل ممتلكاته وتبع المسيح ، لم يلقَ من الموسرين شكراً على تضحيته ، وفى الكثير من الحالات نجد أن الإنسان الذى يضحي بحياته لصالح المجتمع لا يلقى جزاء أكثر من شعوره الباطنى بالرضا عن سلوكه الخير ، وما يناله من تقدير قلة من الناس لرأيهم عنده قيمة ، ولكنه يرضى عن لذة قليلة يصيبها لأنها أسمى نوعاً من لذة عظيمة فقدها<sup>(١)</sup> .

بل الواقع أن بنتمام قد جبّ فكرة الشمول بفكرة الشدة أو القوة معياراً فى حساب الذات ، كان شعار المذهب : تحقيق أكبر مقدار من السعادة « لأ أكبر عدد من الناس » فاستبعد بنتمام فى أعوامه الأخيرة المجلة الأخيرة من هذا الشعار! إذ كان معنى هذا الشعار أننا إذا خيرتنا بين مقدار عظيم من السعادة

(١) . ibid, p. 78-5

يصيب قلة من الأفراد ، ومقدار ضئيل منها يصيب كثرة من الأفراد ، وجب أن تؤثر الثانى على الأول ، بهذا تسمو مصلحة المجموع على مصلحة الفرد ، ولكن اعتبار اللذة الخبير الوحيد ، وجعل اللذة الفردية قوام الأخلاقية قد أدى بفيلسوفنا إلى أن يؤثر الفعل الذى يحقق لصاحبه أكبر قسط من اللذة على الفعل الذى يحقق مقداراً ضئيلاً من اللذة لعدد كبير من الناس ، ومن أجل هذا استبعد بنقام من شعار مذهبه : « لأ أكبر عدد من الناس »<sup>(١)</sup> . بهذا ارتد أنانياً ينظر إلى مصلحة المجموع من خلال مصلحته .

بل إن بنقام انتهى من حديثه عن المال إلى ما يوحى بأن السعادة القصوى التى يتطلبها مذهبه عسيرة التحقيق ، إنه يرى الثروة تحتل من جميع المتع مكان الصدارة ، لأنها تهيء للإنسان أسباب اللذات الأخرى ، ولهذا أوجب على المشرع ألا يقنع بكفالة الطمأنينة والمساواة بين المواطنين ، بل عليه — بالإضافة إلى هذا — أن يكفل لهم الرخاء ، ومع ما تهيأ للمال من صدارة فى مجال الخيرات لا يعتبر المال خيراً فى ذاته ، إنه خير بمقدار ما يحقق للإنسان من متع ولذات ، فهل الأفضل أن تنعم قلة من الناس بوفرة من الرخاء ، أم تسعد كثرة من الناس بفضلة من

. Cf. Mackenzie, p. 176. (١)



الرخاء ؟ يرى بنتام أن التفاوت في الثروة يقابله تفاوت في أسباب السعادة ، بمعنى أن الأكثر مالا أسعد حظا ، ولكن فائض السعادة عند الرجل الغني لا يتساوى مع فائضه من الغنى ، وتفاوت ملكية المواطنين لا يؤدي إلى زيادة كمية السعادة عند المجموع ، وهذه النتيجة تسلم مباشرة إلى الشيوعية ، إذا لم يعقها اعتبار آخر ، هو الأخطار التي تنجم عنها ، ليس على الدولة أن تضمن لمواطنيها الرخاء والمساواة فحسب ، بل عليها أن تكفل لهم طمأنينتهم ، وهذه الطمأنينة من غير شك أسمى الخيرات ، لأنها إذا استهدفت للخطر استهدفت له الخيرات الأخرى ، ولكن لا شيء يهدم الطمأنينة أكثر من التمرد على الملكية الخاصة ، ومن هنا ينتهي بنتام إلى النتيجة الهامة التي لم ينصح عنها ، وهي أن « السعادة القصوى » التي يتطلع إليها مذهب الخلق ويتعذر تحققها ، لأن توزيع الثروة بالتساوي — وهو شرط ضروري لتحقيق هذه الغاية — لا يمكن تحقيقه لأنه يجر إلى أخطار سياسية جسيمة<sup>(١)</sup> . وقد يذكرنا هذا باليأس والتشاؤم الذي لاحظناه عند بعض اللذين من القدماء .

بقي أن نعقب موجزين على موقفه من أخلاقية الأنفال الإنسانية وتعليقها على نتائجها وآثارها ، دون براعتها ونوايا أصحابها ،

(١) Wundt, op. cit., p. 143-44

وربط هذه الأخلاقية بالجزاءات السالفة الذكر ، والواقع أن هذا الموقف الذى وقفه بنتام والتجريبيون من ورائه يؤدى إلى الخلط بين العدالة والأخلاقية ، إن القاضى لا يستطيع أن يكشف فى ضمير المجرم عن بواعث إجرامه ، من هنا كان اهتمام الشرعيين بنتائج الأفعال دون بواعثها — وإن كان للقاضى أن يحمل من الباعث عاملا فى تقدير العقوبة ، أما الأخلاق فإنها تتجاوز ما تقتضيه العدالة إلى استفتاء الضمير والكشف عن بواعث الأفعال عند أصحابها ، ولكن بنتام كان مشرعا قبل أن يكون فيلسوف أخلاق ، وإخلاصه للنزعة الواقعية جره إلى إفعال الضمير مدبرا للأفعال الإنسانية ، ومرجعا للأحكام الخلقية ، وقد سارت الجماعات البدائية فى أحكامها التقويمية منطلق التجريبيين فى تعليق الأخلاقية على نتائج الأفعال دون بواعثها ، كان مقياس الخيرية عندها هو مصلحة القبيلة ، كما تمثل المقياس عند رجال القانون فى مصلحة الجماعة التى شرع القانون لصيانة سلامتها ، أما فلسفة الأخلاق فإنها تطمح فى جعل الإلزام الخلقى باطنيا ذاتيا وليس خارجيا .

على أن الجزاءات التى اهتم بها بنتام هى نفسها الجزاءات التى وصفها من قبل « جاى » وغيره من اللاهوتيين ، ولكن وجه الخلاف بينهما يقوم فى اهتمام رجال اللاهوت بالجزاءات

الدينية ليبرهنوا بها على الاتساق بين مصلحة الفرد ومصلحة  
المجموع — كما سنعرف بعد — أما بنتام فقد كان — كصلاح  
سياسي أكثر منه فيلسوفا نظريا — يحاول أن يصلح النظم  
والتوانين القائمة في عصره ، فوجد أن نظام العقوبات هو الذي  
يحتم على الفرد — الأناي بطبعه — أن يعمل لمصلحة المجموع ،  
أما الجزاءات الدينية فإنه لم يكثرث لها كثيراً ، بل صرح بأنه  
لا يعرف شيئاً عن طبيعة نعيم الآخرة أو جحيمها — لذاتها  
وآلامها — لأنها لا تخضع لمشاهداته ، فسأير بهذا نزعتة الحسية  
الواضحة .

وقد أحسن « مل » صنعاً حين أخذ — في مقاله السالف  
الذكر — على بنتام ضيق اطلاعه على التراث العقلي الذي خلفه  
المفكرون السابقون له عن الطبيعة البشرية ، إنه لأرحب أقتا  
وأقوى طموحا وأسمى نظرة مما تصور بنتام والمحسيون معه .  
حسبنا هذا تعقيبا على بعض الأفكار التي انفرد بها بنتام ،  
أما أصول النفعية التي شاركه فيها غيره من النفعيين فنسعرض  
لمناقشتها في ختام هذا الكتاب .

## الفصل الثاني

### النفعية عند جون ستورت مل

( ١٨٠٦ - ١٨٧٣ )

جيمس مل وفعيته — جون ستورت مل : من سيرة،  
حياته العقلية والروحية — علاجه للنفعية — فضله على مذهب  
المنفعة : (١) إخضاع المنفعة الخاصة للمنفعة العامة (٢) التضحية  
في مذهبه (٣) التفرقة الكيفية بين الذات — مميزات  
السعادة ومقوماتها في مذهبه — الإلزام الخلقى والمنفعة —  
علاقة القضية بالسعادة — علاقة العدالة بالأخلاقية —  
مناقشة مذهبه .

بمبصى مل وفعيته :

استمر تيار النفعية التجريبية بعد « بنتام » يجرى في أرض  
مهداها له « جيمس مل » + ١٨٣٦ وابنه « جون ستورت »  
أشهر النفعيين طرأ ؛ البقى جيمس مع بنتام عام ١٨٠٨ وسرطان  
ما اتصلت بينهما أسباب الود الحميم ، فاتفقا قلبا وأتجاها ، وقد  
عبّر جيمس عن هذه العلاقة في خطاب أرسله إلى بنتام وأعلن فيه  
أنه أخلص تلامذته وأشدهم حبا له وحماسة لمبادئه ، وأعظمهم  
إيمانا بالحقائق التي كان لبنتام شرف عرضها ، وهو شرف خالده .

باقٍ على الزمن ، بل تخيل في خطابه أنه عند أستاذه أحب تلامذته  
وحواريه إلى نفسه<sup>(١)</sup> ...

بل كان جيمس أقرب إلى الصديق منه إلى التلميذ الحبيب  
إلى نفس أستاذه ، وقد أثر في بنتام بمقدار ما تأثر به ، بل كان  
يفضل أستاذه في انساق تفكيره المنطقي ، وفي قدرته على عرض  
آرائه في صور جذابة تسترعى الأنظار .

كان جيمس يمثل مرحلة الانتقال من مؤسس التجريبية  
الحديثة « بنتام » إلى أكبر أعلامها فضلا في التمكين لها  
« جون ستورت » ؛ تلقى القبس من يد أستاذه وسله في أمانة  
إلى يد ابنه وخليفته ، وكان أعظم من بشروا بأفكار بنتام  
وأكثرهم حماسة للترويج لها ، وحوله التفت أولئك الراديكاليون  
من الفلاسفة الذين أخذوا على عاتقهم أن يجددوا الحياة السياسية  
الإنجليزية في ضوء مذهب بنتام ؛ وكان نشاطه ينصب أصلا  
على الفلسفة الخلقية والدراسات العملية التي تتصل بها كالتاريخ

---

(١) كتب الخطاب في ١٩ سبتمبر ١٨١٤ ونشره Bain في كتابه عن  
جيمس مل س ١٣٦ وما بعدها وقلنا نحن هذه الفقرة منه عن : Leslie  
Stephen, The English Utilitarians ج ٢ ( عن جيمس مل ) س ٧  
( وقد أعطاه بنتام بيتا — كان يملكه من قبل ملتون — وأغناه ماليا حين  
كان يكتب تاريخ الهند ) .

وفقا للقانون والسياسة والاقتصاد السياسي ، وكان في كل نشاطه مخلصا للمبدأ النفسى الذى أوجب العمل لتحقيق أكبر مقدار من السعادة لأ أكبر عدد من الناس .

وأعظم وجوه فضله على النفعية أنه سد النقص الذى أخفله مذهب بنتام ، إذ كان اهتمام بنتام بالتطبيق العملى أكثر من اهتمامه بالتدعيم النظرى ، وتبدو خطورة هذا النقص إذا ذكرنا آثار خصومه من أتباع المدرسة الاسكتلندية وما امتازت به هذه الآثار من عمق فى التفكير وصفاء فى النظر العقلى المجرد ، سدّ جيمس هذا النقص بكتابه القيم عن تحليل ظواهر العقل البشرى *Analysis of the Phenomena of the Human Mind* إذ وضع به الأساس السيكولوجى للمذهب النفسى ؛ قام جيمس بدور الوسيط فأدى للدراسات النظرية نفس الخدمة التى أداها بنتام للدراسات العملية ، فجدد التفكير بروح الفلسفة التجريبية القديمة<sup>(١)</sup> .

وقد أودع مذهبه الأخلاقى فى الفصول التسعة الأخيرة من الجزء الثانى من كتابه السالف الذكر ، ثم فى كتابه *Fragment on Mackintosh* ، ومذهبه فى الأخلاق جزء من محاولته

---

R. Metz, *A Hundred Years of British Philosophy*, (١)

تفسير ظواهر العقل عن طريق تداعي الإحساسات والأفكار ،  
وقد تابع أستاذه في النظر إلى اللذة على أنها الخير الوحيد ،  
وإلى الألم على أنه الشر الوحيد ، وإن كان قد تابع أبيقور في  
إيثار اللذة المعتدلة ، وخالف بنتام ففرق بين أنواع اللذات وآثر  
متع العقل على لذات الحس ، واعتبر الغفة أسمى الفضائل ، وهاجم  
اهتمام المحدثين بالوجدان ، وفاوم -- مع جبهة أتباع المدرسة  
الذنفية — كل صور المذهب الرومانتيكي ، أو العاطفي<sup>(١)</sup> .

وصرح جيمس بآز، الإنسان متى ترك لنفسه التمس لذته ،  
ولكن التجربة علّته أن يعيش على اتفاق مع أقرانه ، وعلّته  
أقرانه أن يأتوا من الأفعال ما يحقق منفعة ، وأن يتجنبوا منها  
ما يجلب مضرة ، وأكدت للجميع أن من يحسن إلى الناس  
ويخدم مصالحهم يحقق بهذا مصلحته ، ومن يسئ إليهم ويقاوم  
رغباتهم يجلب لنفسه للتاعب ، ومرد الخير والشر إلى الثواب  
والعقاب ، أو إلى ما يخضعه الناس على أفعال الإنسان من مدح  
أو قدح .

وقد استعار جيمس عناصر مذهبه من هوبز وهيوم وأضافها  
إلى تراث بنتام ، وافق هوبز في أن الإنسان بطبيعته ينشد

---

. B. Russell, Hist. of Western Philos., 804 (١)

سعادته ، وخالفه في اعتبار الفعل الخَيْر ما يحقق أعظم سعادة  
ممكنة دون نظر إلى عدد من يصيب هذه السعادة ، بل أوجب  
على الإنسان أن يعمل على تنمية سعادة الآخرين .

وتابع هيوم في تفسير الإلزام الخلقى بالالتجاء إلى العواطف  
الخلقية ، والاعتقاد بأن الناس يستصوبون من الأفعال ما حقق  
نفساً ، ويستهبجون منها ما أدى إلى مضرة ، ولكن جيمس  
يعتقد أن مذهبه يفضل مذهب « هيوم » لأنه يقدم مقياساً  
موضوعياً للأخلاقية .

وشابه بنتام في جوهر مذهبه على نحو ما أشرنا من قبل ،  
بل تابعه في تعليق أخلاقية الأفعال الإنسانية على نتائجها وآثارها  
دون براعنها ونوايا أصحابها ، وفي النظر إلى الرجل الماضل على أنه  
من يحسن تقدير الذات وحساب الآلام<sup>(١)</sup> ...

وشرح جيمس نظريته السياسية في مقال عن الحكومة  
نشرته دائرة المعارف البريطانية في طبعتها التي صدرت عام  
١٨٢٠ ؛ وقد رأى أن غاية الحكومة - كغاية كل سلوك  
أخلاقي - تقوم في تنمية السعادة الإنسانية ، وأوجب على

---

(١) L. Stephen, *ibid.*, وكذلك Plamenatz, *op. cit.*, ch. VI.

Ch. VII Sec. III من الأخلاق عند جيمس مل ص ٣١٢ - ٣٧ .



الحكومة أن تعالج الآلام واللذات بحيث تحقق السعادة التصوي  
ل مواطنيها بأن تضمن لكل فرداً كبير قدر يمكن من نتاج عمله ،  
وكان يعتقد أن السياسة يمكن أن تسير بمقتضى العقل ، وأن آراء  
الغناس يجب أن تخضع لمنطق الحاجة .

ولكن جيمس لم يكن واسع الاطلاع ، بل كان يجهل  
فلسفة الألمان النظرية جهلاً معيباً ، وليس أدل على هذا الجهل  
الفاضح من إشارته إلى المسكين « كانت » في كتابه : نقد العقل  
النظري<sup>(١)</sup> !! وقد كان هذا الجهل بالفلسفة الألمانية سمة مفكرى  
الجزيرة البريطانية إبّان القرن الماضى ، مع استثناء هاملتون وقله  
من الأدباء من أمثال كولريديج وكارلايل<sup>(٢)</sup> ، من هنا نفهم نزاع  
جيمس مل مع كولريديج بصدده المنهج الاستنباطى القبلى<sup>(٣)</sup> ،  
وضيقه بمذاهب الحدسيين والعقليين .

حسبنا هذا عن جيمس مل ، فإن فى مذهب أستاذه السالف  
الذكر ، ومذهب ابنه فيما يلى من حديثنا ، ما يتفينا عن الإسهاب  
والتفصيل ، ولا بأس من أن نتخطى صفار التفصيلين الذين

---

(١) كارن L. Stephen فى كتابه السالف ج ٢ ص ٣٤ .

(٢) انظر B. Russell فى كتابه السالف ص ٨٠١ .

(٣) Cf. Stephen, Vol. II, p. 85-7 وانظر التباين بينهما

عاصروا الأب وابنه كالكافى جون أوستن + ١٨٥٩ J. Austin  
والتورخ جورج جروت G. Grote تلميذ بنتام وصديق مل ،  
وجون هرشل + ١٨٧١ J. Herschel ووليم هرشل + ١٨٦٦  
وغيرهم ممن كان لهم بعض الفضل على مذهب المنفعة العامة ،  
ولنشرع فى الحديث عن أشهر النفعيين :

### جون ستورْت مل

من سيرة حياته العقلية والروحية :

فى فلسفة مل بلغت التجريبية الحديثة - فى القرن التاسع  
عشر - ذروتها ، كما بلغت التجريبية التقليدية السابقة أوجها  
فى فلسفة هيوم ، وتميزت فلسفته بمخاض تجريبية عصره ،  
خرجت من برجا العاجى واتصلت برجل الشارع ، وتجاوزت  
صفوة المثقفين إلى جبهة المستنيرين .

تعهد تربيته منذ صغره والده جيمس ، فتشبع بالنفعية وهو  
لا يزال حدثاً ، وأنشأ جمعية « النعى » وهو لما يزل فى السادسة  
عشرة من عمره ( ١٨٢٣ - ٢٦ ) وسرعان ما أصبح هذا الاسم  
شعار المذهب ورمزه ، وفى سن العشرين أصابته أزمة روحية كان  
لها خطرهما فى حياته المقبلة ، بل تمرد حيناً من الزمن على التعاليم

النفعية التي تلقاها عن أبيه وأخلص لها فيما سلف من حياته ،  
فضاق بنظرية السعادة ونفر من الجبرية الأخلاقية وبرم بطغيان  
المقل وجزره على العواطف والانفعالات ، وبدأ يشعر بقيمة  
الفن وأهمية الشعر وخطر العاطفة... قرأ وِرد زويرث + ١٨٥٠  
Wordsworth ثم اتصل بمبقرية جيته Goethe وتعرف إلى  
الشاعر الرومانتيكي كولريدج + ١٨٣٤ Coleridge واتصلت  
بينهما أسباب الود ، ثم أطلع على « كارلايل » + ١٨٨١  
Carlyle الذي كان قد شرع يكشف لمواطنيه عن عالم ألمانيا  
الروحي ، فأقبل عليه سرّة ونفر منه أخرى ، ولكنه لم يستطع أن  
يتحرر من تأثيره الذي كان يشتد حيناً ويفترأحياناً ، بهذه الأزمة  
الروحية بدأ تحرره المؤقت من سيطرة أبيه ونفوذ فلسفته ، وتبيل  
هذا التحرر في مجلدين نشرهما عام ١٨٣٨ و ١٨٤٠ ، أحدهما عن  
بنتام ، والثاني عن « كولريدج » (١).

ولهذين المقالين خطرهما الملحوظ في التعبير عن روح ذلك  
العصر ، وبهما كان مل في طليعة الذين كشفوا عن التباين الذي

---

(١) نشرهما في Westminster Review ثم ظهر عام ١٨٥٩ في  
الجزء الأول من Dissertations & Discussions وأشرنا للمقال الأول  
في هامش ص ٩٧ من كتابنا هذا ، وفارن فيما يتصل بموقفه من كولريدج  
. L. Stephen, op. cit., Vol. II., p. 376 ff.

تتنازع التفكير في عصره ، ويبدو هذا التباين من ناحية في بنجام ومدرسته التي واصلت اعتناق التقاليد العقلية التي كان يدين بها القرن الثامن عشر ، كما يتمثل من ناحية أخرى في « كولريديج » الذي تركزت فيه القوى الروحية التي غزت الجزيرة البريطانية في القرن الماضي ؛ كان مل « بنقاميا » في نشأته ويثته وتريقته ، ولكنه أثناء مهروء بالأزمة الروحية السالفة أخذ يتحرك بعقله وقلبه نحو العالم الروحي الذي جدّ في الكشف عنه كولريديج وأتباعه ، وفي هذين المسكرين تمثلت روح ذلك العصر ، يقول مل إن كل إنجليزى في عصره لا يمكن أن يبرأ من مشايعة بنجام أو مقابسة كولريديج ، يتمثل في أولها الاتجاه التجريبي الابتكارى الإلحادى ، ويبدو في ثانيهما المذهب الوجودى ونزعة المحافظة والتدين ؛ أى أن مل كان بصور التباين بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، أى بين عصر التنوير الذى يستند إلى العقل ، والعصر الرومانتيكى الذى يقوم على العاطفة ، أو بين روح الجزيرة البريطانية والروح الألمانية ، ولكنه شعر في نفس الوقت بضرورة التوفيق بين هذين الضدين ، وإزالة التوتر القائم بينهما ، وأحس بهاتف باطنى يدعوهُ إلى التأليف بينهما ، معتقداً أن من يستطيع أن يسيطر على مقدمات كل منهما، ويربط بين مناهج كل منهما ،

يهيمن على الفلسفة الإنجليزية كلها في ذلك العصر .  
كان مل يعتبر كولريدج الشارح الإنجليزي للمثالية الألمانية ،  
وكان من نتيجة تأثره بهذه النزعة الجديدة انصرافه عن فلسفة  
بنتام فترة من الزمن ، يشهد بهذا بحمه السالف الذكر ، وقد  
ناقش فيه أستاذه وقد أخطاه وأبان عن قصور مذهبه ، وصرح  
بأن فلسفته لم تتجاوز سطح المسائل إلى بواطنها ، ولم تتغلغل إلى  
أعمق دقاتها ، وعلى عكسها كان كولريدج ؛ بل أخذ يتحدث  
عن الكمال الروحي كغاية للسلوك الإنساني ، ويطلب بالرغبة في  
تحقيق هذا الكمال لذاته دون اهتمام بما يترتب عليه من آثار ؛  
بل إن عقله قد تفتح في مقالیه السالفين لتيارات التفكير التي  
صدرت عن المثالية والرومانتيكية ، حتى لاحظ في أواخر أيامه  
أنه أسرف إبان هذه المرحلة من حياته في الانصراف عن فلسفة  
بنتام التجريبية ، والقناء في مثالية كولريدج ورومانتيكته ، ومع  
أن هذه الأزمة الروحية قد تركت في حياته المقبلة بعض آثارها ،  
فإنه ظل يتمسك بالسعادة غاية للحياة ومحكاً لقواعد السلوك ،  
وإن كان قد رأى أن اكتسابها لا يكون يجعلها غاية الإنسان  
المباشرة ، بل بتوكيز الاهتمام في سعادة الآخرين أو في ترقية  
الجنس البشري — كما سنعرف بعد قليل .

ارتد مل بعد أزمته السالفة إلى نزعتة الحسية ، وتقديره للتجريبية التي تخلفت عن القرن الثامن عشر ، ومع أن كولريديج وكارلايل وأتباعهما قد قدموه إلى عالم التفكير الألماني ، فإنه لم يحاول قط أن يستوعب مذاهب الفلسفة الألمانية ، وكانت معرفته سطحية بشعر جيته ونظريات بستالوتزى + ١٨٢٧ Pestalozzi في التربية ، بل قيل إنه كان يستمد علمه بالحركة الفلسفية الألمانية (من كانت + ١٨٠٤ إلى هيجل + ١٨٣١) مما كان يدور بين معارفه وأصدقائه ! ومن هنا جاءت مقاومته للفلسفة الألمانية في أكثر كتاباته ، إذ كانت الفلسفة الألمانية في نظره كتاباً أغلق بسبعة أختام ، ولم يجد في نفسه أقل رغبة في اكتشاف الأسرار التي يتضمنها هذا الكتاب المغلق ! ومع ذلك فإنه لم يتحرر كل التحرر من تأثير كولريديج وإن لم ينبجح في التوفيق بين اتجاهه واتجاه التجريبية المضاد .

من هنا نستطيع أن نقول إن الحركة النفعية قد ازدهرت على يديه ، وإن لم تنجح كثيراً في غزو بلاد جديدة ، لقد بحث فيها مل حيويةً ونشاطاً ، لم يهبها أصالةً وإبداعاً ، ولكنه مع احتفاظه بأسسها القديمة حول تيارها وزاده قوةً وجرياناً ؛ إن تأثيره بالتيارات الفكرية الدخيلة لم يغير من تفكيره الذي صدر

عن جو الجزيرة البريطانية ؛ ففي الأخلاق أخذ نفعيته من بنجام ،  
وفي علم النفس استمد نظريته في المعرفة من فلسفة أيبه ، وفي  
الاقتصاد السياسي استقى نظرياته عن مالتوس وريكاردو ، وفي  
الميتافيزيقا والدين عرف لا أدريته عن هؤلاء المفكرين ، ثم  
أضاف إلى هذا التراث الأصيل تياراً ألمانياً جديداً غزا الجزيرة  
البريطانية على يد كولريدج وكارلايل ، ومع تأثره الضعيف بهذا  
التيار الجديد لم يستطع أن يتمثله أو يستوعبه ، بل انصلت فلسفته  
بتيار فرنسي تمثل في وضعية « سان سيمون » وتلميذه « أوجست  
كونت » ، وكان أيسر على عقله من تيار التفكير الألماني .  
من هنا التقت الوضعية الفرنسية وتجريبية الجزيرة البريطانية  
في فلسفة مل ، وكانت مقاومته الصارمة لكل فلسفة لا تقوم  
على التجربة ، أو لا يمكن التثبت من صحتها بالتجربة ، فهاضت  
الأفكار الفطرية والحقائق الأولية واليقين الحدسي في المعرفة  
وفي الأخلاق وفي كل مجال من مجالات التفكير ، وقد توج  
جهوده في هذا الصدد بمحاربة مذاهب الفطرة apriorism في كل  
صورها ممثلةً في فلسفة « هملتون » ، وبكتابه « سراجمة فلسفة  
هملتون »<sup>(١)</sup> ١٨٦٥ انتهى النزاع بين حدسية المدرسة

The Examination of Sir W. Hamilton Philosophy (١)

وقد تعد فيه مذهب الحدسيين والعقليين كما تصوره .

الإسكتلندية وتجريبية القرن التاسع عشر، بانتصار الثانية انتصاراً حاسماً ، واختفاء الأولى من الميدان<sup>(١)</sup> كما أشرنا في صدر هذا الباب . ولكن مل قد ارتد بنفعيته التجريبية مقنعاً متكرراً إلى مذهب العقلين ! تشعب منذ حداثة بالزرعة الحسية كما بدت في فلسفة بنتام وفي مذهب أبيه جيمس ، ثم اتصل بالعالم الروحي الذي كشفه لأهل الجزيرة البريطانية كولريدج وكارلايل ومن ذهب مذهبهما ، وتأثر به مل وإن لم يستطع أن يتمثل تراثه الضخم ، من هنا غزت مذهبه الحسي عناصر عقلية دخيلة ، فلنقف عند مذهبه النقي :

عزيمه للنفعية :

يقول في مطلع كتابه عن « مذهب المنفعة العامة »<sup>(٢)</sup> إن الخير الأقصى — وهو أساس الأخلاقية — كان مثاراً للجدل منذ أيام سقراط الشاب وپروتاغوراس الشيخ ، وتشعب الباحثون إزاء هذه المشكلة فرقاً ومدارس دون أن تلتقى عندهم وجهات النظر ، إن اتفاق الباحثين على نتائج البحث ممكن في العلوم

---

R. Metz, A Hundred Years of British Philosophy, (١)

p. 62 ff.

Mill, Utilitarianism, Liberty & Representative (٢)

. Government, (Everyman's Library), (1948), Ch. I.



النظرية مستحيل بالإضافة إلى العلوم العملية — كالأخلاق  
والتشريع — ذلك لأن الإنسان يأتي أفعاله من أجل غاية يهدف  
إليها ، والقاعدة التي يسير الفعل بمقتضاها يجب أن تستمد كل  
طابعها وصورتها من هذه الغاية التي تخضع لها ، ومن هنا وجب  
البدء بوضع غاية لتقدير أفعال الإنسان ، وترتيب الوسائل المؤدية  
إليها ، فبالقياس إلى هذه الغاية يصدر الحكم الخلقى على الأفعال  
الإنسانية . وقد قرر « مل » مبدأ المنفعة — أو السعادة العظمى  
كما يسميه بنتام — خيراً أقصى ، وصرح بأن مسائل الغايات  
القصوى لا تخضع للبرهان المباشر ، إن الفعل الخير يمكن التبدليل  
على خيريته بالبرهنة على أنه وسيلة إلى تحقيق خير لا يحتاج خيريته  
إلى برهان ، فالدليل على أن الطب خير هو أنه يقود الناس إلى  
الصحة ، والبرهان على أن فن الموسيقى خير هو أنها تثير في النفس  
لذة وتقيض عليها غبطة ، أما لماذا تكون الصحة أو اللذة خيراً  
في ذاتها فذلك ما لا يناله البرهان ، ولكن هذا لا يعنى أن الغايات  
القصوى تدرك بالحدس أو تقوم على دافع أعمى أو اختيار تصفى ،  
بل إن ما يبرر التمسك بهذه الغاية هو أن يتهيأ للعقل من  
الاعتبارات ما يدعوه للتمسك بها ، ومن ثم يعرض مل لبيان هذه

الاعتبارات فيبين الأسس التي تدعوننا إلى الأخذ بمبدأ المنفعة<sup>(١)</sup>.  
ويقتضى هذا أن يسبق إلى توضيح هذا المبدأ والكشف عن  
الأسس التي تبرر التسليم بالمنفعة مستوياً أخلاقياً .

اتفق مل مع بنتام في إقرار مبدأ المنفعة غايةً لكل سلوك  
أخلاقى ، وفي تعليق أخلاقية الأفعال الإنسانية على مدى ما تحقق  
من منافع أو تدفع من مضار ، بل كان أخلص من بنتام في المطالبة  
بمنفعة المجموع أو سعادة أكبر عدد ممكن من الناس ، وصرح  
بأن من الخطأ أن يظن ظاناً أن المنفعة تعنى شيئاً غير اللذة ،  
فجميع النفعيين من أبيقور قديماً إلى بنتام حديثاً لم يقصدوا بالمنفعة  
شيئاً غير اللذة ، بل أرادوا بها اللذة والخلو من الألم ، فالأفعال  
الإنسانية خيرٌ بمقدار ما تحقق من لذة وتقى من ألم ، وتكون شراً  
بعكس ذلك ، وقيام اللذة والتجرد من الألم غاية كل كائن حي ،  
وهكذا اعتبر المذهب النفعي اللذة النائية الوحيدة التي تهدف  
لتحقيقها غاية الإنسان ، والمستوى الذي تقاس به أفعال الإنسان  
والمقياس الذي تصدر بمقتضاه أحكامنا الخلقية .

---

(١) سنعود إلى الحديث عن هذه الاعتبارات متفرقة في ثنايا هذا  
البحث ، وقد سردنا مل في الفصل الثانى ( من كتابه سالف الذكر ) الذى  
تناول فيه « حقيقة المنفعة » .

### فضد على مذهب المنفعة :

فيم إذن كانت التمديلات التي أدخلها « مل » على مذهب « بنتام » ؟ إنها خليقة بأن نقف عندها ونفهم كتبها لأنها أقدمت للمذهب واقعيته وخرجت به عن نطاق حسيته ، فإلى هذه التمديلات ؟

#### ١ — إفضاع المنفعة الخاصة للمنفعة العامة :

حين عالج بنتام مشكلة الانتقال من المنفعة الخاصة إلى المنفعة العامة ، أقام منفعة المجموع على أساس المنفعة الفردية ، وكان مخلصاً في أن يقيم مذهبه الأخلاقي على أساس مذهب اللذة السيكولوجي ، ومن ثم لم يطالب الأناني بالتخلي عن أنانيته لصالح المجموع ، بل أراد أن يوسع معنى الأنانية حتى تذوب في الغيرية وتلاشى في العمل لصالح الآخرين ، بشرط ألا ينتهي العمل من أجل المجموع بالتضاء على مصلحة الفرد ، فالمنفعة الفردية هي قوام المصلحة العامة ، بل إنه حين عرض لموقف الفرد حين يختار بين فعل يحقق لذته عميقة خصبة ، وفعل يحقق للكثيرين كمية ضئيلة من اللذة ، آثر العمق والشدة على الشمول الذي يحقق اللذة للكثيرين ، فكانه استغنى بهذا عن شطر

رئيسى من شعار مذهبه وهو تحقيق اللذة « لأ كبر عدد من الناس » ، أما « مل » فقد عكس هذه القضية ، لأن مبدأ المنفعة في مذهبه يقتضى من كل فرد أن ينصف غيره ويخلص فى طلب منفعه إنصافه لنفسه وإخلاصه فى التماس لذاته ومنفعه الخاصة ، إن روح الأخلاق النفعية الكاملة تبدو فى القاعدة الذهبية التى بشر بها عيسى النزارى ( عليه السلام ) وهى أن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به ، وأن تحب جارك كما تحب نفسك ؛ فى هذه القاعدة يقوم الكمال المثالى للأخلاق النفعية ، ولتحقيق هذا المثال يجب أن تجعل القوانين والنظم الاجتماعية سعادة الفرد أو مصلحته على اتساق وانسجام مع سعادة المجموع أو مصلحته ما أمكن ذلك ، وأن تُسَخَّرَ التربية والعقيدة بما لهما من تأثير غلاب على الخلق الإنسانى لإقناع كل فرد بأن يربط بين سعادته الشخصية وصالح المجموع برباط وثيق لا ينفصم ، بحيث يفهم أن قيام سعادته الشخصية لا يتمشى مع السلوك الذى يعارض مع الخير العام فحسب ، بل يقوم عنده دافع مباشر يحمّله على ترقية الخير العام ، بحيث يصبح هذا الدافع من البواعث التى تحمله فى العادة على إتيان أفعاله ، وتعملاً العواطف الموصلة بها فرائضة

ملحوظًا في وجود كل كائن حي شاعر<sup>(١)</sup>.

وقد فسر مل تحول الأنانية إلى غيرية ، والعواطف الفردية إلى تعاطف وتضحية ، فاصطلح مذهب تداعي المعاني عند دافيد هارتلي + ١٧٥٧ D. Hartley ؛ إذ كان يرى أن الحياة الفعلية تقوم على تداعي المعاني الذي يرجع إلى قانون التعاقب والتقارب ، ويفسر العواطف العليا بتداعي للعواطف الدنيا ، فحبة الأم لطفلها مرجعها إلى ما يثيره الطفل من لذة أو ما يدفعه عنها من ألم ، وليسكن سرعان ما تتجمع حول فكرة الطفل ذكريات لذينة بتداعي المعاني حتى تحب الأم طفلها لذاته ، لا لما يترتب على وجوده من لذة ، والبخيل يطلب المال في أول أمره كوسيلة لغاية ، ثم سرعان ما تصبح الوسيلة غاية فينشده البخيل لذاته ، ومن هنا أمكن القول بأن العواطف المجردة عن الهوى ترشد في نشأتها إلى عواطف ذاتية ؛ والرغبات الفردية التي تقوم على الأثرة تتحول إلى رغبات غيرية تقوم على التضحية ؛ وهكذا رأى النفعيون أن أعمال الإنسان التي كانت تهدف إلى تحقيق لذة لصاحبها ، قد تحولت بالتدريج عن طريق تداعي المعاني إلى أعمال خيرة في ذاتها ، وصرح مل بضرورة تربية الطفل منذ صغره على أساس

---

. Mill, ibid, p. 16 (١)

التوحيديين منفعتهم الخاصة ومنفعة المجموع ، وبالتداعي يتعلم  
بالتدريج طلب النافع بمجرد أنه نافع !

وحّد « مل » بين سعادة الفرد وسعادة المجموع توحيداً  
أثار ثائرة النقاد — على نحو ما سنعرف عند ما نعرض لمناقشة  
مذهبه — سلم مع بنقام بأن « الأفعال تكون خيراً بمقدار نزوعها  
إلى ترقية السعادة ، وخطأً » بمقدار نزوعها إلى تحقيق ما يضاد  
السعادة » كما صرح في الفصل الثاني من كتابه السالف الذكر ،  
ولكنه يعود في الفصل الرابع إلى ابتداع أدلة يبرهن بها على مبدأ  
المنفعة ، وينتقل فيها من منفعة الفرد إلى منفعة المجموع ، ومن  
التعبير عما هو كائن إلى تصوير ما ينبغي أن يكون ، وكانت أدلته  
في هذا الصدد مثاراً لجدالات عنيفة من النقد . يقول مل :

إن البرهان الوحيد على أن الشيء مرئى *visible* هو أن  
الناس يرونه بالفعل ، والدليل الوحيد على أن الصوت مسموع  
*audible* هو أن الناس يسمعونه بالفعل ، ومثل هذا يقال في  
سائر منابع التجربة عندنا ، وبمثل هذه الطريقة نقول إن الدليل  
الوحيد الذي يمكن الإدلاء به على أن شيئاً ما مرغوباً فيه  
*desirable* هو أن الناس يرغبون فيه بالفعل ، فإذا لم يعترف  
الناس نظرياً وعملياً « بالغاية » التي تقترحها النظرية النفعية ،

تمدّر إقناع إنسان بهذه الغاية ؛ ليس هناك من سبب يمكننا أن ندلل به على أن سعادة المجموع شيء مرغوب فيه سوى أن كل فرد يرغب فعلاً في سعادته الشخصية كما اعتقد إمكان الحصول عليها ، وإذا صح هذا كنا قد أثبتنا — بالدليل الذي تحمله وتتطلبه هذه العبارة — أن السعادة خير في ذاتها ، وأن سعادة كل فرد خير لتلك الفرد ، وبالتالي أن سعادة المجموع خير لمجموع أفراده ، ومن ثم تكون السعادة إحدى غايات السلوك الإنساني ومعيار الأخلاقية<sup>(١)</sup> .

وسنرى أن هذه الفقرة كانت مثاراً للنقد الذي كشف عما تضمنته من أخطاء منطقية وسيكولوجية وأخلاقية ، ونرى كيف كان تهافت برهنته في هذا الصدد مضرب الأمثال .

على هذا النحو انتقل مل من تأكيد منفعة الفرد ، إلى إقرار منفعة المجموع ، ومضى في سبيله فحمد تضحية الفرد بذاته من أجل المجموع ، فأقر بهذا تضحية المنفعة الخاصة في سبيل المنفعة العامة ، فلنقف قليلاً لتفسير موقفه في هذا الصدد :

---

(١) Mill, Utilitarianism, Ch. IV., p. 32-8

## ٢ — التضحية في مذهب :

كان بنقام لا يقر تضحية الفرد بمنفعته في سبيل منفعة الآخرين ، إلا إذا نجمت عن هذه التضحية منفعة لصاحبها تكبر تضحيته ، أما مل فقد رد للتضحية اعتبارها ، وهياً لها مكاناً محتمله في مجال الحياة الأخلاقية ، إذ رد على الذين رأوا في اعتراضهم على النفعية أن في وسع الإنسان أن يتعلم كيف يأتى أفعاله بغير باعث من طلب السعادة ، فقال إن هذا يمكن لا ريب فيه ، بل صرح بأن هذا ما يفعله البطل أو الشهيد طواعيةً واختياراً ، من أجل شيء يسمو في نظره على سعادته الشخصية ، ولكن ما حقيقة هذا الشيء الذي يرتفع عنده حتى على سعادته ؟ إنه من غير شك سعادة الآخرين أو بعض مقتضيات هذه السعادة ، من النبل أن يتنازل الإنسان تماماً عن نصيبه من السعادة الشخصية أو يتنازل عن الفرص التي تحقق له السعادة ، ولكن هذه التضحية ينبغى أن تكون أداة لتحقيق غاية ، ولا تكون غاية في ذاتها ، فإذا قيل إن غايتها تحقيق الفضيلة وليس السعادة ، قلنا إن البطل أو الشهيد ما كان ليقدّم على التضحية بنفسه إذا لم يكن على يقين من أن تضحيته ستوفر على الآخرين الإقدام على مثل هذه التضحية ، ما كان يمكن لمثل هذا البطل أو الشهيد أن يقدم على التضحية



لو خطر له أنه لن يحقق بها نفعاً لأقرانه ، أو ظن أنها تجعل نصيبهم من السعادة كصيبه ، ينبذون سعادتهم من غير ثمن يتقاضونه ؛ طوبى لأولئك الذين يستطيعون أن يرفضوا التمتع بما قدر لهم في حياتهم من لذات ، متى كان في رفضهم مساهمة في تنمية كمية السعادة للبشرية ، أما أولئك الذين ينبذون سعادتهم الشخصية من أجل غاية أخرى ، أو يصرحون بأنهم يفعلون ذلك — فإنهم لا يستحقون من الإيجاب إلا ما يستحقه الفاسك الزاهد ، إنه يمكن أن يكون شاهداً على ما يستطيع الإنسان أن يأتيه من أفعال جسام ، ولا يكون قط مثلاً لما يجب أن يفعلوه .

ويصرح مل بأن تضحية الفرد بذاته تضحية مطلقة من أجل سعادة الآخرين لا تكون إلا في عالم غارق في الاضطراب ، وطالما كان عالمنا على هذه الحال من النقص ، فإن مل يقر بأن الاستعداد للإنسان مثل هذه التضحية هو أسمى فضيلة يمكن أن يزاومها الإنسان ، بل يضيف إلى هذا أن العالم طالما كان في مثل هذه الحال من النقص ، فإن القدرة الواعية على التصرف بنير باعث من تحقيق السعادة ، ترفع الإنسان فوق صروف الزمن ، إذ تشمره ، هذه القدرة الواعية — بأن القدر بالتمه ما بلغت محته ، وأن الحظ بالتمه ما بلغ سوؤه ، لا يستطيع

أن يمتد إلى هذا الإنسان ، ولأن يعكر صفوه ؛ إن الإنسان  
مق شعر بقدرته على التضحية بذاته ابتغاء سعادة الآخرين ،  
حرر نفسه من ضغط القلق الذي ينشأ في نفسه خوفاً من محن  
الحياة وكوارث الزمن ، وشعر — كما شعر الكثيرون من الرواقية  
أنفاء الامبراطورية الرومانية — بالقدرة على أن يستمد من الهدوء  
والسكينة مقاييس الرضا النفسى ما أمكن ذلك ، من غير أن يشغل  
نفسه بمدى ديمومته أو غايته التى لا مفر منها ؛ إن الأخلاق  
النفعية تعترف بأن فى الإنسان قدرة على تضحية خيره الأسمى  
فى سبيل خير الآخرين ، ولكنها ترفض التسليم بأن التضحية  
فى ذاتها خير ، لأن التضحية التى لا تزيد — أو لا تتجه إلى زيادة  
مقدار السعادة العامة — سعادة المجموع — عبث وضلال مبين ؛  
إن إنكار الذات الوحيد الذى ترحب به النفعية ، هو الذى يوجّه  
إلى تحقيق السعادة العامة — أو تيسير بعض أسبابها للآخرين ،  
أى للجنس البشرى مجتمعا أو للأفراد فى الحدود التى تفرضها  
مصالح الجنس البشرى المشتركة .

بل إن مل كان واقعيا حين صور موقف الإنسان من  
البشرية ، إذ صرح بأن من الخطأ أن يظن ظان أن المبدأ النفسى  
يدعو الناس إلى عمل ليس فى مقدورهم ، بحجة أن النفعية المنشودة

تستوعب العالم كله ، وتتطلع إلى المجتمع الإنساني بغير تحديد ،  
فقرر أن أكثر الافعال الخيرة لا تهدف إلى تحقيق المنفعة للعالم  
بأجمعه ، بل ترمى إلى منفعة أفراد يتألف منها خير العالم ، إن  
زيادة السعادة هي غرض الفضيلة عند النفعيين ، وأمام الناس  
— مع استثناء واحد في الآف — فرص تمكنهم من خدمة  
المجتمع ، أما في غير هذه الحالة فواجب كل إنسان يقتضى أن  
يهتم بصالحه الخاص و بصالح قلة من الناس معه <sup>(١)</sup> .

بهذا كان يتحدث مل عن العلاقة بين سعادة الفرد وسعادة  
المجموع ، أقام بنتام الثانية على الأولى ، ولم يتصور كيف يمكن  
أن تتحقق سعادة المجموع على أساس من تضحية الفرد بسعادته  
الشخصية ، فجعل الأناية تتسع حتى تشمل التيرية ، أما مل فقد  
عكس آيته ، إذ أوجب على الفرد أن يسعى لتحقيق منفعة المجموع  
بنفس الروح التي يسعى بها لتحقيق منفعته الشخصية ؛ بل غالى  
فأقر تضحية الفرد بسعادته أو حياته متى كانت من أجل سعادة  
الآخرين ، فاحترم مصلحة المجموع حتى رفعها فوق مصلحة  
الأفراد ، الكل في مذهبه يسبق الأفراد التي يتألف منها هذا  
الكل ، ومع أن قيمة التضحية في نظره ليست في ذاتها بل

---

. biid., p. 14-17 (١)

في أنها وسيلة لتحقيق سعادة المجموع ، إلا أنها قد استردت على يده مكانها في الحياة الخلقية ؛ وهكذا نرى أن بنتمام نظر إلى المجموع من خلال مطالب الفرد ، أما مل فقد نظر إلى الفرد من خلال المجموع ، وبهذا كان إخضاع المنفعة الفردية للمنفعة العامة من أظهر التعديلات التي أدخلها مل على مذهب بنتمام .

### ٣ — التفرقة الكيفية بين الذات :

ومن أقوى هذه التعديلات وأشيعها عند مؤرخي المذهب النفسى ، تفرقة مل بين أنواع الذات .

كانت الذات عند بنتمام من طبيعة واحدة ، وإن اختلفت ديمومةً وشدةً وشمولاً ونحو ذلك مما يمكن تكيمه ، وإذا نحن أخفنا تكيم الذات عند بنتمام شابهت نظرته إلى الحياة الخلقية نظرة القورينائية ، وقد ميّز المذهب الأبيقورى بين لذات العقل ولذات الحس ولكنه لم يسم بإحداهما على الأخرى سموا وانحما ، وإن رأى أن الأولى أدق وأهدأ ، ومن هنا كان الأرجح عنده ألا تودى إلى نتائج أليمة ، ومن ثم كانت أعظم مقدارا ؛ أما « مل » فقد خالف جميع سابقيه من الذين في تفرقة بين

أنواع الذات ، وبذلك ميز بينها كماً وكيفاً<sup>(١)</sup> .

ويعرض « مل » لهؤلاء الذين يثير للمذهب النفى في نفوسهم ضيقاً حتى زعموا أن القول « بأن الحياة ليس لها غاية أسمى من اللذة » نظرية لا تلائم إلا الخنازير ، وأشار إلى ما يلقاه المحدثون من دعاة النفعية من حملات مفكرى الألمان والفرنسيين والإنجليز ، وعقب بأن الأبيقورية كانوا إذا هوجوا من أجل مذهبهم قالوا لخصومهم : إنكم أنتم — ولستنا نحن — الذين تفتظرون إلى الطبيعة البشرية نظرة شائنة ، لأنكم تفترضون أن الطبيعة البشرية لا تقوى على تذوق لذات أسمى من الذات البهيمية ، ولو صح هذا الاتهام لتساوت منابع اللذة عند الإنسان والخنازير ، وكانت القاعدة التى تسير بمقتضاها حياة أحدهما صالحة لأن تكون قاعدة حياة الآخر ! إن لذة البهائم لا ترضى تصور الإنسان لعنى السعادة ، والنفعية عامة تفترض فى الإنسان قوى عليا سامية — هى القوى العقلية — تنزع إلى ما يشبعها من لذات ، وتسمو بمتع العقل والوجدان والخيال حتى ترفها على لذات الحس بفضل ما يتوافر فيها من عناصر الدوام والثبات ،

---

L. Stephen, op. cit., وJohnston, op. cit., p. 170 (١)

. Vol. III., p. 804 ff

وبرئها من العناء الذى يمكن أن يحتمله صاحبها ... وغير ذلك من عميزات ، وبهذا يقرر المذهب النقي أن الناس أكثر شغفًا وتقديرًا لبعض « أنواع » اللذات منهم لبعضها الآخر ، ومن السخف — فيما يقول مل — أن يميز الناس بين الأشياء جميعها بتقدير كمها وكيفيةها ، فإذا عرضوا لتقويم اللذات وتقديرها فنعوا بافتراض أنها لا تختلف إلا من ناحية السكم .

ويقول « مل » إنه لو مثل عما يقصده بكثيف اللذات ، أو عن عملٍ يجعل لذةً أئمن وأسمى من أخرى ، لأجاب على الفور بأن من يختبر نوعين مختلفين من هذه اللذات — عقليةً وحسيةً مثلاً — لا يتردد — من غير دافع من إلهام خلقى — فى أن يؤثر اللذة التى تكون أكثر إثارةً لشوق الإنسان ورغبته ، وقد يؤثر اللذة التى تقتن بالمعاصب ، والذى قدّر له أن يختبر أنواع اللذات ويقدر قيمها هو وحده الذى يستطيع أن يفرق بينها كثيرًا ؛ وقل من الناس من يرضى أن يكون حيوانًا وضيعًا ، وأن يقتنع بطلب اللذة البهيمية ، إن العاقل لا يقبل أن يكون معقوها ، والمتعلم لا يسره أن يكون أميًا جاهلًا ، وصاحب الضمير لا يرضى أن يكون أنانياً وضيعًا ، حتى ولو اقتنع هؤلاء بأن حظ الوضيع من السعادة أكبر من حظ الإنسان المهذب النبيل ...

ومن أوتي القوى العليا السامية يدفع لسعادته ثمناً أغلى مما يدفعه الوضيع ، لأنه يرفض كل ما يشين كرامته ، وفي سبيل سعادته يحتمل عناء المتاعب والآلام ، ويرفض أن يضع نفسه في مرتبة دنيا ، لأن كبرياءه أو أنفته تجله يفقر من التمتع بالشهوات الرخيصة ، ويكلف بالحرية وينزع إلى الحرص على استقلال شخصيته وصيانة قوته ونحو هذا مما نسميه بالكرامة ، وهي حظٌّ مشتركٌ بين الناس جميعاً — وإن تفاوت نصيبهم منها ، وهذه الكرامة عنصر رئيسي في سعادة الإنسان ، ولا يمكن قط أن يرغب الإنسان في إتيان ما يتنافى معها من أفعال ، فلخيرٌ للمرء أن يكون إنساناً كريماً ينقصه الرضا من أن يكون خنزيراً هائلاً ، وأن يكون سقراطاً معذباً من أن يكون أحق سعيدياً ...

إن الإنسان لينزع بطبيعته إلى ما يشبع قواه العليا من لذات ، وإن لم يمنع هذا من أن يستسلم الذين يتذوقون اللذات العليا لإغراء اللذات الحسية الدنيا ، وأن يستجيبوا لندائها مذمنين ، مع تقديرهم للذات العليا وإدراكهم لقيمتها ، فإن الناس يستسلمون للشهوة الحسية إلى حد الإضرار بصحتهم ، مع علمهم الكامل بأن الصحة أعظم خيراً ، ولكن الذي يعكف على إشباع لذاته الدنيا هو الذي لم يتذوق سواها ، أو الذي افتقد

القدرة على التمييز بين أنواعها المختلفة<sup>(١)</sup>.

هكذا خالف « مل » مذهب بنتام في إخضاع المنفعة الفردية لمطالب المنفعة العامة ، وفي إقرار التضحية بالذات وامتعاها في سبيل المجموع ، وفي الفارقة الكيفية بين الذات ؛ وسنرجى مناقشته في هذه الأمور إلى ما بعد الانتهاء من عرض مذهبه ، ولنفهم الآن هذه السعادة التي تحدّث عنها « مل » ، ما حقيقتها ؟ وما خصائصها التي تميزها ؟

مميزات السعادة ومقوماتها في مذهبه :

كان النافع عند « مل » هو ما يحقق لذة أو يُبعد ألاماً ، وهو ما يفر السعادة بتعبير آخر ، من هنا تحولت اللذة في مذهبه إلى سعادة ، ولكن هذه السعادة — وهي القاعدة التي يسير بمقتضاها سلوك الإنسان — ليست أعظم مقدار من السعادة. يصيب صاحب الفعل وحده ، بل هي أعظم قدر من السعادة كما وكثيلاً له ولن ترتبطه بهم علاقات ، ونمشيا مع المبدأ الذي ينشد أعظم قسط من السعادة تكون الغاية القصوى عند اللذهب النفسى : تحقيق حياة خلوٍ من الآلام غنية بالمتع كما وكثيلاً ما أمكن

. Mill, *Ibid.*, p. 7-9 (١)



ذلك ، هذه الحياة هي في نظر المبدأ النفعي غاية السلوك الإنساني ،  
وهي بالضرورة مقياس الأخلاقية ، ويراد تحقيقها للجنس البشري .  
كله ، بل لكل كائن حاس إن تيسر ذلك .

ورُبَّ معترض يقول : إن هذه السعادة — في أى صورة .  
كانت — لا يمكن أن تكون الناية التي يضحها العقل للحياة  
الإنسانية ، ويوجّه إليها سلوك الناس ، لأن مثل هذه السعادة  
ممتددة النال ، ومن ثم استحالة أن تكون غاية الأخلاقية ،  
أو هدف السلوك العاقل ، ودحضاً لهذا الاعتراض يصرح « مل »  
بأن المذهب النفعي لا ينحصر في طلب السعادة ، بل يشمل اتقاء  
الألم أو تخفيف أثره ما تيسر ذلك ، فإذا تمدد مطلب السعادة .  
بقى القضاء على الألم أو تقليل وخزائه ، وليست السعادة المنشودة .  
حياة متصلة من متع نائرة هائجة ، فإن هذا مستحيل الوقوع ،  
وإنما هي لحظات من غبطة قد تدوم ساعاتٍ أو أياماً تضيء فيها  
بالمع المشرقة ، وليست لهيباً يتلظى بلذاتٍ متصلة دائمة ؛ إلى  
هذا فطن الملاسفة الذين بشروا بالسعادة غايةً للحياة الإنسانية ،  
لم يقولوا إن السعادة التي ينشدونها حياةً من غبطة متصلة ، بل  
قالوا إنها لحظات من الغبطة في وجودٍ يتألف من قلة من الآلام .  
عابرة وكثيرة من لذاتٍ مختلفة متبوعة ، مع سيادة الشعور الإيجابي .

بالمتمعة على الشعور السلبي بانخس من الألم ، وبشرط ألا يتوقع الإنسان من الحياة أكثر من أنها خليفة بأن تمنح أهلها هذه الهبات ، إن مثل هذا الوجود الذي يتألف على النحو الذي أسلفناه كان خليقاً بأن يُعتبر سعادةً عند هؤلاء الذين قُدّر لهم أن يفوزوا به ، وكثيرون هم أولئك الذين تمتعوا بمثل هذه السعادة في الكثير من مراحل حياتهم ، وما يعوق تحققها للكثيرين إلا التربة الفاسدة والنظم الاجتماعية السيئة .

وأكبر العوامل التي تجبل الحياة شاقة غير مرضية هو تمسك الفرد بأنانيته ، وافتقاره إلى التهذيب العقلي ، ولا يقصد بالعقل المتقف عقل الفيلسوف ، بل يراد به أي عقل يتمثل المعرفة وتفتح فيه بناييعها ، ويتعلم كيف يهذب مواهبه ويُبنى قواه ، عندئذ يهتدى إلى منابع السعادة فيجد لذة عظيمة في كل ما يحيط به من آثار الفن ومشاهد الطبيعة وأخيلة الشعراء وأحداث التاريخ ، وأساليب الحياة الإنسانية في ماضيها وحاضرها وآمال أصحابها في مستقبل أيامهم ... وفي مثل هذا العالم الحافل بكل ما يثير اللذة ويفرغ بالتمتع ويدعو للإصلاح والتهذيب ، يصبح كل امرئ أهلاً لهذه الحياة السعيدة التي يشتهيها كل الناس ، ولا يعوق الإنسان عن التمتع بمراتب السعادة التي تكون في متناول

يده إلا خضوعه لظروف سيئة تتمثل فيها ألوان من الشرور ،  
ويصاب فيها بمتعاب جسمانية وأدبية ، فيعاني من الفاقة والمرض  
وفقدان الأجزاء ونحو هذا من محن قد لا يستطيع أن يتفادها ،  
ولكن ما من شك في أن أكثر هذه الشرور يقبل الزوال ،  
وإذا ظلت شئون الإنسان في تحسن قَلَّتْ هذه الشرور وتضاءلت  
في نهاية الأمر حتى تنحصر في أضيق نطاق ، فالقصر يسبب للإنسان  
المتاعب ، ومن هنا وجب أن تتكاتف جهود الحكومة وحزم  
الأفراد على إزالته ، ينبغي أن تُعْتَبَأَ الجهود للقضاء على الأمراض  
الاجتماعية بالتربية الصالحة والإصلاح الاجتماعي ، فمن الممكن أن  
يقاوم المرض — وهو عدو فتاك — بالرياضة وتهذيب الأخلاق ،  
والأمل كبير في أن ينتهي تقدم العلم في المستقبل القريب — فيما  
ظن مل — إلى هزيمة هذا العدو العملاق ، وكل تقدم في هذا  
المضمار يخلصنا من بعض ما نحن فيه من آلام قد تودي بنا إلى  
المهلك بتقصير حياتنا أو حرماننا من السعادة ، ولا يسير الإصلاح  
الموينا إلا لأننا لم نحسن استخدام إرادتنا ومعرفتنا لتحقيق أهدافنا .  
ومن واجب كل إنسان أن يتحمل نصيبه في مجال  
هذا الجهاد مهما كان ضئيلا ، وإن في هذه المقاومة لشرور

البشرية لمتعة نبيلة قد لا تعدلها متعة أخرى<sup>(١)</sup> .

كان خصوم النفعية يقولون إنها مذهب إلحادى لا يدين بوجود الله ، ولكن مل قد ردّ روح الأخلاق النفعية إلى المسيح على ما أشرنا من قبل ، وقال إننا إذا كنا نعتقد بحق أن الله يريد حقا وفوق كل شيء أن يحقق السعادة للناس ، وأن هذه السعادة كانت عنده غاية خلقهم لكانت النفعية التي يدعو لها مل نظرية إلهية ، بل لكانت — أكثر من هذا — أعظم المذاهب تمسكا بالدين ، ولو أراد أصحاب الاعتراض السالف أن يقولوا إن المذهب النفعى لا يعترف بأن إرادة الله هي القانون الأسمى للأخلاق ، ردّ مل بقوله إن النفعى الذى يعتقد فى خيرية الله الكاملة وحكمته التامة ، لا يجد مناصا من الاعتقاد بأن ما يوحى به الله فى مجال الأخلاق ، ينتهى لا محالة بتحقيق مطالب المنفعة فى أقصى مراتبها ، بل رأى البعض — بالإضافة إلى النفعيين — أن الوحى المسيحى قد قُصد به تزويد العقول والقلوب بروح تمسكنهم من معرفة الخير أو الصواب وتُقرّ بهم باتباعه أنى كان ، من غير أن يحدسهم هذا الوحى عن ماهيته إلا بطريقة عامة جلاء ، ومن ثم كانت حاجتنا إلى نظرية فى الأخلاق يهتدى الناس بهديها ليعرفوا عن طريقها.

. ibid., p. 10-14 (١)

إرادة الله ، وسيان أن يكون هذا الرأي صحيحاً أو باطلاً ، فإن  
النفعيين وغير النفعيين على السواء يستطيعون أن يفيدوا من  
نصوص الدين - منزلاً كان أو غير منزل .

وقيل إن هذه النفعية مذهب يتنافى مع مقتضيات الأخلاق ،  
لأنها ما يلائم الإنسان ويواقفه ، فهي قضاء مآرب وجبر مغام ،  
وقد استغل أصحاب هذا الاتهام دلالة هذا اللفظ في إظهار التباين بينه  
وبين « المبدأ » الذي تهتم بوضعه فلسفة الأخلاق ، وحقيقة إن  
لفظ الملائم للفرد الموافق لمصلحته expedient يضاد الحق في  
معناه ، وعندئذ يعني ما يتفق مع مصلحة الفرد الذاتية ، كتضحية  
الوزير بمصلحة وطنه في سبيل احتفاظه بمركزه في الوزارة ، وقد  
يحمل اللفظ معنى أفضل من هذا حين يدل على ما يلائم غرضاً  
مباشراً سريعاً ، أو ما يحقق غاية مؤقتة ، أو حين يدل على عصيان  
قاعدة تحقق مراميها فائدة لصاحبها ، وبهذا المعنى يكون الموافق  
أو الملائم لا يعنى النافع - بمعناه في مذهب المنفعة العامة - بل  
يتفرع عن الضار ، إذ يصبح من الملائم لأغراضنا أن نكذب  
لنتخلص من مأزق مؤقت أو لنحقق نفعاً سريعاً لنا أو لغيرنا ،  
مع أن من البين أن من أضع الأشياء أن تفرس في نفوسنا الشعور  
الدقيق بالصدق ، وأن إضعاف هذا الشعور من أضر الأشياء .

إن مجانية الصدق تضف ثقتنا بالقضية الإنسانية ، وهي دعامة  
الرافية الاجتماعية في وقتنا الحاضر ، وتموق المدنية والفضيلة وكل  
مقومات السعادة ، إن عصيان قاعدة يمثل فيها هذا النفع العظيم  
من أجل منم عاجل ، ليس من مقتضيات المنفعة في شيء ، فإن  
من يسلب البشرية خيراً من أجل مآرب شخصي ، يكون بعمله  
هذا ألد عدو للإنسانية ، وإن كان لقاعدة الصدق — مع  
ما يحوطها من قداسة — استثناءات ، كأن يخفي الطيب عن  
سريضة المشرف على الملاك حقيقة حاله ، وإن وجب عدم  
التوسع في هذه الاستثناءات حتى لا تجور على القاعدة نفسها<sup>(١)</sup> .  
وتمشياً مع الاعتراض السالف قيل إن النعمى يستثنى حالته  
الخاصة من قواعد الأخلاق ، وتحت إغراء أنانيته يرى منفعته  
في خرق القاعدة الخلقية أكبر من منفعته عند اتباعها ، ولكن  
النفعية ليست — فيما يقول مل — النظرية الوحيدة التي تزودنا  
بالأعذار التي تتعلل بها عند ارتكاب شر ، أو تُيسر لنا خداع  
ضماثرنا عند الضرورة ، إن الخطأ لا يصدر عن النظريات الخلقية  
بل عن طبيعة الأعمال الإنسانية المعقدة ، وليس من الممكن أن

. ibid., p. 20-I (٢)

يتشكل السلوك الإنساني بحيث يخلو من الاستثناء ، فالذاهب الخلقية تحث صرامة قواعدها لتكون ملائمة لشيء الظروف والأحوال ، بشرط أن يحمل الإنسان تبعه أفعاله<sup>(١)</sup> .  
يمثل هذا كان مل يحدد معنى المنفعة ودلالة مقوماتها ، ويناقش حملة خصومها ويُفند مزاعمهم بصددها .

### الإلزام الخلقى والمنفعة :

كانت نظرية « مل » في اللذة نظريةً في الغاية القصوى من السلوك الإنساني ، وتمثلت له هذه الغاية في حياة تخلو من الآلام وتحفل بالمتع ما أمكن ذلك ؛ وما فسر « مل » طبيعة الحياة الخيرة على النحو الذي أسلفناه حتى مضى إلى تحديد الإلزام الخلقى ، والكشف عن الجزاء الأقصى لمبدأ المنفعة<sup>(٢)</sup> ؛ كان بنيتام - على ما عرفنا - قد رهن خيرية الأفعال الإنسانية بالجزاءات التي تغري بإتيانها ، وقد عرفنا كيف صنفها إلى جزاءات بدنية وسياسية واجتماعية ودينية ، وجاء « مل » فأضاف إليها جزاءاً باطنياً هو الضمير ، هذا هو الجزاء الباطني

(١) . *ibid*, 23-4

(٢) الفصل الثالث من كتابه السالف الذكر وقارن L. Stephen

. في الجزاءات عند مل . *op. cit*, Vol. III, p: 308 ff.

لأداء الواجب ، ويميز « مل » بينه وبين الجزاءات الخارجية السالفة تمييزاً دقيقاً ، فهذه تتلخص في الأمل في الرضا والخوف من الضيق والتكدر وخشية الأقران ورهبة الله ؛ أما الجزاء الباطني لأداء الواجب فهو شعور بالألم عند عصيان الواجب ، وهو شعور يقوم على تداعيات تصاحبه مرجعها إلى التشارك الوجداني والحب والخوف خاصة والوجدان الديني في مختلف صوره ، وذكريات الطفولة وسائر أحداث حياتنا الماضية ، بل مستمد من تقدير الإنسان لنفسه ورغبته في تقدير الآخرين ، بل حتى من ذلة النفس أحيانا ؛ ويصرح « مل » بأن هذا التعمد المسرف هو الذي يتأذى بالناس إلى أن يخلعوا على الإلزام الخلقى طابعا صوفيا ، قوته الملزمة تقوم في كتلة من الوجدانات لا بد من كسرها حتى يتيسر للإنسان أن يخالف المستوى الذي بمقتضاه يكون الفعل خيرا أو القول حقا .

لا يعرض « مل » لوصف خيرية الفعل أو صوابه ، بل يصف الانفعال الخالص الذي يشعر به الناس غالباً عند ما يفكرون فيما يجب عليهم أن يفعلوه ، فالفعل الخير أو الصواب عنده — كما كان عند أبيه وفي رأى بنتام — هو الفعل الذي يعتقد صاحبه أنه يؤدي إلى أسعد حالة ، إن « مل » لا يفترق عن أبيه وعن



ينتقام في وصف الفعل الخبير ، ولكنه يفترق عنهما في وصف الشعور بالإلزام الخلقى ، فإذا كانا قد كرسا اهتمامهما بالبحث في الجزاءات الخارجية التي تترى بفعل الواجب ، فإن « مل » يشير إليها إشاراتٍ مقتضبةً ثم يقف اهتمامه على الجزاء العاطفي ، إنه لا يقول كلمة واحدة ليوحى بها إلى أن الشعور بالإلزام الخلقى نتيجةٌ تنشأ عن الذكريات الماضية التي تقترن برغبات الناس الشخصية ، فإن التشارك الوجداني والحب والانفعالات الدينية كالخوف وتقدير النفس ومحوذلك تتعاون على خلق هذا الانفعال الخصب القوي الذي يعزوله الناس طابعا صوفيا .

ويحاول « مل » أن يفسر شعور الإنسان بالإلزام الخلقى الذي يحمله على التصرف طبقاً لمبدأ « أقصى سعادة » ، فيسلم بإمكان تعليم الضمير وتوجيهه إلى أي اتجاه ، ليس ثمة ما يمنع تعليم هذا الضمير بحيث يستشعر الخجل في موقف ما ، أو يرى نفسه في هذا الموقف نفسه ملزماً أخلاقياً باتباعه ، ولكنه يرى مع ذلك أن في العقل الإنساني نزوعاً طبيعياً إلى ربط الشعور بالإلزام الخلقى بالأفعال التي تؤدي بأصحابها إلى السعادة القصوى ، ويرى من ناحية أخرى أن هناك عاطفة طبيعية قوية تُقوّى ارتباط الشعور بالإلزام الخلقى بمبدأ المنفعة ، وهذه العاطفة القوية

هى الرغبة فى أن يعيش الإنسان فى وحدة مع سائر أقرانه، و بعبارة أخرى هى الفريزة الاجتماعية، ولا يفسر لنا « مل » كيف تربط الفريزة الاجتماعية بين الشعور بالإلزام الخلقى ومبدأ المنفعة، ولكنه يفترض أن هذا هو الواقع لا محالة، وأن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى إيضاح، مع أن هذا لا يبدو واضحاً على هذا النحو إلا فى نظر الذين يسلمون بالفلسفة النفعية، لأن المشتغلين بملاحظة السلوك الإنسانى لا يسهل إقناعهم بذلك، فهناك كثيرون من علماء الاجتماع يعتقدون أن الفريزة الاجتماعية — أيا ما كانت — تربط العواطف الخلقية بقواعد معينة للسلوك، وأنها مفيدة للمجتمع، ولكن هناك قلة من هؤلاء العلماء يُعرّفون المفيد بأنه الذى يُسَلِّم إلى أقصى سعادة<sup>(١)</sup>.

ههوفنة الفهسية بالسعادة :

بهذا كان مل يفسر الإلزام الخلقى ويتحدث عن الجزاء العاطفى لتعمل الواجب، فإذا علم أن إلى هذا عقب بالتدليل على

---

J. Plamenatz, *English Utilitarians* (1949), p. 138 - 140 (١)

وقارن ما كتبه عن الجزاءات بين بنتام ومل : 398-96 Machkenzie,

فى الطبعة الثالثة و Johnston op. cit., p. 146 ff. و Muirhead, op.

cit., p. 101 - 04., وقد نصح بالإطلاع فى هذا الصدد على Sidgwick,

Fowler, *Progressive Methods of Ethics*, BK. II. ch. V. وخاصة

. Morality, chs. I, II

مبدأ المنفعة على النحو الذى أسلفناه ، ثم مضى بمد هذا التبدليل  
فبين السبب الذى من أجله كانت السعادة « إحدى » غايات  
السلوك ولم تكن غاية غاياته ، فردّ هذا إلى أن الكثير من الأشياء  
— وليست السعادة وحدها — موضع رغبة من الناس فعلا ،  
لأن هذه الأشياء وسائل لتحقيق الغاية القصوى ، وهى السعادة  
التي ينشدها الناس لذاتها ، فإن النفعيين فيما يصرح مل لا يقنعون  
بوضع الفضيلة على رأس الأشياء التي تتبر خيرا من حيث هى  
وسيلة مؤدية إلى تحقيق الغاية القصوى ، ولكنهم يعترفون  
— كحقيقة سيكولوجية — بإمكان أن تكون الفضيلة عند الفرد  
خيرا في ذاتها دون نظر إلى غاية تقوم وراءها ، ويرون أن العقل  
لا يكون في وضع ملائم للمنفعة مسلم إلى سعادة المجموع إلا إذا  
أحب الفضيلة بهذا الاعتبار .

والواقع أن الفضيلة متى كانت بهذا الاعتبار موضع حب  
من الإنسان ، أضحت جزءا من سعادته ، ويفسر مل ذلك بقوله  
إنه يعتقد أن الرغبة في شيء واكتشاف أنه لاذ ، والنفور منه  
والاعتقاد بأنه أليم ، ظاهرتان لا تنفصلان ، أو هما بالأحرى  
مظهران لظاهرة واحدة ، أو هما بتعبير أدق حالتان مختلفتان  
لحقيقة واحدة ، فاعتبار الشيء مرغوبا فيه — لذاته لا من أجل

نتائجها — والتفكير فيه على أنه لاذّ ، شيء واحد .  
وخلاصة حجته يمكن إجمالها فيما يلي : لا شيء يثير لذاته  
رغبة الإنسان إلا السعادة ، ولكن بعض الأشياء — كالفضيلة —  
كانت في الأصل موضع رغبة من الناس لأنها من وسائل تحقيق  
السعادة ، ولكنها كثيراً ما تثير لذاتها رغبة في الإنسان ، بيد أن  
رغبة الإنسان في شيء لذاته ، وليس لما ينجم عنه من نتائج ،  
تشهد بأنه وجد هذا الشيء لاذاً ، ومن ثم فإن الفضيلة التي  
كانت مجرد أداة لتحقيق السعادة قد أصبحت الآن مقوّماً من  
مقوماتها ، وهي أيضاً وسيلة فعالة لها ، لأنها جزء من هذه الغاية .

عقوبة العدالة الأهمورية :

فإذا دلل مل على المنفعة على هذا النحو اختتم كتابه بفصل  
معقد عن العلاقة بين العدالة والأخلاقية<sup>(١)</sup> ، يفترض أن العدالة  
في معناها الأولى — عند اليهود مثلاً — قد أريدَ بها مطابقة  
الفعل للقانون ، أما التفرقة بين الأخلاقية والمشرعية القانونية  
فهي وليدة مجتمع أكثر تحضراً ، كاليونان والرومان في مرحلة  
متقدمة من حياتهم ، ومع أن التفرقة بين القانون والأخلاقية

---

. Mill, op. cit., ch. V. (١)

واضحة جلية في هذه الأيام ، إلا أن العلاقة بينهما لم تزل بعد قوية ، في كليهما يعتبر إزام الفرد بأداء الواجب جزءاً من هذا الواجب ، إن الواجب ضريبةٌ يطالب الإنسان بسدادها كما يطالب بسداد ديونه .

وللمدالة عند مل معنيين : يراد بها في معناها الضيق الائتمار بأوامر القانون ، وقد يراد بها أن يؤدي الإنسان كل واجباته نحو جميع الذين ينتظرون منه بحق أن يؤدي لهم خيراً ؛ ويتحدث مل عن الواجبات العامة التي لا تكون مجرد حقوق لهؤلاء الأفراد ، كواجب الإحسان الذي نطالب به حتى ولو لم يوجد فرد يستحق صدقتنا قانوناً ، وهذه الواجبات العامة تخرج من نطاق العدالة — التي يوجبها القانون — لأن المنصرين الرئيسيين في عاطفة المدالة هما الرغبة في إيقاع العقوبة بكل من سبب ضرراً ، والاعتماد بوجود فرد أو مجموعة أفراد نزل بهم الضرر ، إن عاطفة المدالة هي الشعور الطبيعي بأخذ الثأر أو القصاص من هؤلاء الذين يسببون ضرراً لنا أو للمجتمع الذي نعيش فيه ، وهذه العاطفة لا تنطوي على عنصر أخلاقي ، إن الجانب الأخلاقي فيها هو خضوعها الكامل لوجوه التعاطف أو التشارك الوجداني الاجتماعي ، لأن الشعور الطبيعي يثير استيائنا من كل من يتصرف إزاءنا

تصرفا مقلقا غير سريع ، فإذا أيده شعور اجتماعي أخلاق ، كف  
الإنسان لا محالة عن كل تصرف لا يلائم الخير العام .

إن العدالة عند مل شبيهة بالعدالة عند هيوم في بواعثها  
السيكولوجية ، ولكن مل يدين بنظرته لأراء الكسندر بين  
+ ١٩٠٣ A. Bain<sup>(١)</sup> . وليس لأراء هيوم ، ويبدو هذا المطلع  
على كتاب « بين » عن الحواس والعقل ، والفصل الذي جعل  
عنوانه « الانفعالات الأخلاقية أو الحاسة الخلقية » ومع أن مل  
يشبه هيوم من حيث اهتمامه بدور التعاطف الوجداني ، إلا أن  
هيوم يصرح بأن ليس في الإنسان انفعال قوى يمكنه من السيطرة  
على حبه لذاته وردّه عادلا ، إذا كان لحب الذات أن يُضبط ،  
فيجب أن يدور هذا الحب الأناني حول نفسه ويضع حدودا  
لنشاطه ، ويتحقق هذا عندما يفكر الإنسان قليلا ويدرك أن  
أقوى شهواته تشبع بالقهر والكبح خيرا مما تشبع بالحرية  
والانطلاق ، وحب الذات هو الباعث الأصيل الذي مهّد لقيام  
العدالة ، أما دور التعاطف فلا يبدو إلا عند ما نريد أن نفسر  
كيف تحولت العدالة إلى فضيلة ، إنه التعاطف ومصالحة المجموع

---

(١) اسكتلندي الأصل ( مثل جيمس ومل وجون ستورث مل )  
وكان أستاذ المنطق في جامعة أبردين باسكتلنده .

ها الذات يتجهان بنا إلى استحسان مزاولة العدالة ، وهذا الاستحسان هو الذى يحمل العدالة فضيلة .  
أما مل فإنه يهتم بالتعاطف الوجدانى أكثر من ذلك ، فالعدالة عنده ليست شيئاً غير طبيعى ينشأ عن التفكير فى حب الذات ، ثم يحولها التعاطف بعد إلى فضيلة ، إن العدالة تدين لهذا التعاطف بوجودها ، وليس بجلاها الخلقى فحسب ، إنها الشعور الطبيعى بالتفاصيل الذى لا يعليه العقل وحده ، بل التعاطف الوجدانى بالرغبة فى أخذ الثأر لكل من أصابته مضرة ، بهذا يربط مل فى نشأة العدالة بين وجداناتنا التى ترتد إلى الأنانية ، ومشاعرنا التى لا ترجع إلى حب الذات ، لأن دور العقل يقوم فى تعليمنا أننا بدافعنا عن الآخرين نذود عن أنفسنا ، فالعدالة ثمرة عاملين كلاهما طبيعى : غريزة المحافظة على الذات ووجدان التعاطف ، ودور العقل — أو التفكير فيما يسميه هيوم — هو أن يضىء هذين العاملين ، ويعترف بعض مؤرخيه بأن أفكاره لا تخلو من غموض<sup>(١)</sup> .

حسبنا هذا عرضاً لمذهب مل فى المنفعة العامة ، ولنعقب على هذا بكلمة تناقش فيها الأفكار الرئيسية التى انفرد بها بين

. Plamenatz, op. cit., p. 141 ff. (١)

النفعيين ، أو كان له فضل في توكيدها والتمكين لها ، وسنرجي مناقشة أسس النفعية المشتركة بين النفعيين إلى آخر الكتاب .

### مناقشة مذهبهم :

مثّل بنظام النزعة الحسية الواقعية أصدق تمثيل ، وصرفته هذه النزعة عن كل ما يمكن أن يربطه بمذهب العقليين والحدسيين ، فكان بهذا يمثل النفعية التجريبية الصحيحة ورائدها الأول ؛ ولكن الضدين كثيراً ما يلتقيان ، إن بينهما مبدأً مشتركاً يكشف عنه النظر العقلي الذي يتدبر المسائل ويكشف أسرارها، ومن هنا أمكن رفع التضاد القائم بين مذهب العقليين ومذهب الحدسيين ، ومع اختلاف المنهج الذي يصطنعه كل منهما التقت النفعية التجريبية الواقعية مَنّمة بمذهب العقليين على يد جون ستورت مل الذي كان حريصاً على أن يهدم بتجربيته مذهب العقليين والحدسيين ، والتقت هذه النفعية التجريبية مرة أخرى بمذهب الحدسيين على يد سدجويك الذي حاول واعياً إدماج للذهبيين ليستخرج منهما مذهباً واحداً على نحو ما سنعرف عندما نتحدث عن النفعية الحدسية .

أما الوحدة التي تجمع بين الضدين السالفي الذكر ، فتبدو



في أن الطبيعة البشرية عند كليهما تتأثر بالمعرفة وتستجيب لها ،  
وفي أن نقص الأفعال الإنسانية مرده إلى الفساد الذي ينشأ عن  
الشهوة ، وبالتزوي والتفكير يستطيع الإنسان أن يقدر أمورهِ  
ويحرر نفسه من هذا الفساد ، كلا المذهبين المتضادين يؤمن بقيمة  
العقل متى أعانته الإرادة على مقاومة الإذعان للقوى التلقائية  
الحيوية ، من هنا بدا طبيعياً أن تلتقي النفعية التجريبية بالزرعة  
العقلية أو الحدسية على النحو الذي أشرنا إليه <sup>(١)</sup> .

واستعراض التعديلات التي أدخلها مل على مذهب بنتام  
يشهد بصدق ما نقول ، فلنعرض موجزين لأظهر الأفكار التي  
انفرد بها مل ونعقب بمناقشتها ، مرجئين مناقشة أسس المذهب  
النفعي المشتركة بين أتباعه إلى آخر الكتاب :

لم يقنع مل بفرقة بنتام بين الذات كماً ، وفتن إلى اختلافها  
بعضها عن البعض الآخر كثيفاً ، فكانت هذه لفظة طيبة لها  
قيمتها ، وتدارك بها ما فات سابقه من اللذين ، ولكن هذه  
اللفظة التي تحسب في جانبه كانت سقطت إذا قيست بمعايير مذهبه ،  
لأن التفرقة بين « أنواع » الذات تتضمن القول بوجود مقياس  
غير اللذة يستخدم في التفرقة بين أنواعها ، إن مذهبه يقرر اللذة

---

(١) R. Le Senne, Traité de Morale Générale, p. 216

معياراً وحيداً للأفعال الإنسانية ، ومن ثم لا يكون بين اللذات خلاف إلا من ناحية السكم ، فالانتقال إلى الحديث عن كيفيةها لا يمكن أن تكون اللذة أساسه ؛ إن المذهب الذى يقوم على مصادرة ، هي أن اللذة هي الخير الوحيد ، وواضح أن اللذات بما هي لذات لا تسمح بفرقة كيفية ، لأن هذه الفرقة تتناقض مع المصادرة السالفة ، ولا تتماشى مع منطق المذهب الاستقرائى فى الأخلاق<sup>(١)</sup> .

ومن هنا قيل إن نظرة مل إلى كيفِ اللذات لا تتماشى مع منطق مذهبه الذى ، وإن كانت التجربة تشهد بصدقها ، لأن إيثار لذة على أخرى لا يكون إلا بافتراض<sup>(٢)</sup> أن خيريتها مرهونة بقيمة أو كمال موضوعى ، وإذا كان بنتام قد أقام مذهبه على أولية رياضية تقول إن كمية ما أكبر من كمية أخرى ، فإن مل قد هدم أساس النفعية الرياضى حين لجأ إلى التفرقة بين كيفِ اللذات .

وقد رد مل هذه التفرقة الكيفية إلى أهل الخبرة من ذاقوا مختلف صنوف اللذات ، فيستر لم هذا أن يقارنوا بين أنواعها ،

---

(١) M. C. Sen, Elements of Moral Philos., p. 133-5

قالقديس أوغسطين + St. Augustine ٤٣٠ أو بسكال +  
B. Pascal ١٦٦٢ أو غيرها من عاشوا في حياة الرذيلة ثم تحولوا  
بررة أطهارا ، يستطيعون بفضل تجاربهم أن يصدروا على مختلف  
أنواع اللذة أحكاما لها قيمتها ، وهم متفقون على أن أسى اللذات  
يقوم في الاستجابة لنداء الضمير والحرص على تقاضى وخرزاته ،  
وتهافت هذا الرأى يكشفه اختلاف الضمائر عند الناس ، وهو  
رأى يقره مل ، وكثيراً ما يختلف تقدير الخبراء لقيم اللذات  
والآلام ، فإذا لجأت في تقدير ذلك إلى فنان مطبوع يجمع في  
حياته بين إشباع شهواته الحسية وإشباع وجداناته الفنية الرفيعة ،  
ثم إلى قديس خبر شهوة الحس في مطلع حياته ، وذاق اللذة التي  
تقترب بطاعة الضمير في أواخر أيامه ، وحاولت أن تقف  
على رأيهما في لذة الحس ومتعة الروح لوجدتهما على خلاف  
بين ملحوظ ، فيرأى أيهما نأخذ؟ وإلى حكم من منهما نصنع؟  
إن القديس لن يتردد في الاشتماز من لذة الحس مهما كانت  
خبرته السابقة بها ، ولن يتوانى في اختيار متعة الروح وإيثارها  
على سائر اللذات ، وإلا لما كان قديسا . وقد يقدر الفنان لذة  
الحس ، ولكنه يحكم طبيعته الفنية يستفرقه الإعجاب بروائع الفن  
ويجد فيها لذة تسمو حتى على اللذة التي تقترب بطاعة الضمير ،

وهو لا يكون فنا ما لم يكن هذا نزوعه ا في الحق إن الحكم على أنواع الذات يختلف باختلاف مستوى أصحابه روحيا وثقافيا واجتماعيا وحضاريا ... ومن هنا كانت الصعوبة في التفرقة الحاسمة بين كيف الذات .

بل إن مل في التجائه إلى حكم المحرب فيصلا بين كيف الذات ، أخضع حكم الفرد القائم على خبرة شخصية لحكم إنسان آخر مستقل عن خبرة الأول ، بهذا ينتفي الحكم القائم على التجربة الفردية ، وينهض على أساس من برهان العقل ، وبذلك يخرج مل على نزعة التجريبية ويدخل في زمرة العقليين . ا

\* \* \*

أما عن موقف مل من العلاقة بين منفعة الفرد ومنفعة المجموع فقد عرفنا أنه أخضع الأولى للثانية حتى طالب الفرد بأن يسوى بين جهده في تحقيق للصحة العامة وسعيه لتحقيق مصلحته الشخصية ، ورأى أن من الثبل أن يضحي الفرد بسعادته وأحياته ابتغاء سعادة المجموع ، ولا قيام لمنفعة الشخصية إلا في حياة اجتماعية ، ولا قيام للحياة الاجتماعية إلا بالتيرية والتضحية ، وفي هذا أيضاً خرج مل على منطق مذهبه الحسى ، لأن هذا

المذهب يقوم أصلاً على المصلحة الشخصية ، ولا يعترف بغير الأناثية مقياساً للأفعال الإنسانية ، ومعياراً للأحكام الخلقية ، ومسايرة هذا المنطق تتنافى مع إخضاع المصلحة الشخصية لمصلحة المجموع ، والتجربة تشهد بأن المصلحتين لا تتفقان في كل الحالات ، وفي حالة التعارض لا يسمح منطق المذهب بإثارة الصالح العام على صالح الفرد ، فتمسككُ مل بهذا شيء تمعده له الأخلاق ، ويؤاخذة عليه النقد النزيه الذي يقتضى مل أن يكون متمسكاً في أفكاره غير متناقض مع نفسه .

وإئن كان مل قد رد للتضحية قيمتها ، إلا أنه جعلها أداة لتحقيق غاية أكبر منها ، هي تحقيق السعادة للآخرين ، قيمتها ليست في ذاتها ، وهذا تشويه للتضحية ، كما تتصورها فلسفة الأخلاق التقليدية — فيما يقول لوسين R. Le Senne .

بل إن إقامة المنفعة العامة على أساس من تداعى المعانى ، قد كانت مثاراً لنقد النقاد — من أمثال بول لومير<sup>(١)</sup> .  
Paul Lemaire — إذ رأى لومير أن التداعى الصناعى لا يكتب له الدوام ، فإشب الطفل ويأخذ عقله فى النضج حتى يكشف

---

(١) هو الذى ترجم كتاب مل فى مذهب المنفعة العامة تحت عنوان :  
De Utilitarisme مع مقدمة وتحليل وملاحظات .

افتعال هذا التداعي ، ومن ثم ينهار في ذهنه التوفيق بين المنفعة الخاصة والمنفعة العامة .

في الحق إن مل قد أقعد المذهب النفى بزعمه الواقعية الحسية ، وهدم الكثير من مقوماته ، ونحما منحى العقلين في تصوره وإن صبغنه بصبغة استقرائية ، ولم يقمه على أسس ميتافيزيقية كما يفعل العقليون ، وقد فعل هذا عن غير قصد وبدون وعى ، وتلك سقطته الكبرى التي تجمل سدجويك + ١٩٠٠ H. Sidgwick أسى منه مقاما ، فإن سدجويك قد حاول أن يزيل التعارض بين المذهب النفى بزعمه التجريبية الواقعية ، وبين مذهب العقلين والحلبيين معاً ، نهض بهذه المحاولة واعياً مدركا ، ورسم خطتها وهو يقصد إلى تحقيقها ، وسيان بعد هذا أن تكون المحاولة قد نجحت أو فشلت ، أخرجته من طائفة النفسين أو أبقته في زميرتهم .

وارتداد مل إلى مذهب العقلين مقتنعا قد مهد للنقاد أن يضع بنجام في موضع أسى ، لأنه كان أخلص لنزعة الحسية الواقعية من مل ، فسائر منطق مذهب حتى نهايته ، وإذا كان هذا قد أسخط عليه الحلبيين والعقلين ، فقد أرضى عنه الحلبيين وخفف من حكم النقد الذي يقتضى التماسك وعدم التناقض .

وقد كان حين يتحدث عن الشرور التي تعوق التمتع بالسعادة يعلق على العلم الكثير من الآمال الحسان ، ساير في هذا روح عصره الذي كان يحسن الظن بالعلم ويعتقد أن في تقدمه الخلاص من متاعب البشرية ، وإذا كان جان چاك روسو + ١٧٧٨ J. J. Rousseau قد هاجم من قبل هذه الروح وغالى في حملته حتى رد للعلم كل ما تعانیه البشرية من متاعب ، فإن القرن العشرين قد أنصف العلم في غير غلو ، إذ رأى أن سعادة الناس أو شقاءهم ليس مرهونا بنظريات العلم ، بقدر ما هو مرهون بطريقة تطبيقها ، إن نظرية تفجير القنبلة الذرية يمكن استغلالها لصالح البشرية كما يمكن أن تستخدم في تدميرها .

ولكن أكبر سقطات مل كان في تدليله على مبدأ المنفعة ، كيف وثب من منفعة الفرد إلى منفعة المجموع ؛ وكيف انتقل من التعبير عما هو كائن إلى تصوير ما ينبغي أن يكون ؛ حفلت برهنته بالمغالطات المنطقية والأخطاء السيكولوجية والأخلاقية التي جعلته مثارا لحملة شديدة من النقد ، وحسبنا أن نلخص في هذا الصدد نقده مجموعة من هؤلاء النقاد ، وسنقتبس بعض ما قاله في نقده أظهر أساتذة الفلسفة في جامعات الجزيرة البريطانية وأمريكا وأوروبا بوجه عام :

فأما عن مغالطاته المنطقية فقد كان يقول : إن البرهان الوحيد على أن الشيء مرئى هو أن الناس يرونه فعلا ... فليس هناك سبب يمكن التدايل به على أن شيئاً ما مرغوب فيه سوى أن الناس يرغبون فيه بالفعل<sup>(١)</sup>.

يقول « مكنزى »<sup>(٢)</sup> + ١٩٣٥ J. S. Mackenzie ( أستاذ الفلسفة بجامعة كارديف ) إن المناطقة قد اتخذوا الفقرة السالفة شاهداً يوضحون به مغالطة اللعب بالألفاظ ، Fallacy of figure of speech<sup>(٣)</sup> وهى نوع من السفطة يظهر فى كلمات تتشابه فى الشكل أو البناء فيفترض تشابهها فى المعنى ، ذلك أن مل قد اقترح لفظ مرغوب فيه desirable مماثلا لكلمة مرئى visible أو مسموع audible ، مع أن اللغزين الأخيرين يراد بهما « يمكن رؤيته » و « يمكن سماعه » أما مرغوب فيه فلا يراد بها عادة ما « يمكن أن يغب فيه »

---

(١) ص ١٤٨ من هذا الفصل .

(٢) فى كتابه A Manual of Ethics (1929) الطبعة السادسة

ص ١٦٩ .

(٣) يشير مكنزى فى هذا الصدد إلى Whately's Logic ص ١١٧ — ١٨ و Davis's Theory of Thought ص ٢٧٠ و Welton's Manual of Logic ج ٢ ص ٢٤٣ [ وأعادها بعد تعديل الكتاب إلى Jevon's Elementary Intermediate Logic بالاشتراك مع Monahan ] و lessons on logic ص ١٧٥ .



فما من شيء إلا ويمكن أن يرغب فيه الإنسان؛ إن ما يراد في العادة بهذا التعبير هو « ما ينبغي أن يرغب فيه الإنسان ». فإذا قال اللذيون إن اللذة هي الشيء الوحيد المرغوب فيه ، قصدوا بهذا التعبير أنها الشيء الوحيد الذي ينبغي أن نرغب فيه ، ولكن بناء الكلمة desirable قد ضلل الكثيرين من المفكرين حتى ظنوا أن المراد بالتعبير هو أن اللذة هي الشيء الذي يمكن أن يرغب فيه الناس ، وبهذا خلط هؤلاء بين مذهب اللذة الخلقى الذي يقرر أن الناس ينبغي أن ينشدوا اللذة ، وبين مذهب اللذة السيكولوجي الذي يقرر أن الناس بالفعل ينشدون بطبيعتهم تحقيق لذاتهم ، وهكذا نشأ الخلط بين المذهبين — عند مل وغيره — نتيجةً لغموض التعبير « مرغوب فيه » — فيما يلاحظ « سدجويك » .

ولاحظ « جون ديوى » + ١٩٥٢ J. Dewey ( أستاذ الفلسفة في جامعة كاليفورنيا ) و « جيمس تفتس » J. Tufts ( أستاذ الفلسفة الحالى بجامعة شيكاغو )<sup>(١)</sup> أن حجة مل السالفة الذكر وفهمه للمرغوب فيه ، شبيهة بحجة Bain لأن هذا يقول

---

(١) في كتابهما Ethics (1936) في الشطر الثانى ف ١١ ص ٢٠٥

بدوره : ليس ثمة برهان يمكن التذليل به على أن السعادة هي الغاية المناسبة لكل نشاط إنساني ... إنها الفرض الأقصى أو الأخير الذي يمكن اختبار صحته بالقياس إلى ما يصدره الجنس البشري من أحكام فردية ؛ ثم يشير المؤلفان إلى برهان مل وإلى النموض الذي يلابس التعبير ، قائلين إن السعادة يمكن أن تكون خيراً ، ولكن السعادة واللذة ليستا شيئاً واحداً ، ثم المقطع الأخير *able* يحمل معنيين يختلفان باختلاف الكلمات التي تنتهي به ، فقد يدل على ما يمكن رؤيته في لفظ *visible* ونحوها ، أو على ما يجب — في نظر المحايد — أن يرغب فيه الإنسان كما نلاحظ في التعبيرات : « ما يجب أن يتمتع به أو يحبه أو يرغب فيه الإنسان » *enjoyable, lovable, desirable* ونحو ذلك ، ومن هنا كان الفرق بين *enjoyed* به *enjoyed* وما يجب أن يتمتع به الإنسان *enjoyable* ، ومثل هذا يقال فيما يشبه هاتين الكلمتين من ألقاظ .

ويقول مل بعد النص السالف : ليس هناك من سبب يمكن التذليل به على أن سعادة المجموع شيء مرغوب فيه سوى أن كل فرد يرغب فعلاً في سعادته الشخصية ... (١) . ويطبق

(١) ص ١٤٩ من هذا الفصل .

« مكزى » على هذا بقوله : قد يكون من الصير أن نجد من اللغات الكثيرة في فقرة قصيرة في أى كتاب ما نجده منها في هذه الفقرة ، ففي قول « مل » إن سعادة المجموع خيرٌ لمجموع أفراده مغالطة تُعرف في المنطق باسم « مغالطة غموض التركيب » Fallacy of composition لأن مل يعتبر سعادة المجموع مجموع سادات أفراده ، أى طالما كانت لذاتى خيراً لى ، ولذاتك خيراً لك ، ولذاتك خيراً له ... وهلم جرا ، كانت لذاتى مضافة إلى لذاتك ولذاتك خيراً لى ولك وله مجتمعين ! ولم يفتن مل إلى أن أنواع الذات لا يمكن جمعها كما تجمع أفراد الناس . وشبهه برأى مل في هذا الصدد أن تقول إن الفرقة التى تتألف من مائة جندى طول كل منهم سعة أقدام ، لا بد أن يكون طول هذه الفرقة ستائة قدم ... ا وكان يمكن أن يكون هذا صحيحاً لو وقف كل جندى فوق رأس جندى آخر ... ا أى أن حجة مل السالفة الذكر كان يمكن أن تكون صحيحة لو أن عقول الناس جميعاً أمكن أن يندمج بعضها في بعض وتصبح مجموعاً عقلياً واحداً ، ولكن « مجموع » الأفراد ليس فرداً ، ومن ثم لا تكون لذاتك لذات لى فرد آخر ، والخير لا يكون إلا خيراً للإنسان بعينه — فيما يلاحظ « برادلى » + ١٩٢٤ F. H. Bradley في كتابه « دراسات أخلاقية » .

ويعرض «مويرهد»<sup>(١)</sup> المولود عام ١٨٥٥ J.H. Muirhead (الذي كان أستاذ الفلسفة بجامعة برمنجهام) لمناقشة هذا النص نفسه ، ويضيف تشبيهاً استعاره من «كارلايل» فيقول : إن كلام مل شبيه بقول القائل : إن كل خنزير يريد أن يحصل لنفسه على أكبر مقدار من كمية محدودة من غسالة الخنازير ، إذن فكل خنزير يرغب في الحصول على أكبر مقدار من هذه الغسالة لخنزير غيره أو لم جميعاً ... ! ويعقب «مويرهد» بالإشارة إلى النفعيين الذين ضاقوا بهذه الحجة فتمنعوا بالقول بأن اللذة الفردية مطلب كل إنسان ، ولكن العقل يوجب على صاحبه أن ينشد السعادة للآخرين ... وإن كان «مويرهد» لا يدري ما هذا العقل ؟ ولماذا يكون من واجب الإنسان أن يستجيب لندائه ؟ وواضح أن السؤال موجهٌ إلى «سدجويك» ومن جرى مجراه .

وذلك لأن سدجويك + ١٩٠٠ H. Sidgwick (الذي كان أستاذ الفلسفة الخلقية بجامعة كامبردج) عند ما عرض لنقد مل في هذا الصدد<sup>(٢)</sup> ، أشار إلى المغالطة التي تضمنها التعبير «بالمغروب

(١) في كتابه Elements of Ethics طبعة ثانية ك ٣ ف ١

ص ١١٢ — ١٣ .

(٢) Methods of Ethics (1922) ك ٣ ف ١٣ ص ٣٨٧ — ٨٩

فيه « على النحو الذى أسلفناه ، ثم عقب بمناقشة مل فى انتقاله من صالح الفرد إلى صالح المجتمع ، فقال إن مجموع الرغبات الفعلية والتي يتجه كل منها إلى تحقيق جانب من سعادة المجتمع ، ليس معناه وجود رغبة فعلية عند إنسان بعينه لتحقيق السعادة لهذا المجتمع ، وما من شك عند « سدجويك » فى أن مل لا يفتزع فى أن الرغبة التي لا وجود لها عند فردٍ ما يمكن أن توجد عند جملة أفراد مجتمعين ، وما لم توجد — عند الفرد — رغبة فعلية لتحقيق سعادة المجموع فإن القضية التي تقول « إن سعادة المجموع مرغوبٌ فيها » قضيةٌ متداعية لا يستقيم أسرها على النحو الذى أراده مل ، ومن هذا تظهر بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع فجوةٌ لا يمكن تفاديها إلا بالاتجاه إلى الحدس العقلى الذى سنعرض لتفسيره عند ما نتحدث عن مذهب النفعية الحدسية عند « سدجويك » .

ويشير « داركنى »<sup>(١)</sup> C. F. D'Arcy ( عميد جامعة بلفاست ) إلى مغالطة غموض التركيب فى حجة المنطيق « مل » ويقول إذا كان كل إنسان ينشد لذته الخاصة لما ترتب على هذا أن يلتبس هذه اللذة لكل إنسان آخر ، بل الأخرى أن يقال

---

(١) فى كتابه A Short Study of Ethics طبعة ثانية فى الشطر

إن أسباب اللذة محدودة ، ومن ثم فإن كل فرد يريد أن يحصل منها لنفسه أكبر قدر ممكن ، وألا يترك منها للآخرين شيئاً .

ثم يضيف إلى هذا تعليقا من « كانت » + ١٨٠٤ Kant .  
على حجة مل خلاصته : أن من الغريب أن قوما أذكيا أمكن أن يظنوا أن الرغبة في السعادة قانون عملي عام على أساس أن هذه الرغبة عامة في الناس جميعا ، ومن ثم كانت هذه الرغبة هي القاعدة التي بمقتضاها يحدد كل فرد أفعاله الإرادية وبينما نجد في بعض الحالات أن قانون الطبيعة العام يحمل كل شيء متناسقا متوافقا ، إذ بنا نرى على العكس في حالة هؤلاء المفكرين أننا إذا جعلنا لهذه القاعدة عمومية القانون نتج عكس الاتساق أو الانسجام السالف تماما ، ومن ثم تهدم القاعدة نفسها وتحطم غرضها وبهذه الطريقة ينشأ نوع من الانسجام أو التوافق الذي يصوره الشاعر ساخراً في حياة زوجين يميلان إلى الملاك معا فيقول : ما أروعه من انسجام ، إن ما يريد الزوج تريده زوجته ! أو كما قيل عن كافلة فرنسيس الأول للإمبراطور شارل الخامس : إن ما يريد أخى شارل أريده أنا كذلك ! ثم يعقب « داركي » على هذا بالحديث عن سدجويك وكيفية تفاديه لهذه الورطة التي وقع فيها مل .

ومن كبار الفلاسفة الذين اشتروا في الحجة على « مل »

من أجل فقرته السالفة : « مور » المولود عام ١٨٧٣ G. E. Moore

(١) كان منذ عام ١٩٢٥ أستاذ الفلسفة بجامعة كامبردج<sup>(١)</sup> وبرتند رسل المولود عام ١٨٧٢ Bertrand Russell (كامبردج)<sup>(٢)</sup> وشليك + M. Schlick ١٩٣٦ منشئ ندوة فينا التي أنشأت مذهب الوضعية المنطقية<sup>(٣)</sup> والكتاب الذي أرخ للنفعيين من الإنجليز على نحو ما عرفنا من قبل «بلامناتز» J. Plamenatz<sup>(٤)</sup> وغير هؤلاء كثيرون .

بهذا وبغيره كانت حملة علماء المنطق وفلاسفة الأخلاق على تهافت مل في حججه السالفة التي انتقل فيها من مذهب اللذة السيكولوجي إلى مذهب اللذة الأخلاقي — من غير أن يفرق بين المرغوب فيه فعلاً وما ينبغي أن يرغب فيه الإنسان ، هذه الحجة التي عرّب فيها أيضاً من صالح الفرد إلى صالح المجموع ، ووجد بين طلب الإنسان لسعادته والتماسه سعادة الآخرين .  
وحسبنا أن نشير إلى أن التوفيق بين الفرد ومصلحة المجموع كان مشاراً اهتمام الكثيرين من المفكرين ، ولم ينفرد به النفعيين

---

(١) في كتابه Principia Ethica (1908) ص ٦٦ وما بعدها .

(٢) في كتابه Hist. of Western Philosophy, (1948) ص ٨٠٦ .

(٣) في كتابه Problems of Ethics (Rynim, transl. (1989) ف ١

ص ١٨ — ١٩ .

(٤) في كتابه The English Utilitarians طبعة أولى (١٩٤٩)

ص ١٤٠ — ٤١ .

وخدم ، وقد انتهى أتباع مذهب التطور إلى أن الإنسانية ستصل في يوم ما إلى حالة ينتفي فيها التعارض بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ، بقيام توافق وانسجام بين مطالب الفرد ومطالب المجتمع الذي يعيش فيه ، وسيتكفل قانون بقاء الأصالح بإزالة النزاع بين مطالب كل منهما ؛ وسنزيد هذا بياناً في الفصل الذي نعقده على النفعية التطورية في الباب التالي ؛ وإلى ما يشبه هذا ذهب هاتشيسون + ١٧٤٦ من أتباع الحاسة الخلقية ، وأكد آدم سميث + ١٧٩٠ أن الإنسان بفطرته ينزع إلى مشاركة الآخرين أحزانهم ومسراتهم ... وإلى ما يقرب من هذا المعنى ذهب الكثيرون من المفكرين ؛ فحسبنا ما أسلفنا في بيان تهافت النفعية في هذا الصدد ، فإن آراء النقاد السالفة لم تدع مجالاً للاستزيد .

بهذا نكتفي إبانةً عن ملاحظتنا على الأفكار التي انفرد بها « مل » في مذهبه النفعي ، وسنعود فيما بعد لمناقشة الأسس المشتركة بين النفعيين بوجه عام ، عسى أن نتبين مدى التهافت في اعتبار اللذة أو المنفعة غاية السلوك الإنساني ومقيار الأحكام الخلقية ، وهذا نضع النفعية في مكانها بين سائر المذاهب ، فيتيسر فهمها في ضوء التراث العقلي الذي عُرف في مجالها وكان تأييداً لها أو دحضاً لمقوماتها .



# الباب الثالث

صَوْرٌ من النفعية الحديثة

---

الفصل الأول : النفعية اللاهوتية

الفصل الثاني : النفعية التطورية

الفصل الثالث : النفعية الحديثة

الفصل الرابع : النفعية العملية (البرجماتية)



## الباب الثالث

### صور من النفعية الحديثة

مهدنا في الباب الأول بالحديث عن مقدمات النفعية عامة ، ومذهب اللذة الأناني بوجه خاص ، وعقبنا في الباب السالف بدراسة النفعية الأصيلة في صورتها التجريبية كما بدت عند أشهر أعلامها ؛ ونريد في هذا الباب أن نرى كيف تفلتت النفعية في مجالات من التفكير ليست نفعية في طبيعتها ، وغزت بإسقاطها أرضاً ليست من تربتها ، ولم تقنع بمزاولة نشاطها في حدود الأخلاق والتشريع — على النحو الذي رأيناه في النفعية التجريبية في الباب السالف .

ويتألف هذا الباب من خمسة فصول ، نعرض في أولها للنفعية وقد غزت المجال الديني على يد جون جاي ووليم باليه ، وتحدث في ثانيها عن النفعية العلمية وقد اتصلت بمذهب التطور على يد هربرت سبنسر وليسلي ستيفن ، وتقتبع في ثالثها هذه النفعية وقد اتصلت بمذاهب الحدسيين والمقلين على يد هنري

سدجويك ، ونساير في رابعها فكرة النفعية وهي تنزو مجال الحياة العملية — هكذا بدت عند أتباع البرجماتزم من الفلاسفة الأمريكيين من أمثال وليم جيمس وجون ديوى .  
ونعرض في خامسها النفعية في القرن العشرين ، فنتحدث في إيجاز عن أهم تياراتها وأظهر آثارها<sup>(١)</sup> .

وإذا اتهينا من هذا الباب عقبنا بفصل ختامى نفتح به بكلمة عن مصير النفعية في أيامنا الحاضرة ، ثم نعقب بوضع النفعية في الميزان ، نعرض ما لها وما عليها ، ونعرف مكانها بين مذاهب الفلسفة الخلقية بوجه عام ، عسى أن نرى من هذا مواطن القوة ومواضع الضعف في مقومات : النفعية .

---

(١) في ص ١٩١ سقطت الإشارة إلى الفصل الخامس في هذا الباب  
فأثرنا التنويه .

# الفصل الأول

## النفعية اللاهوتية

(جاي وباليه)

مذهب جون جاي — مذهب وليم باليه — تعقيب

نعرض في هذا الفصل القصير إلى علمين من أعلام النفعية اللاهوتية ، عاشا في القرن الثامن عشر فسبقا أعلام النفعية التجريبية الأصلية ، ولكننا آثرنا إرجاء الحديث عنهما إلى هذا الباب الذي أفردناه لتزوات الفكرة النفعية لمختلف مجالات التفكير ، وسنرى الآن كيف اتصلت النفعية بالدين عند بعض علماء اللاهوت .

مذهب جون جاي ( ١٦٦٩ — ١٧٤٥ ) :

يذكر مؤرخو النفعية رائداً من روادها الأول ، قيل إنه صاحب الفضل في وضع أول صيغة محددة للمذهب النفعي<sup>(١)</sup> ، أرسلها في بحث صغير من ثلاثين صفحة ، فتأثرت بهذه الصيغة مدرسة النفعيين من الإنجليز ، وعلى هديه جرى أتباع النفعية

(١) تارن س ٩٠ من هذا الكتاب .

اللاهوتية جميعاً ، ذلك هو جون جاي<sup>(١)</sup> J. Gay في مقدمته المعروفة في تاريخ النفعية<sup>(٢)</sup> . وليست نظريات النفعيين من اللاهوتيين إلا تبسيطاً لما أجله جاي في بحثه القصير .

عرض « جاي » في بحثه السالف إلى مقياس الفضيلة ، أى إلى المستوى الذى تقاس به خيرية الأفعال وشريتها ، وتحدث عن « الباعث » على الأفعال الإنسانية ومكانه من الحياة الأخلاقية ، وتناول نظرية تداعى المعانى التى أقام على أساسها مذهبه فى الأخلاق ؛ رد مقياس الخيرية والشرية إلى إرادة الله ، والله يريد لا محالة أن يحقق السعادة للناس ، ومن أجل هذا كانت السعادة مقياس إرادة الله ، وليست السعادة إلا مقسداً من الذات ؛ والباعث على الفعل الإرادى عنده يرتد فى الأصل إلى الأنانية ، لأن رغبات الفرد تلتقى عند الأمل فى تحقيق اللذة ، من هنا واجه « جاي » المشكلة التى صادفها النفعيون من بعده ، وهى ضرورة البرهنة على اتفاق المصلحة الشخصية مع مصلحة المجموع ؛ إن كل فرد ينشد لذته ، فكيف اتفق أن ينشد — مع هذا — تحقيق اللذة لغيره من الناس ؟ وقدّم « جاي » لحل هذا الإشكال

(١) عاصره شاعر وقصاص يحمل نفس الاسم .

(٢) Preliminary Dissertation : Concerning the Fundamental Principle of Virtue or Morality

نظريته في الجزاءات ، وهي عنده أربعة صنف (٣) ، طبيعية واجتماعية وقانونية ودينية ، ولكنه لاحظ أن ليس من بينها ما يضمن اتفاق مصلحة الفرد مع مصلحة المجموع إلا الجزاء الديني — الجنة والنار يوم الحساب — من هنا كان اهتمامه بهذا الجزاء ، وتبعه في هذا براون وتكر وباليه وغيرهم من دعاة المنفعة بين علماء اللاهوت ؛ رد هؤلاء الباحث على إتيان الأفعال الإنسانية إلى الأثرة ، وانتهوا بهذا الجزاء الإلهي إلى التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ؛ الأنانية مصدر أفعالنا والأواسر الخلقية مشروطة وليست مطلقة ، ذلك لأنها وسيلة إلى تحقيق سعادة الفرد ، ومن أجل هذا رأى « جاي » أن الإلزام الخلقى الذى يوجب على الإنسان التزام الفضيلة مرجعه إلى الله وحده ، إنه وحده القادر على أن يلائم بين سعادة الفرد وسعادة المجموع ، وفي الجزاءات الدينية من ثواب وعقاب ما يكفل تحقيق ذلك .

عرض « جاي » في الشطر الأخير من بحثه القصير إلى علاقة الأخلاق بعلم النفس ، فوجد أن الأسس السيكولوجية للأخلاق سردها إلى تداعى المعانى (٢) ، فقد يرغب الإنسان عن

---

(١) فارتن ما ذكرناه عن الجزاءات عند بقنام في الفصل الأول من الباب السالف (ص ١١٤) .

(٢) كان لبحثه القصير في هذا الصدد أثره في مؤسس مذهب التداعى في علم النفس دافيد هارتلى D. Hartley .

طريق هذا التداعي في تحقيق أمانى ليست هي اللذة الفردية ،  
تقدم هذه الأمانى غاياتٍ قريبةً بينما تقدم اللذة غايةً قصوى تنتهى  
عندها سلسلة الأمانى والرغبات ، وبهذه الطريقة تترقى الرغبة  
الغيرية ، ولا يكون الباعث في كل الحالات أنانياً خالصاً ،  
فمنذ ما يتقدم إنسان لمساعدة آخر في محنة ، يكون باعته المباشر  
هو الرحمة ، ولا عبرة بأن يقال إن غايته القصوى في نهاية الأمر  
أن يحقق لنفسه لذةً أو منفعة .

في هذا البحث القصير استقرت أصول النفعية اللاهوتية ،  
ولم يطرأ عليها تعديل جوهري حتى ظهر جون ستورت مل<sup>(١)</sup> .  
حسبنا هذا عن « جاى » مؤسس النفعية اللاهوتية ، وقد  
جرى على هديه طائفة من المفكرين اللاهوتيين اعتنقوا مذهبه  
وتوسعوا في شرح أصوله وإشاعته بين الناس ، من غير أن  
يضيفوا إليه شيئاً جوهرياً ؛ نشر براون J. Brown بعد بحث  
« جاى » السالف الذكر بعشرين عاماً كتابه *Essays on the*  
*Characteristics of the Earl of Shaftesbury (1751)*  
وقد أثنى على هذه المقالات جون ستورت مل ؛ ثم نشر « تسكر »  
A. Tucker الأجزاء الأربعة الأولى من كتابه « نور الطبيعة »

---

(١) Encyc. of Religion & Ethics, art. Utilitarianism



The Light of Nature عام ١٧٦٨ (تحت عنوان Edward Search) ثم تلها ثلاثة أجزاء أخرى نشرت بعد وفاته ؛ وقد أنكر « تكرر » الفارقة الكيفية بين الذات - وهو رأى متضمن في مذهب جاي وغيره - ورفض حساب الذات ورأى وضع قواعد عامة لتحقيق النافع - وفي هذا تابعه باليه .

مذهب وليم باليه ١٧٤٣ - ١٨٠٥ :

في عام ١٧٨٥ نشر وليم باليه W. Paley كتابه في « مبادئ الأخلاق والفلسفة السياسية » Principles of Morals and Political Philosophy وقد فصل فيه مذهب المنفعة اللاهوتي ، واعترف بفضل سابقه عليه ، واقتصرت مهمة هؤلاء جميعا على تبسيط ما أجمله « جاي » وإشاعته بين الجماهير على نحو ما أشرنا من قبل ؛ وإيضاحا لهذا المذهب آثرنا أن نقف عنده قليلا :

استطارت شهرة باليه قبل أن يعرف مؤسس النفعية الحقيقية « بنتام » وكان تأثيره في حياته واسع النطاق ، دافع عن النفعية في كتابه السالف الذكر « مبادئ الأخلاق والفلسفة السياسية »

الذى طبع عدة مرات ، وقرّر على الطلبة في جامعة « كامبردج »  
بضع سنين<sup>(١)</sup> وتكفلت كثرة مؤلفاته — في اللاهوت خاصة —  
بإشاعة نظريته في كثير من الأوساط ؛ ومجمل الرأي عنده أن الناس  
تستغرقهم أنانية موهلة ، ولكن الله ألطف بعباده من أن  
يتغلى عن نصرتهم ، فهو يعمل على تخفيف آلامهم وترقية  
سعادتهم ، من هنا كان الله في نظره نفعيا !

ويعتبر بإياله تليذ « هوبز » من حيث اعتناقه لمذهب اللذة  
الفردية ، ولكن بنقام وجيمس مل كانا من دعاة هذا المذهب ،  
ومع ذلك فهما من أتباع مذهب المنفعة العامة ، وكان لا بد أن  
تواجهه مشكلة التوفيق بين سعادة الفرد وسعادة المجموع — كما  
واجهت غيره من النفسيين — فسام بإياله بنصيبه في هذه المحاولة ،  
ولكن الأخلاقية عنده تترد إلى الأنانية ، والإحسان إلى الغير  
مرجعه في نظره إلى الهوى ، ومن هنا كان ضعف محاولته ،  
فلتقف عندها قليلا :

إن الله هو الذى يوفق بين الأثرة والإيثار ، إن الإنسان  
لا يعمل إلا لإشباع أنانيته ، وكل رغبته موجهة إلى تحقيق

---

(١) أما بنقام فكان في جامعة أكسفورد وإن كان تلامذته من  
جامعة لندن ، ونفر مدخله بعد نفر مبادئ إياله ببضع سنين . ( انظر  
ص ٩٦ من هذا الكتاب ) .

سعادته الشخصية ، وهو لا يأتي عملاً يحقق به سعادة الغير إلا متى كان في هذا تحقيق لسعادته ، أما الله فإنه يحقق أكبر قسط من السعادة لأكثر عدد من الناس ، وهو وحده أصدق ممثل للنفعية في الوجود ، لأنه يعمل على تحقيق السعادة للناس لذاتها ، لا يريد من وراء ذلك جزاء ولا شكوراً ، إن تحقيق « أكبر قسط من السعادة لأكثر عدد من الناس » لذاته وبصرف النظر عن نتائجها ، موضع رغبة من كائن واحد اتفق أن يكون على كل شيء قديراً ، ومن ثم كان في وسعه أن يدبر ذلك في غير مشقة ، أما مخلوقاته فإنها ترغب في تحقيق أكبر قسط من السعادة لأكثر عدد من الناس كوسيلة يلتمسون بها الخلاص .

يقول في كتابه السالف الذكر : إن علم الأخلاق يعلمنا واجباتنا ومبررات أفعالنا ، وحين لاحظ الناس أن سلوك الآخرين نافع لهم ، استصوبوا هذا النوع من السلوك ، ثم حاولوا اتباعه مع بقاء مصلحتهم الشخصية قائمة في نفوسهم ، فالنافع معناه المفضى إلى السعادة ، وليست السعادة إلا زيادة اللذة على الألم ، واللذات لا يختلف بعضها عن البعض إلا في مدى الاستمرار وبلغ العمق ، ومن هنا نرى أن الإنسان وإن كان قد نزع في أول أمره إلى تحقيق سعادته ، فإن هذا النزوع عنده لا يستبعد

إمكان استصوابه بعد ذلك للفعل الذى يحقق سعادة الآخرين ،  
وفى هذا كان « باليه » نفعيا مخلصا .

ولكنه يمزج هذه النفعية بنزعاته الدينية فيقول إن الفضيلة  
هى « فسل الخير للبشرية طاعة لإرادة الله وابتغاء السعادة  
السرمدية » ولكن لماذا نطالب بالتزام الفضيلة؟ يُبازِمنا بهذا  
باعث قوى هو توقع الجزاء الأخرى الذى وعد الله به المتقين ،  
إن سعادتنا الشخصية هى الباعث على تقيدنا بالفضيلة ، وإرادة  
الله هى القاعدة التى بمقتضاها نكون فضلاء ، ومن حظ الإنسان  
أنه عاش — وهو الأنانى الذى لا أمل فى شفائه من أنايته —  
عاش فى عالم فيه كل ما يثير مخاوفه ، وفيه كل ما يُنال من إله  
منعم قوى عادل .

ويبدو « باليه » نفعيا مخلصا فى نقده لفكرة العقد الاجتماعى  
والحقوق الطبيعية ، وفى ضوء مبادئه النفعية يؤكد نظام الحياة  
النيابية الذى كان قائما قبل مرسوم الإصلاح العظيم ، وقوانين  
المقوبات القديمة التى كانت تقضى فى إنجلترا بشنق سارق العزة  
على نحو ما يُشنى القاتل ، ويرى أن التفاوت فى الثروة من صالح  
المجتمع ، وأن الاستقرار الدينى أمر مرغوب فيه .

لعلنا نستطيع أن نستخلص مما أسلفنا وجوه الشبه والخلاف

بينه وبين بنتام ، يبدو التشابه بينهما في المبادئ النظرية ، وإن كان بنتام لا يتحدث عن الله ، ويرى أن « أكبر قسط من السعادة لأكثر عدد من الناس » مرغوب فيه لذاته لا لأن كائناً قويا يريد ذلك ، أما في المسائل العملية فيبدو بينهما خلاف ، ولعل مرجع هذا إلى أن « باليه » كان رجل دين ، ولو أنه كان ملحداً ، بل حتى لو كان نفعياً خالصاً وليس لذبياً أنانياً ، لوصل إلى نفس النتائج التي وصل إليها بنتام<sup>(١)</sup> .

حسبنا هذه الإمامة الموجزة عن « باليه » ممثلاً للاتجاه الديني في المذهب النفعي ، إن قيمته وقيمة سلفه « جاي » تقوم في أنهما سبقا النفعيين في محاولة التوفيق بين المصلحة الفردية والمصلحة العامة ، وأضافا نعيم الآخرة إلى لذات الدنيا ، وصوّرا الله ممثلاً للنفعية العامة في أكمل صورها ، فصبغنا المذهب النفعي بصبغة لاهوتية خالصة ، تجرد منها على يد بنتام ومل — كما عرفنا من قبل .

تعقيب :

ليست النفعية اللاهوتية بوجه عام إلا تعقيداً لحساب الذات وتقويمها ، فقد أضاف أصحابها إلى الذات الدنيوية لذاتٍ أُخْرَوِيَّة ،

(١) تارن Plamenatz, p. 51 ff وكذلك W. Paley's Principles of Moral and Political Philosophy.

فجملوا التعميم الذى الدقيق أكثر عسراً ؛ وقد حلّ للذهب كل ما صادفه من إشكالات بالارتداد إلى الله ، مع أن الله فى المسيحية الأرثوذكسية التى دان بها هؤلاء المفكرون يبدو — فيما يلوح لنا — أسمى من أن يكون نفعياً بالمعنى المتبدل الذى أراده النفعيون . أما عن التوفيق بين المنفعة الفردية والمنفعة العامة ، فيبدو لى أن الله كما صورّه الإنجيل هو الذى يقوم بهذا التوفيق ، يقول المسيح فى عظّمته لحوارييه على الجبل : « سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيك ، صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم لئى تكونوا أبناء أبى الذى فى السموات ، فإنه يشرق شمس على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين ، لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم ؟ أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك ؟ فكونوا أنتم الكاملين كما أن أبائكم الذى فى السموات هو الكامل » (١) .

ولكن بقى أن نسأل بعد هذا : كيف يستطيع الإنسان مع طبيعته التى صورها أنانية خالصة أن يلمس مصلحة الخاصة ويطلب مع هذا مصلحة المجموع ؟ إن الجزاء الدينى وحده لا يكفى ، ويبدو لنا أن من التفت أن تتصور الطبيعة البشرية

---

(١) الإصحاح الخامس من إنجيل متى .

أنايئة خالصة موهلة ، حتى إذا عرضنا إلى تفسير النورية في أفعال الإنسان بحثنا عن أسبابها خارج طبيعة الإنسان ! إن الطبيعة البشرية في رأينا أرحب من أن تكون مجرد أثر موهلة ، إنها تجمع بين الأثرة والإيثار ، وتمزج فيها نزعات الأنايئة بنزعات النورية ، من هنا يتيسر التوفيق بين التماس المصلحة الفردية وطلب المصلحة العامة ، ولا حاجة بنا بعد هذا إلى تفسير يخرجننا عن حدود الطبيعة البشرية نفسها

وقد ردَّ هؤلاء النفعيون من اللاهوتيين مقياس الخيرية إلى إرادة الله ، فشابهوا بهذا علماء اللاهوت من المدرسين — أمثال جرسون ودانز سكوت ووليام أوكام وأهل السلف في الإسلام ، وناهضهم أفلاطونيو كامبردج وغيرهم ممن ردوا الأخلاقية إلى طبيعة الأفعال ، وجعلوا الإلزام الخلقى باطنياً ينبع من ذات الإنسان ، ولا يُملَى عليها من خارج<sup>(١)</sup> ، وبذلك تنتفي فكرة الجزاءات الخارجية ، على اعتبار أن الفضيلة تحمّل في باطنها جزاءها ، وتتضمن في طبيعتها ما يبرر مزاوتها .

(١) انظر توفيق الطويل في كتابه أسس الفلسفة ص ٢٢٠ وما

# الفصل الثانی

## النفعية التطورية

هربرت سبنسر ( ۱۸۲۰ - ۱۹۰۳ )

- الجو العلمی الذی ظهرت فیہ النفعية التطورية —
- موازنة بین النفعية التقليدية والنفعية التطورية —
- مذهب هربرت سبنسر — النفعية التطورية في
- المیزان — مناقشة مذهب سبنسر .

الجو العلمی الذی ظهرت فیہ النفعية التطورية :

في النصف الثاني من القرن الماضي كانت انجلترا تغلى  
بالتفكير العلمی التجريبي — وإن كانت قد عرفت اتجاه الحدسيين  
والعقليين — وفي الوقت الذی نشر فيه جون ستورت مل  
+ ۱۸۷۳ رسالته عن « مذهب المنفعة العامة » عام ۱۸۶۱ ،  
وبشر فيها بالنفعية التجريبية على النحو الذی أوضحناه في الفصل  
الثاني من الباب السالف ، طلع دارون + ۱۸۸۲ C. Darwin  
على العالم بنظريته في التطور ، إذ نشر عام ۱۸۵۹ الجزء الأول



من كتابه « أصل الأنواع »<sup>(١)</sup> بشرى نظريته برّد النشوء الآلى إلى التنازع على البقاء وبقاء الأصلى وأثر الوراثة؛ واعتنى هربرت سينسر + ١٩٠٣ نظرية التطور وأخذ فى تطبيقها على مختلف مجالات المعرفة البشرية وفى مقدمتها الأخلاق، فبشر بالنعمية التطورية ( العملية ) فى كتابه « مجال علم الأخلاق » The Data of Ethics الذى نشره مستقلا لأول مرة عام ١٨٧٩ ثم عام ١٨٧٩ ثم عاد فجعله الشطر الأول من الجزء الأول من كتابه « مبادئ علم الأخلاق » Principles of Ethics الذى نشره بين عامى ١٨٩٢ و ٩٣، وإن كان قد عالج الأخلاق قبل ذلك فى كتابه Social Statics الذى صدر عام ١٨٥١ ( أى قبل ظهور كتاب دارون فى أصل الأنواع بثمانية أعوام )؛ وفى ضوء هذا الاتجاه العلمى بشر بالنعمية التطورية السير ليسلى ستيفن + ١٩٠٤ L. Stephen فى كتابه « علم الأخلاق » Science of Ethics الذى صدر عام ١٨٨٢ فى نفس العام الذى مات فيه دارون<sup>(٢)</sup>.

---

(١) فى يولي من عام ١٨٥٨ قرأ أمام « جامعة لينبوس » بلندن مقالا له ومقالا كتبه والاس A.R. Wallace وبمراءة هذين المقالين نشأت نظرية النشوء بالانتخاب الطبيعى ( فارن : توفيق الطويل فى كتابه : النزاع بين الدين والفلسفة س ٢٣٨ وما بعدها ) .

(٢) عرفت انجلترا فى ذلك الوقت حركة مثالية جديدة، ولييان هذا =

بدأت النفعية التجريبية (التقليدية) عند يتنام ومل سطحياً  
حجة في نظر أتباع التطور من مفكرى ذلك العصر ، فأرادوا أن  
يستبدلوا بها مذهباً علمياً في النفعية يقوم على نظرية التطور التي  
كانت أحدث وأقوى فتوحات العلم الطبيعي في ذلك الوقت ،  
ولتوكيد الخلاف بين هذين المذهبين النفعيين صرح سبنسر بأن  
النفعية التي يدعو إليها نفعية عقلية تضاد النفعية التجريبية  
التقليدية ، واستيفاء لبيان هذا الخلاف نقف عند الموازنة بين  
هذين المذهبين قليلاً :

#### موازنة بين النفعية التقليدية والنفعية التطورية :

اعتنق النفعية في أواخر القرن الماضى طائفة من دعاة نظرية  
التطور البيولوجى على نحو ما أشرنا منذ حين ، وعلى يد هؤلاء  
أخذ المذهب النفعى طابعاً جديداً ، لم تختلف النفعية التطورية  
الجديدة عن النفعية الأصيلة في تصور الغاية التي يهدف إليها  
سلوك الإنسان ، ولا فهم المستوى الذي تقاس به خيرية الأفعال  
وشريتها ، إذ ليس ثمة مدرسة من المفكرين تستطيع أن تتفادى  
اعتبار الهدف الأقصى للأفعال الإنسانية تحقيق حالة وجدانية

---

= نذكر القارىء بأن العام الذى مات فيه دارون قد مات فيه جرين  
T.H. Green. مدرسة الثالثة الحديثة في إنجلترا .

من الإشباع أو التمتع أو السعادة أو ما يشبه ذلك فيما يقول  
سينسر ، ولكن نفعية التطور الحديثة قد خالفت النفعية التقليدية  
في أنها رفضت المقدمات التي استندت إليها قريبتها ، ونبتت  
مفاهيمها التي اصطنعتها<sup>(١)</sup> على نحو ما سنعرف بعد قليل .

إن فكرة اللذة في النفعية التطورية أعمق منها في النفعية  
التقليدية ، فقد طبقت الأولى القواعد البيولوجية على دراسة  
الحياة الخلقية ، ونظرت إلى الحياة باعتبارها « تكيفاً متصلاً بين  
العلاقات الداخلية والعلاقات الخارجية » أي بين الفرد وبيئته ،  
ورأت أن تكيف تركيب الأعضاء ووظائفها مع البيئة التي يعيش  
فيها الكائن ، يتم بالتدريج بمتنفي قوانين حفظ الذات والتغير  
والانتخاب الطبيعي والوراثة ، ومزاولة هذه الوظائف التي تفيد  
الكائن تقترن في الكائنات الحساسة بلذة ، ومن هنا كانت اللذة  
آية الحياة السليمة البريئة من الضعف والمرض ، أو هي التكيف  
الصحيح مع البيئة ؛ وبتطبيق هذه الأفكار على الحياة الخلقية  
نجد أن هذه الحياة يمكن أن توصف بأنها تلاؤم الفرد مع بيئته  
الاجتماعية ، بحيث ينمو اتفاق مصالحه مع مصالح المجتمع الذي  
يعيش فيه حتى ينتفي التعارض بينهما ، فإذا أفضى السلوك الخلقى

---

Muirhead, Elements of Ethics, p. 136 (١)

إلى رفاهية الإنسان كان هذا بطبيعة الحال باعثاً على سروره ،  
محققاً لذته ، من هنا كانت اللذة هي الشاهد على حيوية الإنسان  
وصحته وقوته ، والدليل على نمو الحياة الاجتماعية ، ثم هي الغاية  
التي يهدف لتحقيقها الفرد والمجتمع على السواء<sup>(١)</sup> .

والفضيلة عند « سينسر » حالةٌ يتكيف فيها الفرد مع  
مجتمعه تكيفاً كاملاً ، والسلوك الخلقى هو الذى يفيد المجتمع  
ويُنمى الحياة الاجتماعية ويقترن باللذة ، وعلى عكسه يكون  
السلوك اللاأخلاقى . بهذا تصور « سينسر » اتفاق اللذة مع  
الفضيلة ، وإن كان « ليسلى ستيفن + ١٩٠٤ L. Stephen  
يكره إمكان وجود اتفاق مطلق بينهما<sup>(٢)</sup> كما سنعرف عندما  
نعرض لمناقشة هذا المذهب .

رفضت النفعية التطورية نظرة النفعية التقليدية إلى طبيعة  
الإنسان وعلاقة الفرد ببيئته الاجتماعية ؛ كان المجتمع — فى نظر  
النفعية القديمة — مجموع أفراد تلاقوا آلياً كما تتلاقى الجواهر.  
الفرّدة أو الذرات فى مادة غير حية ، ولكن كيف تلاقى ذرات  
(أفراد) المجتمع ؟ للإجابة على هذا السؤال لجأت النفعية القديمة

. M.C. Sen, op. cit., p. 201-02 (١)

. ibid., p. 66 & note (٢)

إلى خرافة « العقد الاجتماعي » الذي افترض أن الناس عاشوا في عزلة في بداية أمرهم ، ثم اتحدوا في مجتمع حفظا لحياتهم وتحقيقاً لمصالحهم وصيانةً لحقوقهم .. اعتبرت النفعية الأصلية للمجتمع مجموع وحدات متجانسة ، ورأت أن السعادة نوع من العملة العاطفية يمكن جمعها وتوزيعها بمقادير لها قيمتها المحدودة مستقلة عن ذوق الفرد وتقديره ، ومتى كان في الوسع توزيع السعادة كما توزع قطع العملة النقدية ، كانت مهمتنا أن نعمل على تحقيق أعظم قسط من اللذة أو ننفادى أكبر مقدار من الألم ، بل اعتبرت المجتمع جسماً ساكناً ، إن الذرات ( أفراد المجتمع ) ثابتة نسبياً ، حقيقة إنها تختلف باختلاف ظروف المولد والتربية ، ولكن هذه التغيرات عرضية وفردية ، أما مجموع الذرات فواحد لا يتغير !

على مثل هذه المقدمات الملاحظة شرع جمهرة النفعيين القدامى يقيمون مذهبهم — وإن فطن جون ستورت مل إلى الكثير من هذه الأخطاء — وكان على النفعية العلمية ( التطورية ) أن تصحح هذا الوضع ، فرأى جمهرة أتباعها أن العلم يستبدل بهذه النظرية الذرية في طبيعة الإنسان وسعادته نظرية عضوية علمية ، إن استقرار التاريخ يشهد بأن الفرد لا يكون إلا في مجتمع ما ،

بل إن علاقاته بمجتمعه تحدد حقيقته ، إن صلة الفرد بالمجتمع ليست مجرد صلة خارجية وآلية ، بل هي صلة باطنية عضوية ، إن مقومات شخصيته وقواه العقلية والبدنية قد تلقاها عن حالة مجتمعه السالفة ، إن غرائزه ورغباته — وهي منابع أفعاله وبواعثها — تفترض مجال إشباعها مجتمعا عائليا أو قَبليا منظما ، وما كان في وسع الفرد أن يتلقى تربيةً أو تعليما إلا عن طريق النظم الاجتماعية من لثة وأسرة ومدرسة ومتجر ... إن حياتها تستمد مقوماتها من علاقته ببيئته الاجتماعية ، بهذا استبعدت هذه النظرية « العلمية » خرافة العقد الاجتماعي أساسا لتفسير الظواهر الخلقية والسياسية ... إلى مثل هذا ذهب الكثيرون من أتباع النفعية التطورية .

ولا يقنع هؤلاء بأن يعتبروا المجتمع كائنا حيا ، بمعنى أن صورة الحياة الفردية تحدها علاقة الفرد بالكل ، كما أن أعضاء الجسم تحدها علاقتها بالبدن ، بل يرون أن المجتمع كائن حي بمعنى أنه — كسائر الكائنات الحية — ينمو ويتطور عن طريق تأثره بالبيئة ، وهذا النمو عملية تغير (تفرقة) وتكامل في وقت واحد ، وتزداد البيئة تعقداً ، وتعظم حاجة الأفراد بعضهم إلى بعض ، ويبلغ التطور حده — فيما يقول سبنسر — عندما

تبلغ الحياة الفردية أوجها طولا وعرضاً ، ونمو الحياة الفردية لا يستقيم بغير التعاون الاجتماعى الذى يحقق لكل فرد غايته ، ومن هنا وجب أن تخضع منفعة الفرد لمنفعة المجتمع إذا تعارضتا . وقانون التطور الاجتماعى هو قانون التطور فى سائر مجالاته ، فالمجتمع الذى يبقى بينيه أجزاءه وأعضائه وإخلاصهم فى أداء وظائفهم ، هو أحسن المجتمعات تكيفاً مع بيئته ، إنه النزاع أو النضال من أجل البقاء هو الذى يفسر بقاء المجتمعات التى يتكيف سلوكها مع غاية الأمن الاجتماعى .

وتطبيق هذه النتائج على نظرية اللذة والحكم الخلقى الذى يستند إليها ، ينتهى إلى نتائج لها خطرها ، فاللذة لا تقوم على بنية الفرد كذرةٍ منعزلة ، بل تقوم على التوازن العضوى لغرائز الفرد على اعتبار أن هذا التوازن تحدده علاقة الفرد بمجتمعه ، ويتضمن التطور اكتساب غرائز ورغبات جديدة ، ومن ثم فإن السعادة — التى تنشأ عن إشباع الرغبات — قد ترضى الإنسان حيناً ولا ترضيه حيناً آخر ، إن السعادة نفسها تتغير بتطور المجتمع ، وليس فى وسعنا أن نوازن بين مجتمعين فى مرحلتين مختلفتين كما لو كانا آلتين تنتجان محصولاً واحداً .

وتختلف النفعية التطورية عن قرينتها التقليدية فى أن

الأخلاقية في نظر الثانية تعميم يقوم على أمثلة أُستمد من التجربة كوسيلة لتحقيق أعظم قسط من اللذة ، أما الأولى فتزعم أنها « عقلية » وتعتبر الأخلاقية شرط « صحة » السكان الحى ، فالأوامر الخلقية التي تحرم السرقة والكذب ونحوه لا يبررها أن التجربة تشهد بأن طاعتها تحقق لنا ولنيرنا أعظم سعادة ، بل يبرر صواب هذه الأوامر أنها ضرورية لحياة الإنسان ونشاطه ، وبهذا تختلف النفعية التطورية مع قريبتها — ظاهريا — في فهم المقياس الذى تقاس به خيرية الأفعال وشريرتها ، إنه يقوم في نظر النفعية القديمة في « سعادة » المجتمع ، بينما تراه النفعية التطورية قائما في « صحة » المجتمع .

والواقع أن ليس بين هذين المقياسين تعارض حقيقى ، بل نرى على العكس أن صحة المجتمع لا تكون ذات قيمة إلا من حيث إنها شرط سعادته ، فالخلاف بين المذهبين لا يبدو في الواقع في تصورالغاية القصوى ، بل في الطريقة التي تُتبع لتحقيق هذه الغاية ، إن الغاية هي السعادة ، ولكن الحكمة تقتضى أن نحفظ بها بعيدةً عن مجال وعينا ، وأن نركز اهتمامنا في الظروف التي تكثفها ، ويصرح « سبنسر » بأنه يسلم بأن الغاية هي السعادة القصوى ، ولكنه يراها غايةً بعيدة وليست غايةً قريبة ،



ووظيفة علم الأخلاق عنده أن يستنتج من قوانين الحياة وظروف الوجود نوعَ الأفعال الإنسانية التي تنزع بالضرورة إلى تحقيق السعادة ، ونوعَ الأفعال التي تنوق تحققها ، ونتائج مثل هذا الاستنتاج هي قوانين السلوك<sup>(١)</sup> .

والنظر إلى الحياة الخلقية باعتبارها عملية نمو أو تطور ، ومحاولة تطبيق هذه الفكرة على الحياة الخلقية أمرٌ قديم وإن لم يظهر واضحاً إلا في العصور الحديثة ، يعنينا من تطبيق التطور على الأخلاق القول بأن الحياة تتطور بالتدرج إلى غاية أو مثل أعلى قد يبلغه الإنسان وقد يقصر دون بلوغه ، وقيمة حياته رهنٌ بمطابقة هذا المثال الأقصى ومحاولة إدراكه ، وقد لاحظ «سبنسر» أن التطور قد ساعد على تفسير الظواهر البيولوجية فتطرق من هذا إلى استخدامه في تفسير التاريخ والجمال والنفس والأخلاق وسائر فروع المعرفة البشرية ، وكان بمجهوده في تطبيق التطور على الأخلاق أظهر المفكرين الذين وضعوا النفعية التطورية ، ولهذا رأينا أن نقف قليلاً عند الجانب الذي يعنينا الآن من مذهبه :

---

(١) Muirhead, p. 137-43 وقد كانت أكثر اعتماده على

. L. Stephen's Science of Ethics

مذهب هربرت سبنسر :

من الممكن أن نقول إن مذهب سبنسر + ١٩٠٣  
H. Spencer يتألف من ثلاثة عناصر رئيسية :

أولها يبدو في محاولة أراد بها أن يرد فكرة الواجب إلى  
الخوف الوراثي الذي ينشأ عن ضيق الفرد بنقد المجتمع أو عقاب  
القانون أو عذاب النار أو تبرم السلف ، ومن الواضح أن رد  
الإلزام الخلقى إلى الجزاءات الاجتماعية والسياسية والدينية كان  
نظرية جميع الشكاك من الأخلاقيين منذ عهد « ثراسيا كوس » .  
Thrasymachus إلى أيام ماندفيل Mandville ، ولكن سبنسر  
أضاف إليها القول بأن فكرة الواجب مفروض فيها أنها انطبعت  
على شعور الفرد بالوراثة والتقليد ، ورأى مع هذا أن أحكامنا التي  
نقوم بها أفعال الإنسان مردها إلى العقل ، وبهذا رفض النظرية  
التي تجعل فكرة الواجب أو الخير ذاتية صادرة عن عواطف  
الفرد وميوله .

وثاني العناصر التي يتألف منها مذهبه يتمثل في محاولته  
تفسير ارتباط فكرة الواجب بأنواع معينة من السلوك ، وإرجاع  
هذا الارتباط إلى قوى التطور بوجه خاص أو نظرية الانتخاب

الطبيعى إلى حد أن الفرد يعتبر القواعد الخلقية مبادئ واضحة بذاتها،  
أو أولية قبلية سابقة على التجربة .

وثالث العناصر التى تميز مذهبه يبدو فى محاولته التى اضطلع  
بها ليستبدل بحساب الذات وإحصاء قيمتها فى النفعية التجريبية .  
التقليدية مقياساً أخلاقياً « علمياً » يقوم على فكرة التطور ؛ لم  
يقنع سبنسر بتقديم تفسير سيكولوجى لثالثنا العليا الأخلاقية عامة ،  
أو للقواعد الخلقية بالتفصيل ، فهو فى كتاباته — ولا سيما ما كان  
منها فى مطلع حياته العلمية — يصور التطور هادياً يرشدنا إلى  
ما ينبغى أن تكون عليه حياتنا الخلقية ، من هنا كان أظهر ما يميز  
مذهبه محاولته أن يُجِلَّ مكان النفعية التجريبية نفعية « علمية » ،  
أى يستغنى عنها بالقواعد التى يهديننا إليها التطور ، ومن ثم كانت  
هذه القواعد شاهداً على الخير ، يستغنى بها عن الحساب الذى  
التجربى المباشر للذات والآلام ، وهو الحساب التقويمى الذى  
تبنته النفعية التجريبية القديمة<sup>(١)</sup> .

فلننصل فى بيان مذهبه قليلاً :

مجل الرأى عنده أن الحياة تلازم بين الكائن الحى وبيئته

---

H. Rashdall, The Theory of Good and Evil, (1924), (١)

vol. II., p. 365 ff. وقد فصل فى الحديث عن النفعية العلمية ( أى .

الطورية ) من ص ٣٧٧ — ٩٧ من هذا الجزء .

وكال الحياة رهنٌ بهذا التلاؤم ، والأحياء كلها في تطور يهدف إلى تحقيق هذا التلاؤم ، والنايات التي تهدف لتحقيقها الأفعال الإنسانية والإرادية إما أن تكون المحافظة على الذات أو على حياة الجنس أو ترقية حياة الجماعة بحيث يعيش الفرد في انسجام مع غيره من أفراد ، ويقابل هذه النيات عند « سبنسر » أنواع من السلوك الإنساني هي المحافظة على النفس ، والإبقاء على النوع ، والسلوك الذي يهدف إلى ترقية حياة الجماعة ، وهذا النوع الأخير هو مجال علم الأخلاق ، والفرض الأقصى الذي ينشده الإنسان واعياً هو تحصيل اللذة أو المحافظة عليها ، أو تجنب الألم أو إزالته<sup>(١)</sup> فغاية الأفعال الإنسانية تحقيق الانسجام بين الفرد وبيئته ، وكل سلوك يحقق هذه الغاية يكون خيراً ، فإن عجز عن تحقيقها كان شراً ، والفعل الإرادي الذي يحقق هذه الغاية يثير لذة في الفرد والجماعة معاً ، وخيرية الفعل تكون أقرب إلى الكمال كلما أدت إلى تحقيق لذة خلت من الألم ، وقد كان الإنسان في أول أمره ياتمس منفعة الشخصية ، ثم أدرك أن تعاونه مع أقرانه يؤكد مصالحه ويزيد من منافعه ، فامتزجت في تصرفاته الأثرة بالإيثار

---

(١) Külpe, Intr. to Philos., p. 238 وقد نقله إلى العربية

الأستاذ الدكتور « أبو العافيني » تحت عنوان « المدخل إلى الفلسفة » .

وبمرور الزمن استنصوب العمل لصالح الغير ولو خلا من النفع الذاتي أو تعارض مع مصالحه الشخصية ، وسيجيء يوم تتفق فيه منفعة الفرد ومنفعة المجتمع وينتفي التعارض بينهما ، وتختفي الأثرة ويسود الإيثار؛ هذه هي « يُتوبيا » Utopia سبنسر أو مدينته الفاضلة التي صور فيها السعادة المقبلة فيما سماها نقاده .

ويتميز سبنسر من غيره من أهل التطور بأنه يحدد للسلوك الإنساني غايةً قصوى أو مطلقة ، فيسير في بحته من أبسط صور الحياة حتى ينتهي إلى مذهب « غائي » يؤكد فيه أن هذه الغاية لن تتحقق في دنيانا الحاضرة ، بل يتحقق في عالم مقبلٍ ذلك التلازمُ التام والانسجام المطلق بين رغبات الفرد ومطالب بيئته . ولكن أكثر دعاة التطور قد رفضوا التسليم بالغائية المطلقة في الأخلاق ، وتحاشوا القول بوجود غاية مطلقة تتحرك نحوها ، فيرى السير « ليسلى ستيفن » في كتابه عن علم الأخلاق أن الغاية التي تتحرك نحوها هي حالة توازن اجتماعي كامل ، وإن لم يصف هذا التوازن ويحدد دلالاته .

ويجعل الأستاذ صمويل الكسندر + ١٩٣٨ S. Alexander<sup>(١)</sup>

---

(١) في كتابه المذكور في الهامش التالي . وقد كان أستاذاً للفلسفة بجامعة مانشستر .

الغاية مثالا أخلاقيا أعلى تقاس به خيرية الأفعال وشريرتها ، وهذا المثال أسلوب من السلوك المعدل تعديلا يجعله ملائما للبيئة ، وهو يقوم على الميول المتنازعة المتعارضة ، ولكنه يقر التوازن بينها ، وليست الخيرية إلا هذا التوافق أو الضبط في الكل المتوازن ، وليست الحياة الخلقية في نظر « ألكسندر » و « ستيفن » إلا عملية انتخاب طبيعي أو تنازع بقاء يبقى فيه الأصلح — وهو النوع الذي يكون أكثر توازنا في سلوكه ، وإن لم تكن حرب الانتخاب الطبيعي في الشؤون الإنسانية بين الضعاف من الأفراد ، بل تكون ضد مثلهم العليا وأساليبهم في الحياة .

على هذا النحو كان يتحدث أتباع النفعية التطورية عن غاية السلوك الإنساني ومستوى الأحكام الخلقية ، ومكان اللذة من تصرفاتنا ، ومن حديثهم نرى كيف خالفوا النفعيين الأول في فهمهم لطبيعة الإنسان ومكان الفرد من المجتمع ، وكيف اتفقوا جميعا في تصورهم للمثل الأعلى ومكان اللذة في حياتنا الأخلاقية<sup>(١)</sup> .

---

(١) Mackenzie, op. cit., p. 200-02 وقد نصح من يريد

التوسع في مذهب سينسر بقراءة : Sorley's Ethics of Naturalism : Alexander's Moral Order and Progress Dewe's Outline of Ethics

حسبنا هذه الإلمامة الموجزة عن هذا المذهب العلمى الحديث ،  
إذ أن من المتعذر أن يقال شيء أتم من هذا وأكمل دون التعرض  
للآراء المتنازعة المتضادة — وما أكثرها ، إن فكرة التطور  
— التى يقوم عليها هذا المذهب — لم تزل بمد مشاراً للجدل فى  
تفصيلاتها ، فمن الحكمة أن نكتفى بالإلمامة الموجزة السالفة ، وأن  
نعقب الآن بمناقشة هذا الاتهام :

#### النتيجة التطورية فى الميراث :

للمذهب محاسنه ومآخذه ، أدخل المذهب فكرة « الكائن  
الاجتماعى الحى » فأكد بهذا أهمية « خير الكل » غايةً أخلاقية  
للسلوك الإنسانى ، وأبان تاريخياً ومنطقياً عن تهافت الرأى الذى  
يحمل علاقة الفرد بالمجتمع آليةً ميكانيكية ، وجعل غاية الكائن  
الاجتماعية قائمةً فى صحته أو حيويته التى تقوم عليها الذة ، فتأدى  
به هذا إلى القول بأن المبادئ الخلقية تتصل لا محالة بالغاية من  
أفعالنا ، وأنها ليست مجرد تعميمات تجريبية مستمدة من نتایج  
الأفعال ، واهتم بالظروف الاجتماعية القائمة ، وهى « بيئة  
القوانين والنظم والآداب وثمرات العمل والمعرفة العلمية وقواعد  
المنطق والرياضة » التى ندمو فى ظلها ككائنات بشرية — على

غير ما كان حال أجدادنا — فتأدى به هذا الاهتمام بهذه البيئة إلى اكتشاف واجباتنا المادية ، ومع أنه بالغ في أهمية التغيرات التي تطرأ على الظروف الخارجية والمادية ، فإن هذا قد مكنته من بيان قيمة هذه التغيرات كعامل في التقدم الأخلاقي ، ومع أن هذه التغيرات لا تنشأ عنها مثلنا الخلقية العليا فإنها تهيج الفرصة لقيامها ، إذ أن المثل تبقى حية بالاعتناء بالمصلحين والشهداء في ظروفٍ تختلف معها كل الاختلاف ، فيستخدم هؤلاء تلك التغيرات أداة قوية لإحداث التقدم في المجتمع على أوسع نطاق<sup>(١)</sup> .

ولكن إدماج اللذة في الفضيلة مثلاً أعلى للسلوك الإنساني لا يبدو تصوراً مثالياً مستقبلياً مرجوً ، إن المذهب يبرهن على أن اللذة على وفاق مع السلوك الأخلاق آخر الأمر ، ولا يعنيه الوضع الحالي للأمور ، هل تتفق اللذة الآن مع كل حالات السلوك الطيب ؟ لقد سلم دعاة التطور بالحاجة الماسة إلى التوضيح الحقيقية بالذات ، ولا تتفق هذه التوضيح مع وجهة النظر التي أسلفنا بيانها ، فإن التصرف السليم قد يكون حتى عند الرجل الفاضل على حساب سعادته الشخصية ، إذ قد يتطلب هذا



التصرف التضحية حقيقية غير مصطنعة ، وهذا كفيلا أن يكشف خطأ المبدأ الذى الذى يقول إن اللذة هى وحدها الخير ، إن جواز التضحية بالذات لا بد أن يقوم على منطق العقل .

وتخطط التطورية النفعية بين الخير بمعناه البيولوجى والخير بمعناه الأخلاقى ، إن الكائن العضوى يحقق غاياته بغير حاجة إلى عقل أو إرادة ، ولكن الإنسان الذى يطمح فى إخضاع سلوكه لمبادئ الأخلاق لا يستطيع أن يحقق مثله الأعلى إلا فى ضوء العقل الدراك والإرادة الحرة ، فإن الفضيلة تُكتسب إراديا ولا تكفى فيها الوراثة ، وتتحقق فى ديناننا الحاضرة لافى عالم مقبل نحلم به ، وتقوم على هدى العقل ولا تكون مجرد مسابقة لمطالب الجسم وشهواته — فيما قال أرسطو قديما — وقد قيل بحق إن نظرية دارون لا تستطيع أن تفسر فى وضوح ظاهرة الضمير الذى يُخضع مبدأ التنازع ويحول دون تحققه ، يقول هكسلى + ١٨٩٥ T. H. Huxley إن التقدم الأخلاقى لا يقوم على تقليد النظام الكونى ، بل يقوم فى مصارعتة ، فزواجة الفضيلة تقتضى عكس ما يقتضيه النجاح فى النضال الكونى من أجل البقاء ، فإذا تطلب هذا النجاح توكيد الذات اقتضت مبادئ الأخلاق كبح النفس وقمع أهوائها ، وإذا اقتضى النضال الكونى

قهر المنافسين تطلبت الأخلاق احترامهم بل اقتضت معاوتهم ، لأنها لا تحرص على بقاء الأصلح بقدر ما تحرص على الإبقاء على أكبر عدد يمكن أن يعيش ، إنها ترفض نظرية التطور التي تقوم على الصراع والنزال فيما يقرر هكسلي<sup>(١)</sup> .

وإذا كان سبنسر قد وفق بين الفضيلة واللذة على النحو الذي أشرنا إليه فإن الأدنى إلى الصواب أن يقال إن بينهما تعاضداً ، لأن العمل الفاضل يتصف عادة بالتجرد عن الهوى ، يؤديه صاحبه لذاته لا لأنه يحقق لذته ، إن الفضيلة — في رأى العقليين والحدسيين من الأخلاقيين — تحمل جزاءها في باطنها ، ويستقيم وجودها بغير حاجة إلى الشعور باللذة ، بل إن لذة الفضيلة تختفي إذا التمسها الإنسان عند ما يأتي فعلا فاضلا ، بل كثيراً ما تكون اللذة الناشئة عن مزاوله الفضيلة أقل كماً من اللذة الناشئة عن مزاوله الرذيلة ، بل قد تبدو الفضيلة في ثوب خشن أليم ، ولا سيما إذا اضطرت مع ميول الإنسان وأهوائه ، ومن ثم كان من الممكن أن يتصرف الإنسان بمقتضى مبادئ الأخلاق ولو أدى تصرفه إلى إثارة آلامه ، وذلك إنما يكون

مقى كان الباعث على أفعاله هذى العقل أو تقدير الفعل الفاضل  
وتقويمه<sup>(١)</sup>.

والواقع أن الرابطة التى تصل بين أفراد المجتمع رابطة  
أخلاقية ، وبمقدار قدرة الفرد على إخضاع رغباته الخاصة للصالح  
العام تكون قوة المجتمع الذى ينتمى إليه ، ومن هنا قامت قوة  
الجماعة على حالة المجتمع الأخلاقية ، مع أن مذهب التطور يقول  
إن قانون النجاح فى الطبيعة هو النزاع والصراع وإهراق الدم  
والتنافس ونحوه ، وطرق النمر والخنزير فى حفظ الحياة هى اسمى  
الطرق ، والمجتمع الناجح هو الذى يبيح قتل العدو والسير على  
جثته ، ويبغض السلام والحب ونحوه . حقيقة إن « دارون »  
حين هم بتطبيق الانتخاب الطبيعى على المجتمعات المتمدبنة هاله  
الأسر وأشفق من مغبة التطبيق ، لأنه كفىل بأن يحول هذه  
المجتمعات إلى قطعان من وحوش مفترسة ضارية يصارع بعضها  
بعضا من أجل البقاء ، لهذا صرح دارون بأن التعاطف الوجدانى  
وغيره من العرائز الاجتماعية التى تدفع الفرد إلى مساعدة غيره من  
الأفراد ، أسى قيمة من الانتخاب الطبيعى والنزاع من أجل البقاء ،  
فسايرة منطق الانتخاب الطبيعى تنتهى بنا إلى هدم المنشئات

. ibid., p. 67-8 (١)

التي يحفظ بها البشر حياة الضعاف والمرضى من الهلاك ، وهذا عند « دارون » إفسادٌ لأنبيل جزء في طبيعة البشر ، ولكن هذه النتيجة التي أشفق منها دارون ومن جرى مجراه ، قد رحب بها غيره من أشياع التطور ، هذا هو الموقف الجريء الذي وقفه نيتشه + ١٩٠٠ Nietzsche ومن ذهب مذهبه<sup>(١)</sup> .

بل لقد رأى « سبنسر » نفسه أن الإحسان يعارض مع بقاء الأصلح ! إنه يساعد الضعفاء والمعتوهين على أن يعيشوا على حساب الأقوياء والأذكياء ، وهي ضريبة لا تقرها عدالة القانون الطبيعي الذي يجعل البقاء للأصلح ! ومقاومة الحكومة لهذا القانون خروج على ما تقتضيه وظيفتها في زيادة اللذة وتقليل الألم !!

وهذه النتيجة تكشف عن سخف نظرية التطور ، لأن معناها أن الطبيعة في حرب مع نفسها ! وأن الخير شخصي لا محالة ؛ والوصف التطوري لحقائق الأخلاق لا يصلح أساساً لنظرية في علم الأخلاق ، إن الطبيعة حريصة على حياة النوع غير مبالية

---

(١) Sorley, Recent Tendencies in Ethics ص ٣٦ وما بعدها

واظر ما كتبناه في هذا الصدد في بحثنا « المثل الأعلى بين وأد الشهوة. وإشباعها » ص ٣٩ — ٤١ .

بحياة الفرد ، فالكائن الحي لا يجد في ظل الطيبة رحمة ، وفي سبيل بناء نوع تفتى ملايين الأفراد ، من السهل أن يقال إن لكل فرد قيمته في نظر نفسه ، ولكن التطور لا يقدم سبباً يبرر اهتمام الإنسان بمصلحة جاره ، إنه لا يهتم بالصالح العام الذي تقتضيه الأخلاق ، إلا متى افترضنا أنه على الدوام يتضمن الصالح الفردى ، إن للذهب يشجع الفرد على التضحية بمصلحته ليساهم في خير المجتمع ككل ، أما لماذا يفعل الإنسان ذلك فلأن خيره يقوم في خير الكل الذي هو جزء منه ، وبهذا تتحول الأنانية إلى نوع مذهب من الأنانية ! من هذا نرى أن المشكلة التي صادفت اللذي تصادف التطورى بدوره ، والطريق الوحيد لتفاديها هو القول بأن الإحسان والشعور بالتماطف ونحو ذلك هو من سميات الرجل الاجتماعى وجزءاً من وجوده إنه خير لأنه يتبع هداية مبدأ يهدف إلى تقوية المجتمع الذى يعيش في ظله هذا الإنسان<sup>(١)</sup> ...

مناقشة مذهب سبنسر :

إن ما قلناه الآن ينسحب على مذهبه ، ومع هذا نريد أن ننحصر بكلمة تنسحب بدورها على التطور بين بوجه عام ، وإذا

. D'Are, op. cit., p. 251 ff. (١)

وقفنا عند سينسر لاحظنا أنه أراد أن يدرس الكامل عن طريق المتحرك إلى الكمال ، ولكن علم الأخلاق لا يهتم بالبحث في نشأة المثل العليا وتطورها ، بل يعرض لتحديد لها وطريقة تأثيرها على السلوك الإنسانى ، والمثل الأعلى يقوم فى النهاية لا فى البداية

ومن هنا قيل إن « سينسر » — وغيره من أتباع التطور — وضعوا العربية أمام الحصان — فيما يقول المثل — درس نشأة السلوك مع أن الغرض من البحث الخلقى معرفة الغاية التى تقوم فى نهاية التطور ، وجهود الإنسان تتجه من الناحية الخلقية إلى جعل البيئة ملائمة للمثل الأعلى ، وهذا المثل لا يقوم فى البيئة ، بل يقوم فى نفوس الذين يعيشون فيها ، والتلاؤم بين الفرد وبيئته يتحقق من غير جهد ، ولكن الذى يقتضى الجهد هو محاولة تعديل البيئة لتبدو على اتساق مع المثل العليا ، ويكون التلاؤم شاقا عندما يضع الإنسان لنفسه غايات يسعى لتحقيقها ، فيعمل على تعديل البيئة أو تعديل نفسه أو تعديلها معا حتى يتلاءم مع مثله العليا ، ولا معنى للتلاؤم الذى يتحدث عنه دعاة التطور ما لم توجد غاية أو مثل أعلى يبحث عنه الإنسان ويُسير سلوكه بمقتضاه ، وإذا صحّ هذا وجب البدء بهذه الغاية لا البحث فى

عملية التعديل الذي يؤدى إلى التلاؤم والتكيف فيما يزعم  
دعاة التطور .

إن التطور الذى يقول به « سبنسر » وغيره من أتباع  
التطور مجرد وصفٍ عامٍ للمثل الأعلى القائم بالفعل ، إنه مجرد  
تاريخ طبيعى لنمو الحياة الأخلاقية ، وهذا يكفى فى دراسة للمملكة  
الحيوانية ، أما فلسفة الأخلاق فتهم بمعرفة السبب فى إثارة نوع  
من السلوك على غيره من سائر أنواع السلوك ، وليس حلالهذه  
المشكلة أن نقول إن ضرباً من السلوك قد نجح فى القضاء على  
غيره من ضروب السلوك لأن الأول أصلح للبقاء ، وقد سلم بهذا  
بعض التسليم « ألكسندر » لأنه اعتبر النجاح هنا هو الطابع  
أو الإجازة التى تقترن به خلال التاريخ ، وهو رمز خيريته ،  
ولكننا حين نستفسر منه عما يجعل الخير خيراً أى عن المميز  
المشترك الذى يجعل للمثل العليا قيمةً أخلاقية ، لا تجد عنده  
جواباً شافياً ، لأنه يقول إن المميز الذى يجعل السلوك المنتصر  
خيراً هو أن مثل هذا السلوك ملائم لظروف البقاء ، وهذا المميز  
يتفاعل المجتمع مع صاحب السلوك من غير احتكاكٍ ينتهى  
بانهراضه ، عندئذ يكون المجتمع فى توازن مع نفسه ، ولكن  
لماذا نريد أن يكون المجتمع فى توازن مع نفسه ؟ هذا سؤال  
يمكن توجيهه إلى « سبنسر » وإلى غيره من التطوريين ،

وإجاباتهم جميعاً تدخل في نطاق التاريخ لا في مجال الدراسات الأخلاقية ، إنهم يحدثوننا عن كيفية تطور الحياة الأخلاقية ، ولكن لماذا اخترنا هذه الحياة ؟ لماذا لا نحاول هدم توازن المجتمع مع نفسه دون العمل على إقامته ؟ هذه وجهة من النظر أحسن التعبير عنها نقاد النفعية التطورية ، والجواب الصحيح يقتضى تفسير الحياة الخلقية — لا بمرض تاريخيها وتبع تطورها ، بل بتحديد الغاية التي تقوم في نهاية التطور ، إن المثل الأعلى هو الذى يفسر عملية التطور وليست عملية التطور هي التي تفسره ؛ ذلك مبدأ تفسير الحياة الخلقية فيما ذهب جمهور الأخلاقيين من خصوم التطور مطبقاً على الأخلاق<sup>(١)</sup> .

أما إن النفعية التطورية مذهب عقلي يقابل النفعية التجريبية التي سبقته — فيما زعم سينسر وغيره — فذلك هو نفسه الاعتراض الذى وجهه إلى النفعية التطورية خصوصاً من أمثال سورلى<sup>(٢)</sup> + Courteny و W.R. Sorley ١٩٣٥ « كورتنى » في كتابه Constructive Ethics وغيرها ممن اعتبروا عقلية هذه التطورية

---

(١) انظر 198-200 Mackenzie, op. cit., ولارن Sidgwick Methods of Ethics وكذلك Green, Prolegomena to Ethics و Sorley ثم Muirhead في كتابهما السالتي الذكر .  
(٢) كان أستاذاً للفلسفة في جامعة كارديف ثم للفلسفة الخلقية بجامعة أبردين ثم بجامعة كامبردج ( بعد سنجويك ) .



تجريبية كالنفعية التي سبقتها تماما ، ويحاول « سبنسر » أن يفسر قيام تطوريته على أسس عقلية فيشير إلى أن العلم حين يترقى يصبح أوليا *a priori* أو عقليا *rational* ، ويميز « سبنسر » بين العلم الطبيعي والعلم النظري الأولى فيسوق علم الفلك مثلا ، إذ كان في مراحل الأولى لا يزيد على مجموعة من المشاهدات الخاصة بمواضع الشمس والكواكب وحركاتها ، وعن هذه المشاهدات كان يتوصل العلماء من حين إلى حين عن طريق التنبؤ التجريبي إلى أن بعض الأجرام السماوية تكون في مواضع معينة في أوقات معينة ؛ أما علم الفلك الحديث فيتألف من نتائج يستنبطها العلماء من قانون الجاذبية ، وهذه النتائج ترينا كيف أن الأجرام السماوية يتحتم وجودها في مواضع معينة في أوقات معينة ؛ فالعلاقة بين علم الفلك القديم ، وعلم الفلك الحديث تُشبه — في نظر سبنسر — العلاقة التي تقوم بين الأخلاق النفعية القديمة وعلم الأخلاق الذي يتصوره أهل التطور ، وهذه التفرقة ليست غريبة على المشيخين بعم المنطق الذين يعرفون الفرق بين التعميم التجريبي والاستنباط العقلي .

وواضح أن هذه التفرقة تكون في مجال العلوم الطبيعية التي تعالج وضع قوانين العلاقة الملية بين الظواهر الطبيعية ، فإنها

تشير إلى الطرق المختلفة التي تسلم إلى هذه القوانين ، فالمنهج التجريبي يراد به طريقة البحث التي تقوم على المشاهدة والاختبار أما منهج الاستنباط العقلي أو الأولي السابق على التجربة فيقوم على قضايا بديهية حقيقية أو مفترضة تستنبط منها حقائق تلزم عنها .

ولكن كلمة تجريبي لها معنى آخر ، إذ تطلق على العلوم التي تعالج البحث في العلل الفاعلية في مقابل العلوم التي تعالج البحث في العلل الناتية ، وبهذا المعنى تعتبر جميع العلوم التي تبحث في الظواهر بما هي كذلك تجريبية ، وأما العلوم التي تعالج هذه الظواهر من حيث هي غاية أو مقصد لنشاط الإنسان فهي علوم عقلية أو غائية ، وتمثل الأولى علم الطبيعة والأحياء بشقي صورهما ، ويمثل الثانية علم الأخلاق والسياسة وفلسفة الفن . وقد غفل عن هذه التفرقة دعاة النفعية التطورية ، افترضوا منذ البداية أن أفعال الإنسان كأفعال الحيوان تحددها الذات والآلام كمال فاعلية لها ، بدلا من أن يقولوا إن هذه الأفعال تحددها غايات الإنسان أو علالها الناتية ، فاختلطت عليهم نتيجة البحث ، ولكنهم في الواقع لم يزالوا بعد تجريبيين ، في الحق إن نظرية التطور حين طبقت على الأخلاق التجريبية وسعت نظرتنا لجال الأخلاق

ولكنها لم تساعد أصحابها على أن يعبروا من البحث فيما هو كائن إلى البحث فيما ينبغي أن يكون ، أى من مجال العلة الفاعلية إلى مجال العلة الغائية — فيما ذهب سورلى وسدچريك<sup>(١)</sup>

هذا عن المنهج الذى توخاه أهل النفعية التطورية ، أما عن الغاية التى أقروها فقد عرفنا أنهم استعاضوا عن التماس أكبر قسط من اللذة بطلب «الصحة الاجتماعية أو نمو الحياة أو إطالتها» فيما كانوا يقولون ، وبدت هذه الغاية ممثلةً فى مجموع تنسجم فيه مطالب الفرد مع مقتضيات بيئته الاجتماعية ، ولكننا إذا سلمنا بإمكان تحقق هذا الانسجام الكامل بين الأفراد بعضهم والبعض الآخر إلى أن تختفى من حياتهم الآلام — حتى ما ينشأ منها عن الواجبات التى تفرضها على الإنسان إنسانيته — لو سلمنا بإمكان تحقق هذا الانسجام لساورنا الشك فيما إذا كانت هذه الحياة تعبر عن المثل الأعلى الذى ينشده الإنسان — بما هو إنسان ؛ إذا كان صحيحاً أن الإنسان يطمح بطبيعته إلى الترقى ، وأن تحقّق طموحه يقتدرن لا محالة بمجهود مصلية لاسبيل إلى تفاديهما ، لتعارض المثل الأعلى الذى يدين به مسوريرسج بـ سـ بـ ر . . .

وفى توحيد «سبنسر» بين اللذة والتطور ما يشبه التناقض ،

Muirhead, op. cit p. 152 ff. (١)

إنه يقرر في بداية كتابه «مجال علم الأخلاق» Data of Ethics أن  
الغاية القصوى من الأفعال الإنسانية هي إطالة الحياة  
— أو الصحة الاجتماعية — ثم يقول إن إطالة الحياة ليست  
في ذاتها مقياس تطور السلوك ، إذ يجب الاهتمام في هذا  
الصدق باعتبار كميته ، وفي الفصل الثاني يقرر أن وجهات  
النظر عند المتشائمين والمتفائلين تلتقي عند مصادرة واحدة واضحة  
بذاتها ، تقول إن الحياة خير أو شر بمقدار ما تحقق أو تفشل  
في تحقيق فيض من الشعور السار أو اللاذ ، فالمتشائم يستخف  
بالحياة لأن آلامها تربي على لذاتها ، والمتفائل ترضيه الحياة  
لعكس السبب الذي أسخط المتشائم ، كلاهما يجعل محك حكمه  
نوع الإحساس الذي يصاحب حياته ، وما من مدرسة تستطيع  
أن تتفادى اعتبار حالة الشعور المرغوب فيها هدفاً أقصى للأفعال  
الإنسانية ، وفي هذا ما يتعارض مع الغاية التي حددها قبل ذلك ،  
وإن كان مجمل رأيه مستخلصاً من كتابه السالف يربى إلى القول  
بأن اللذة هي الغاية القصوى ، وأن تمام الحياة — طولاً وعرضاً —  
هو الوسيلة إلى هذه اللذة ، يقول إننا إذا اعتبرنا السلوك المؤدى  
إلى إطالة الحياة خيراً ، كان مرجع اعتبارنا إلى أن هذا السلوك  
يفضى إلى اللذة أكثر مما يفضى إلى الألم ، ولكن الواقع أن

العلاقة بين اللذة والحياة علاقة خارجية وليست باطنية تقوم في طبيعتهما ، إنها نتيجة تكيفٍ خارجي يجيء مصادفةً وانفاقاً ولا يتحتم أن تصاحب اللذة تطور الحياة .

هذا إلى أن القانون الذي يتحدث عنه « سينسر » وغيره من التطوريين قانون بيولوجي يتمثل في أثر البيئة في الإنسان ، وفي هذا تنقضي الإرادة أو الاختيار الذي يعتبر من مقومات القانون الأخلاقي ، وإذا كان التطور سينتهي لا محالة إلى الانسجام بين منفعة الفرد ومنفعة المجموع وسيادة الغيرية على الأنانية فليس ثمة من ضرورة لوضع مذهب أخلاقي يطالب الناس بالعمل من أجل غاية سيتكفل التطور الطبيعي بتحقيقها في الحق إن النفعية التطورية مذهب مُتداعٍ لا يستطيع أن يصمد أمام النقد .

# الفصل الثالث

## النفعية الحدسية

هنرى سدجويك (١٨٣٨ - ١٩٠٠)

الجو العقل الذى نشأت فيه النفعية الحدسية —  
تقد سدجويك للنفعية التقليدية — كيف ألام النفعية  
الحدسية — مناقفة مذهبه .

الجو العقلى الذى نشأت فيه النفعية الحرسية :

قلنا إن النصف الأول من القرن الماضى قد شهد نزاعاً بين  
الحسين والماديين من أمثال بنقام + ١٨٣٢ وجيمس مل  
+ ١٨٣٤ ، وبين الحدسيين والروحيين من أمثال وليم هملتون  
+ ١٨٥٦ وكولريدج + ١٨٣٤ ؛ وقد اشتد هذا النزاع حتى  
بلغ أوجه فى النصف الثانى من ذلك القرن ، فانتصر للنزعة الحسية  
جون ستورت مل + ١٨٧٣ وتشارلس دارون + ١٨٨٢  
وهربرت سبنسر + ١٩٠٣ ، ونهض بالدعوة للروحية توماس  
هل جرين + ١٨٨٢ وجون هنرى نيومان + ١٨٩٠ وجون  
سترنج + ١٩٠٩ ممن تزعموا - فى جامعة أكسفورد - الدعوة.

إلى الفلسفة المهيكلية التي كانت قد عبرت مع فلسفة كانت Kant من ألمانيا إلى الجزيرة البريطانية ؛ وكان « جريرن » أقوى هؤلاء تأثيراً في فلسفة الأخلاق ، فإن كتابه « المدخل إلى الأخلاق » Prolegomena to Ethics — وهو الذي نشره برادلي بعد وفاته بعام — كان فاصلاً في الأخلاق الإنجليزية بين عهدين ، إذ تأثر به وجرى على نهجه الكثيرون من فلاسفة الإنجليز ، وكان لهذا التيار — فيما نعتقد — أثره الملحوظ في تحويل مجرى النفعية أيام « مل » وفي التقريب بينها وبين مذاهب الخدميين والعقائين عند « سدجويك » ومن جرى مجراه .

في هذا الجو عاش هنري سدجويك<sup>(١)</sup> + ١٩٠٠ ، فكان طليعياً — فيما يلوح لنا — أن يكون مذهب مرحلة انتقال في تاريخ المذهب النفعي ، بدأت النفعية فردية على يد الأبيقورية قديماً وهو بز وجاستدى حديثاً ، ثم تحولت إلى منفعة « أكبر عدد من الناس » على يد بنتام ، وإن كانت مازالت تقوم عنده على أسس فردية تجعل الأناية قوام النفعية الجماعية ، بل تضحي بمنفعة الكثرة إن تعارضت مع منفعة الفرد ؛ ثم تطورت على يد « مل » حتى أصبح من واجب الفرد أن يطلب منفعة غيره بنفس القوة التي يلتمس بها منفعته الخاصة ، بل أبيض للفرد في

(١) كان أستاذاً للفلسفة الخلقية بجامعة كامبردج .

مذهبه أن يضحي بمصلحته من أجل المجموع ، ودخلت النفعية عناصر عقلية ، تسلت إليها متخفية على نحو ما عرفنا من قبل ، فإذا انتهى « مل » كانت النزعة الحدسية والعقلية قد عرفت طريقها إلى النفعية فاتصلت بها علانيةً وجهرًا على يد سدجويك ، وهكذا تحولت النفعية إلى مذهب عقلي أو غيري في اللذة :

#### Rationalistic or Altruistic Hedonism

فما هي التعديلات التي أضافها « سدجويك » إلى النفعية التجريبية فكان بها ممثلاً لمرحلة انتقال في تاريخ هذا المذهب ؟

نقر سدجويك للنفعية التقليدية :

لاحظنا أن النفعية التجريبية كانت تقوم على دعامين ، أولهما هي مذهب اللذة السيكلوجي ، وثانيتها إقامة المنفعة العامة على أساس المنفعة الفردية .

لم يميز أكثر دعاة النفعية التقليدية بين طلب اللذة بدافع من فطرة البشر ، وضرورة طلبها كغاية « ينبغي » أن ينشدها كل إنسان ، فخلط هوبز ومن ذهب مذهبه بين القول بأن الناس بطبيعتهم ينشدون اللذة بالفعل ، وبين القول بأن اللذة غاية ينبغي أن تتجه إلى تحقيقها أفعال الإنسان ، من هنا قام مذهب اللذة الأخلاقي على أساس من مذهب اللذة السيكلوجي ، وقد عرفنا



من نصوص بنتام ومل ما يكفي بياناً لهذا وإيضاحاً لتفسيره<sup>(١)</sup> .  
هذا إلى أن مصلحة المجموع تقوم على أساس من مصلحة  
الفرد فيما ذهب بنتام ، أو لا تتنافى معها على أقل تقدير فيما قرر مل  
— مع إباحته تضحية الفرد بلذته من أجل المجموع — ومن أجل  
هذا قيل إن التبشير بمذهب المنفعة العامة لم يبعد أصحابه عن اعتناق  
الأنانية مذهباً لهم ؛ إن بنتام يؤثر في حساب لذاته الأخلاق عمق  
اللذة وشدتها على شمولها وامتدادها للكثيرين إن تعارضاً ويجعل  
« مل » سلوك الفرد أداة لتحقيق لذته ، فإذا قال بتبشير هذا — عند  
تفسير التضحية والاستشهاد مثلاً — ناقض بذلك نفسه ، وخرج  
على منطوق مذهبه — كما عرفنا من قبل .

وجاء سدجويك فعارض قيام النفعية على هاتين الدعامتين ،

وجاء دحضه لهما على هذا النحو :

اعترف أولاً باللذة عنصراً ضرورياً لإقامة مذهب أخلاقي  
كامل ، لأن الغاية التي يجب أن نقصد إليها ينبغي أن تكون  
بمحيط ترضى نزعاتنا وتشبع مطالبنا ، حتى إذا مثلنا عن السبب  
الذي من أجله نسمى لتحقيق غاية ما ، كان جوابنا الوحيد المقبول  
أنها تسد حاجة في طبيعتنا أو تشبع أعظم حاجة من حاجتنا

---

(١) انظر ص ٩٩ — ١٠٢ و ١٤٤ وما بعدها .

الطبيعية ، لأننا إذا زعمنا أننا نسعى لتحقيق غاية لسبب خارج عن طبيعتنا — لأننا خاضعون لسلطة عليا — بقى السؤال قائماً ، وهو لماذا نتأثر بسبب خارج عن طبيعتنا ؟ إن الجواب الوحيد الذى لا يدع السؤال قائماً هو الجواب الذى يرد الأمر إلى حاجة قصوى فى طبيعتنا ، فإذا سئلنا عن الشيء الذى يسد هذه الحاجة الطبيعية كان الجواب لا محالة هو اللذة .

والواقع أن ما يسد أقصى حاجتنا أو مطالب طبيعتنا يحمل معه لذة لنا ، وقد يوصف من أجل هذا بأنه لذة ، ولكن هذه اللذة لا تمحى لذة إنا لها مضمونا موضوعيا لأن الشيء الذى يشعرا باللذة قد يكون لذة فرد آخر ، وقد يقوم فى سلامة وطننا أو أداء ما نتصور أنه واجب مفروض علينا ، مثل هذه أمور يودى تحققها إلى لذات نشعر بها ولكنها ليست فى ذاتها لذة ، ومن هنا كان من الخلط أن نقول إن قولنا : ينبغى أن نبحث عن اللذات ، شبيه بقولنا : ينبغى أن نبحث عن اللذة ؛ ويقول سدجويك إننا إن خلونا إلى أنفسنا أدركنا أن ليس ثمة شيء جدير بأن نبحث عنه إلا اللذة ، وما دامت اللذة هى الشيء الوحيد المرغوب فيه فإن أعظم الأشياء لذة هو أكثرها إثارة لرغبة الإنسان ، وبذلك تكون اللذة الأقوى مفضلة على اللذة الأقل فى

قوتها ، والتي تمتد أمداً طويلاً تفضل اللذة التي لا تدوم إلا أمداً وجيزاً ، وعند تقدير لذاتنا ينبغي اعتبار الماضي منها والمقبل شيها بالحاضر من اللذات في قيمته ، لأن مجرد الخلاف في الزمن لا يؤدي إلى خلاف في قيمة لذاتنا<sup>(١)</sup> .

ولكن « سدجويك » رفض إقامة الأخلاقية على أساس من نزوع الإنسان بفطرته إلى طلب لذته<sup>(٢)</sup> ، وصرح بأن مذهب اللذة الخلقى قلما يتفق مع مذهب اللذة السيكولوجى — في صورته المتطرفة على أقل تقدير — لأننا إذا كنا بالفعل ننشد على الدوام بطبيعتنا أعظم قسط من اللذة ، لما كان هناك ما يبرر القول بأنه ينبغي أن ننشد اللذة ! ولكن من التناقض أن نقول « ينبغي » أن نعمل على تحقيق لذة الآخرين إلا إذا اتفقت مع لذتنا ولم يكن بينهما تعارض ؛ ولو أننا فسرنا مذهب اللذة السيكولوجى بأنه يقرر أننا ننشد على الدوام لذة من نوع ما ، لأمكن تفسير مذهب اللذة الأخلاقى بأنه يعلمنا كيف ينبغي أن نلتمس أعظم قسط من اللذة لنا ولغيرنا من الناس ، ولكننا لا نجد على أى حال — فيما يقول سدجويك — أية علاقة ضرورية تربط بين المذهبين ، ولكن

---

H. Sidgwick, *Methods of Ethics* (1930), p. 400 ff. (١)

. (٢) عن *ibid*, p. 39 ff. ( اللذة والرغبة ) .

انخلط بينهما سرده إلى النמוש الذى يلبس لفظ « مرغوب فيه » ولهذا عرض سدجويك<sup>(١)</sup> لإزالة هذا اللبس وتفسير هذا التعبير تفسيراً دقيقاً بأن فيه أن « مل » قد أراد « بالمرغوب فيه » desirable ما ينبغى لكل فرد أن يرغب فيه ، أو ما يهدف إلى تحقيقه كل فرد ، وقد أسلفنا الإشارة إلى تعليق سدجويك في هذا الصدد<sup>(٢)</sup> .

وكان « مل » يقول مؤكداً إقامة الأخلاقية على أساس من مذهب اللذة السيكولوجى : إن الإنسان لا يرغب فى شيء لذاته ، وإنما يرغب فيما يجلب لذة أو يبعد ألماً ، وإيمان النظر فى هذا ينتهى بنا إلى القول بأن الرغبة فى شيء والشعور بأنه لاذ ، أو الففور من شيء والشعور بأنه مؤلم ، ظاهرتان متلازمتان لا تنفصلان ، أو هما اسمان مختلفان لحقيقة سيكولوجية واحدة .

وعلق سدجويك على هذا فى الفصل الرابع من الكتاب الأول من كتابه « مناهج الأخلاق » بقوله إن اضطراب التفكير فى هذا الموضوع سرده إلى النמוש الذى يلبس لفظ « اللذة » ومن أجل هذا أخذ فى إزالة هذا اللبس وتحديد المعنى

---

(١) ibid p. 388-89

(٢) الفصل الثانى من الباب السالف .

تحميداً يزلزل مذهب اللذة السيكلوجى ، إذ رأى أننا حين نقول إن إنسانا يقوم بفعل من أجل لذته الشخصية ، نعى أنه اختار هذا الفعل وآثره على غيره ، وبهذا يتحدد اتجاه إرادته ، والقول بأن كلمة « لاذ » يراد بها ما يؤثر على اختيار الإنسان ويجذب إليه إرادته كلامٌ محتمل الجدل ، لأن من تحصيل الحاصل أن نقول إننا نرغب فيما هو لاذ ، أو أننا نرغب فى شيء لأنه « بيدولاذا » لأن معنى هذا ببساطة أننا نرغب فيه لأننا نرغب فيه ! إذ أن قولنا « بيدولاذا » يفيد معنى « مرغوبٌ فيه منا » ! ولكننا إذا فهمنا معنى اللذة فهما أدق من هذا وجدنا أن ما نرغب فيه ليس على الدوام هو اللذة ، فقد نرغب عن الفعل الذى يحقق اللذة إلى فعل خلوٍ من اللذة ! وإذا قلنا إن اللذة يراد بها الشعور السار الذى يقترن بإشباع حاجاتنا ، لاحظنا أن هذه اللذة ليست موضوع رغباتنا فى كل الحالات ، لأن ما نرغب فيه — فيما يقول سدجويك — هو غاية موضوعية objective end وليس لذة تقترن به ، بل حتى فى الحالات التى نرغب فيها فى تحصيل لذة ، نلاحظ أن خير طريقة توفر لنا هذه اللذة هو أن ننساها ! إننا إن فكرنا فى اللذة نفسها افقدنا الشعور بها ، فى حين أننا إذا أتجهنا برغباتنا إلى تحقيق غايات

موضوعية جاز أن نشعر باللذة وقد تجلت فجأة ! ويستشهد سدجويك على صحة هذا بمباراة بين معسكرين تقترن بالنضال الذى يهدف للانتصار ، قد لا يكون بين المتبارين قبل بدء المباراة من يرغب فى النصر لذاته وللمجرد أنه نصر ، إنه لا يرغب فى النصر قبل بدء المباراة ولكنه يرغب فى لذة الكفاح من أجل النصر ، ولتكامل هذه اللذة تتمسكه فى العادة رغبة مؤقنة فى كسب المباراة ، وهذه الرغبة التى قد لا يكون لها وجود فى بداية الأمر ، تتأثر بالمباراة نفسها إلى حد كبير ... والحصول على المتعة الكاملة يقتضى درجة معينة من عدم الاكتراث باللذة ، إن الدافع إلى اللذة إذا اشتد فى نفس الإنسان هدم هدفه — وهو اللذة ! وهذا ما يمكن أن نسميه بالتناقض الظاهرى لمذهب اللذة ، إن صاحب المزاج الأبيقورى الذى يجمع كل أهدافه حول لذته الشخصية لا يتذوق أقصى حد لهذه اللذة ، لأن إلحاح شوقه إليها وتركيز اهتمامه بها يحول دون الشعور الكامل بمتعتها ، وليس هذا بمقصود على اللذات البهيمية ، ولكنه يبدو أوضح فى لذاتنا العقلية والروحية ، وقد لاحظ « مل » نفسه هذا التناقض الظاهرى فى مذهبه ، وأدرك بعض الإدراك أن الحصول على اللذة قد يقتضى طلب شيء غير اللذة ، ولكنه لم يفتن فيما يلوح

إلى تناقض تسليمه بهذا مع منطق مذهبه الذي يقرر أن الرغبة تتجه على الدوام إلى طلب اللذة ، ومن هنا آثر سدجويك أن يقول إن الرغبة تتجه إلى غاية موضوعية لا إلى طلب اللذة<sup>(١)</sup> .

هكذا أكد سدجويك أن الإنسان إذا كان ينشد اللذة بفطرته ويتجه في كل تصرفاته إلى طلبها بدافع من طبيعته ، لما كان هناك ما يدعو إلى إقامة مذهب أخلاقي يوجب عليه طلب اللذة ، وكان في تحديده لمعنى اللذة ومكانها من تصرفاتنا — على النحو الذي أسلفناه — ما يكفي لدحض إقامة النفعية على أساس من مذهب اللذة السيكولوجي ، فصحح بهذا مذهب بنتام وأزال التعارض الذي تركه « مل » بقبوله مذهب اللذة السيكولوجي مع تسليمه عملياً بالغيرية أو الحب المجرد عن كل مصلحة ذاتية ، وإن لم يكن في كل ما أسلفنا ما يشير إلى أن « سدجويك » قد استغنى عن اللذة عنصراً ضرورياً لإقامة أي مذهب أخلاقي كامل .

بقي موقف سدجويك من العلاقة بين المنفعة الفردية والمنفعة العامة ، نعرض مناقشته لرأى سابقه في هذا الصدد — على نحو

---

(١) Methods of Ethics, BK.I., ch. IV. وقارن مقدمتنا لترجمة

كتاب سدجويك « المجلد في تاريخ علم الأخلاق » ج ١ ص ٣٠ — ٠١

ما فعلنا في موقفه من العلاقة بين مذهب اللذة الأخلاق ومذهب اللذة السيكولوجي — ثم نقب على هذا ببيان الجانب الإيجابي من مذهبه لنرى كيف أقام النفعية على أسس حدسية — توطئة لمناقشة مذهبه :

أفر سدجويك اللذة غايةً للسلوك الأخلاق ، ولكنه حوّلها إلى منفعة المجموع من ناحية ، وأقامها على أسس حدسية من ناحية أخرى ، ورأى أن من الاستحليل على العقل أن يسلم بالقاعدة التي تقول : على كل فرد أن يتبع لذته الخاصة ولو أدى هذا إلى إلتصاص لذة الجميع ، إن القاعدة المقولة التي ينبغي أن يسير السلوك بمقتضاها تقول إن على كل فرد أن يعمل على تحقيق أكبر قسط من اللذة يصيب المجموع ، فإذا تعارضت لذة الفرد مع لذة المجموع كان عليه — تمثيلاً مع هدى العقل — أن يضحي بلذته في سبيل المجموع ، وبهذا يرتد الأناى إلى العقل ويعمل بمقتضى أوامره ، إنه لا يستفتى طبيعته وإنما يلجأ إلى هدى العقل ويعمل بمقتضاه ، وإذا أقام أتباع اللذة الفردية موقفهم على أساس عقلى تأدى بهم هذا إلى القول بأن غاية السلوك الإنسانى تحقيق أكبر مقدار من اللذة للمجموع كله .



## كيف أقام النفعية الحديثة :

ومن أفتتح بمسيرة البحث عن اللذة لوحى العقل سلم بالسلوك  
الغيري نظرياً وأقر بوجود شيء في باطن أنفسنا يميل ويأمر بنوع  
من السلوك ، دون اهتمام بالمصلحة الذاتية أو اللذة الفردية ، وبمعنى  
آخر يسلم بالضمير أو الواجب الذي يمليه الضمير ، وفي ضوء هذا  
يرى الإنسان أنه ينشد لا محالة أكبر قسط من السعادة لأ أكبر  
عدد من الناس ، وإذا هو سلم بأن نوعاً من السلوك يساير هذى  
العقل وأن غيره من أنواع السلوك يتنافى مع إملاء العقل ، انتهى  
لا محالة إلى التسليم بأن الفرق بين الخير والشر أو الصواب  
والخطأ ، يدرك إدراكاً أولياً حدسياً ولا يعرف عن طريق التجربة  
— لاذة كانت أو ألمية ، وأذعن للتسليم بالواجب الأخلاقي  
الذى يقتضى التمييز بين « يبنى » و « لا يبنى » .

رأى « سدجويك » أن اللذة هى الشيء الوحيد الذى  
يرغب فيه الإنسان لذاته ، ومن ثم كانت على الدوام هدف  
اختياره ، وفى اختيار اللذة يأمرنا العقل بأن نكون على الحياد ،  
بمعنى أن نختار أعظم لذة ممكنة التحقيق ، وأن نسوى بين لذات  
المستقبل ولذات الحاضر ، وبين لذاتنا ولذات الآخرين ، وربما

قيل إن « سدجويك » بهذا قد انصرف عن مذهب اللذة  
الأناني وأيد مذهب اللذة العامة باعتباره المذهب اللذي الوحيد  
الذي يساير منطق العقل ، ولكن الذي نستطيع أن نستنبطه من  
مذهبه هو أن خيرنا يقوم في لذتنا ، ثم نكتشف بعد هذا عن طريق  
العقل أن لذات الآخرين ينبغي أن يُسوَّى بينها وبين لذاتنا ،  
وهذا الاكتشاف لا يبنى رأيه الأول في أن خيرنا يقوم في لذتنا ،  
وبهذا تكون لذتنا هي الخير الأقصى ، ومن أجل هذا يرى  
« سدجويك » أن هناك تناقضاً معيناً أو ثنائية في أواخر العقل ،  
فنحن مضطرون إلى البحث عن أقصى لذة لنا ، ومع ذلك فنحن  
مطالبون بالبحث عن أعظم لذة لمجموع الكائنات الحساسة ،  
وقد تعارض هاتان النايقتان ، يقع تناقض بين أمرين مختلفين  
للعقل ، وقد أشار « سدجويك » إلى هذا التعارض واعتبره ثنائية  
العقل العملي<sup>(١)</sup> ، وهذه وجهة من النظر لم تصادف قبولا حتى  
عند تلميذه « جيزايكي » Gizycki ، ورأي « ماكنزي » أننا  
إذا مضينا في هذا التناقض أبعد من ذلك وجدنا تعارضاً قائماً بين  
البحث عن لذتنا في اللحظة الحاضرة ، والبحث عنها طوال الحياة

---

(١) ibid, Concluding Chapter (١) وضرورة التوفيق بينهما:

إذ يبدو أن الأولى أكثر إثارة لرغبة الإنسان ، ومن ثم نرى — تمثيلاً مع قاعدة سدجويك — أننا مضطرون للبحث عن أعظم قسط من اللذة في اللحظة الحاضرة ، كما تنشد أعظم مقدار منها يصيبنا طوال الحياة<sup>(١)</sup> .

شعر « سدجويك » بالحاجة إلى أساس عقلي يبرر ضرورة تضحية الفرد بسعادته من أجل الكل الذي يعتبر الفرد جزءاً منه ، ورأى أن منهج اللذبة النفعية عند « مل » لا يستقيم بغير افتراض حدس خلقى أساسى ، ومن هنا لجأ إلى « كانت » Kant ، أهجبه صدق مبدئه الرئيسى : اعمل وفق مبدأ أو قاعدة تستطيع أن تريد جعلها قانوناً عاماً للناس جميعاً ، ومع أنه رفض فلسفة « كانت » الميتافيزيقية ، فإنه سلم بهذا المبدأ وجعل صورته : إن ما يكون صواباً (خيراً) لى ، ينبغى أن يكون صواباً (خيراً) لجميع الناس متى تشابهت الظروف ، ولكنه فطن إلى أن هذا المبدأ مع صوابه ودلالته العملية لا يكفي لإقامة مذهب فى الواجبات ، أو إخضاع المصلحة الذاتية للواجب ، لأن الأناى الذى يستوحى عقله قد يعترف بهذا المبدأ ويظل مع هذا أناىا ما من شك فى أن العقل يقضى المرء أن يعرى ذاته كما

---

. Mackenzie, p. 175 (١)

يقضيهِ أن يرعى مصلحة الآخرين ، وقد لاحظ سدجويك أن « بطار + Bishop Butler ١٧٥٢ قد صرح بأن للمصلحة الخاصة أو السعادة الشخصية واجبٌ على الإنسان أن يؤديه ، وأن حب الذات المقول هو أحد المبدأين اللذين تتألف منهما طبيعة الإنسان ، وقد سلم بطار بثنائية الملكة الحاكمة — وهي الضمير — وآثر سدجويك أن يسميها بثنائية العقل العملي — على نحو ما أشرنا من قبل ، والسلطة التي اهتم بها « بطار » قد بدت في نظر « سدجويك » سلطة العقل ، وتحت تأثير « بطار » تحلى « سدجويك » عن مذهب اللذة السيكلوجى ، وشعر بضرورة الاعتراف بوجود دافع مجرد عن الهوى يحمل الإنسان على إتيان أفعاله ، هو دافع لا يتجه بالإنسان إلى تحقيق لذته ، لأنه يمتاز بالنزاهة والحياد<sup>(١)</sup> .

وقد رأى « سدجويك » - عند إعادة النظر في علاقته بالمذهب الحدسي ، أنه حدسيٌّ إلى حد الاعتراف بأن القاعدة العليا التي توجه الإنسان إلى تحقيق سعادة المجموع ، يجب أن تقوم على حدس خلقى أساسى ، وعندما أراد أن يقيم مذهبه في المنفعة العامة احتاج إلى بديهية أولية axiom تقول إن الإنسان

(١) Cf. Butler's Three Sermons on Human Nature (1934)

مع مقدمة الناشر وتعليقاته .

العاقل مطالبٌ بأن يقصد بتصرفاته إلى سعادة المجموع ، وقد وجد هذه الأولية في كتابات الحدسيين الأول من الإنجليز — من أمثال هنرى مور + ١٦٨٧ H. More وسمويل كلارك + ١٧٢٩ S. Clarke ، ولكنه لم يمحض مع المتطرفين من الحدسيين إلى حد التسليم بضمير الرجل البسيط على النحو الذى ذهب إليه بطلر .

وكان القانون الوحيد الذى أراد اعتباره قانوناً عاماً ، هو أن الناس يجب أن يتجهوا بأفعالهم وتصرفاتهم إلى ترقية سعادة المجموع ، ومن هنا اعتبر سدجويك نفعياً على أسس حدسية ، وكانت الأوليات أو المبادئ الواضحة بذاتها التى سلم بها آخر الأمر هى : مبدأ التبصر (المتضمن فى مذهب الأمانية العقلية) ومبدأ العدالة أو الإنصاف والقسط ومبدأ الأريحية العقلية أو الإحسان (وهو الأساس المنطقي لمذهبه فى المنفعة العامة) وبدا له أن الفهم المشترك بين الناس يبدو كجموعة قواعد تنتجه إلى ترقية السعادة العامة من غير مبادئ واضحة بذاتها إلا تلك التى تكون على اتساق كاملٍ مع النفعية العامة ، أما التعارض بين مذهب النفعيين ومذهب الحدسيين فرده فيما يبدو إلى سوء الفهم ، وتأدى به منطق مذهبه إلى مذهب التأليه Theism ، ومن هنا كان اتفاقه مع بطلر

« وكانت » وقد انتهت به معاودة البحث في منهج النفعية إلى تبين سوءاتها ، فلاحظ أن الاهتداء بالحساب النفعى يسلم في كثير من الحالات إلى الضلال ، ولهذا كان كلنا بالاسترشاد بالفهم المشترك بين الناس والاهتداء بميلهم إلى تفضية السعادة العامة<sup>(١)</sup> .

من هذا نرى أن تقدير قيمة الفعل الأخلاقية — وهو مبدأ التبصر — يتطلب الاستمانة بمبدأين فطريين لا يقومان على أسس لذية ، أى لا يُستمدان من تجربة اللذة والألم ، هما مبدأ العدالة ومبدأ الأريحية الذى يقضى بصنع الجميل للآخرين ، ولكن الأصل فى المذهب الذى أنه لا يعترف بوجود قوة فطرية فى الإنسان تمكنه من إدراك المبادئ الخلقية بالحدس ، وتيسر له إثار فعل على آخر ، لأن هذا هو موقف العقليين والحدسيين من الأخلاقيين — أما اللذيون والنفعيون فيعتقدون أن من المستحيل تقدير قيمة الأفعال من الناحية الأخلاقية بغير الرجوع إلى نتائجها ومعرفة مدى ما تثيره من لذة أو ألم<sup>(٢)</sup> .

ومع هذا نلاحظ أن بنجام مع تمسكه بالمنفعة الشخصية

---

(١) Sidgwick's. History (١٩٣٩) ص ٢٩٩ — ٣٠١

فى الجزء الذى أضافه للكتاب A.G. Widgery .

(٢) Sen, op. cit., p. 138-35

نصح الفرد ألا يقنع بمراعاة لذاته وآلامه الشخصية ، وألا يركز اهتمامه في ذاته حتى ينظر إلى الآخرين كأدوات لتيمنية سعادته وتحقيق مصالحه ، وأوجب « مل » أن يعدل الفرد حتى يلتمس لذات الآخرين بنفس الروح التي ينشد بها لذاته الخاصة . . . أما « سدجويك » فقد سلم — مع مبدأ التبصر — بمبدأى العدالة والأرحية باعتبارهما مبدأين فطريين يدرك صوابهما حدسياً أو عقلياً .

كان مذهب اللذة السيكولوجى يقول إن اللذة خير لأن جميع الناس « يرغبون » في تحصيلها ، فقال مذهب اللذة العقلى : ينبغي أن يرغب الناس في تحصيل اللذة حتى ولو لم تكن في الواقع مرغوباً فيها ، إن اللذة غاية الحياة الخلقية وهى الخير الأقصى أو المرغوب فيه ، ولكنها لذة من نوع خاص قد لا تتوافر فيه صفة الكم الذى يبرر عند البعض أفضليتها ، إنها خير الحياة كلها ، لا خير اللذة الحاضرة ، وهى خير المجموع لا خير الفرد ، إنها الخير الأسمى ، ومع أن هذه الغاية حسية إلا أن مبادئ توزيع اللذة — وهى التبصر والمدل والإحسان — يحددها العقل ولا تنتهى إليها التجربة ، إنها مبادئ فطرية واضحة بذاتها حسبنا هذا عن مذهبه ولتقف عنده قليلاً .

مناقشة مذهب :

محاولة التوفيق بين مذهب الحدسيين والعقليين من ناحية ، ومذهب المنفعة العامة بواقعيته وحسيته من ناحية أخرى ، كانت صدى لروح العصر الذى عاش فيه سدجويك ، وظهر فيه أعظم تعارض — شهادته إنجلترا طوال حياتها — بين النزعة الروحية والنزعة المادية ، أو بين اتجاه الحدسيين واتجاه الحسين — كما عرفنا فى صدر هذا الفصل ، والتقاء الضدين أمرٌ ميسور لأن بينهما وحدةً مشتركة تجمع بينهما — كما قلنا فى الفصل الذى عقدناه عن « مل » ، وإذا كانت النزعة العقلية قد دلت مقلنةً متنكرة إلى مذهب الحسين على يد « مل » — بغير قصد ولا وعى — فقد أتم سدجويك مزجها واعياً مدركاً .

ولكن مذهب لم يسلم من النقد ، وكان طبيعياً أن يضيق به العقليون والحسيون من الأخلاقيين ، وكان أظهر ما بدا لهم من مأخذه :

موقفه من اللذة أولاً ، ليس من السهل علينا أن نسلم بأن اللذة هى الخير المطلق ، إذ ليس للذة قيمةٌ فى ذاتها ، إنها إحساس



بالقيمة ، والدعوة إلى تحقيق أكبر مقدار من اللذة لأكثر عدد من الناس ، قد بشرت بها كثير من مذاهب الأخلاقيين على نحو ما عرفنا من قبل ، ولكن التعديل الذى أدخله على تفسيرها «سجويك» جعل من العسير اعتبار مذهبه نفعياً أو لذياً ، لأننا عندما نستفسر عن السبب الذى من أجله تكون غاية الفعل الإرادى «تحقيق أكبر قسط من السعادة لأكثر عدد من الناس» يجيب سجويك على ذلك بأن العقل يقتضى أن تكون هذه هى غاية السلوك الإنسانى ، بهذا خرج «سجويك» من الورطة التى وقع فيها بنهام ومل وغيرهما من النفعيين ، ولم يوقعوا إلى النجاة منها بفشلهم فى تفسير العلاقة بين المنفعة الفردية ومنفعة المجموع ، على أن سجويك أنقذ نفسه من هذه الورطة بإجابته السالفة ، إلا أنه تخلى بهذه الإجابة عن موقفه الذى أو النفى . ! لماذا يجب أن يعمل الإنسان لصالح المجموع وأن يجاهد لتحقيق سعادة الآخرين ؟ لأن هذا هو ما يقتضيه هدى العقل ، لا لأن قانون وجوده كإنسان يوجب ذلك ، لم تعد اللذة قوام الأخلاقية . إن أساس الأخلاقية قائم فى الإنسان نفسه<sup>(١)</sup>

وقد كان طبيعياً أن يعرض جريرين + ١٨٨٢ T.H. Green

• D'Arcy, op. cit., p. 245-46 (١)

— منشاء المثالية الجديدة عند الإنجليز — لقد سدجويك في موقفه من الخير الأقصى ، إذ كان من رأيه أن الكمال الإنساني والخير الأقصى شيء واحد ، هو « حالة شعورية مرغوب فيها ، وإن لم تكن مجرد حالة من اللذة ، أما « سدجويك » فقد كان — كما عرفنا — يرى أن اللذة هي الشعور الذي ينبغي أن يرغب فيه الإنسان ، ومذهبه في اللذة العامة يقوم على أن العقل يرى أن الخير الأقصى هو اللذة أو هو هذا الشعور المرغوب فيه ، فاللذة عنده هي التي يقضى العقل بأن تكون مثاراً لرغبة الإنسان ، وإذا صح هذا كان مجمل نظريته : أن العقل يرى أن الخير الأقصى هو الشعور الذي يقضى العقل بأن ينشده الإنسان ! هذا هو الدور المنطقي في نظرية سدجويك ، العقل يحدد فكرة الغاية ، وهذه الغاية يجب أن تكون بحيث ترضى العقل ! هذا تحصيل حاصل ، وقد يمكن تفاديه إذا عرفت الغاية بأنها لذة الكائنات الحساسة ، ولكن ما مبررات الظن بأن هذه الغاية سترضى العقل ؟ إن اللذة هي الشعور الذي ينبغي أن يرغب فيه الإنسان الناطق لنفسه ، إذا كانت حالة شعورية يتمناها الإنسان ، لاستحالة أن تكون لذة ؛ ويرى جرين أن الإنسان الناطق إذا التمس غايةً ما ، وجب أن تكون تحقيقاً لذاته ولذوات الآخرين ، ومن ثم فإن

فإن كمال الإنسان أو غيره الأقصى يصبح حياة شاعرة ينبغي أن تكون مثاراً لرغبة الإنسان ، إنها حياة لا ذة ولكن الإنسان لا يطلبها باعتبارها لذة .

ثم هل يصلح مذهب اللذة العامة — الذى بشر به سدجويك — لأن يكون مرشداً للإنسان فى الحالات الاستثنائية ؟ يبدو أن الجواب بالسلب ؛ بل قد يتنافى للمذهب مع الدعوة للتضحية لأنها تتضمن على الدوام فقدان نوع من اللذة من أجل توقع لذة مقبلة غير مؤكدة ، قد يسلمنا هذا وغيره إلى القول بأننا فى الحالات القليلة التى يمكننا فيها الاتجاه إلى الفلسفة للاسترشاد بهديها ، نرى فيما يقول جرين أن المذهب الذى يعتبر الخير غاية فى ذاته ، أكثر نفماً وأقل خطراً من مذهب سدجويك فى اللذة العامة<sup>(١)</sup> وهو الذى يعتبر كل خير وسيلة مؤدية إلى اللذة ، لأن اللذة هى وحدها الخير فى ذاته !

حسبنا هذا تعليقا على ما انفرد به سدجويك فى مذهبه التفضى من خصائص وسنمود إلى مناقشة الجانب المشترك بينه وبين غيره من التفضيين فى آخر فصل فى هذا الكتاب .

---

(١) T.H. Green, Prolegomena to Ethics, 460-86 (الطبعة

الرابعة) .

## الفصل الرابع

النفعية العملية (البرجماتية)

جون ديوى (١٨٥٩ — ١٩٥٢)

المجوز الذى ظهرت فيه النفعية العملية — علاقة  
هذا المذهب بالحياة عامة — موقف العمليين عامة  
من الأخلاق — موقف وليم جيمس من الدين  
والأخلاق — موقف جون ديوى من الأخلاق —  
تقيب .

المجوز الذى ظهرت فيه النفعية العملية :

كانت أظهر صور النفعية فى أواخر القرن الماضى نفعية  
الحدسيين كما بدت عند هنرى سدجويك + ١٩٠٠ ، ونفعية  
التطوريين كما تمثلت عند هيربرت سبنسر + ١٩٠٣ ، وفى  
النصف الأول من قرننا العشرين تفرعت النفعية وجرت فى  
قنوات شتى أضعفت تيارها كما سنعرف فى الفصل التالى ، ولكن  
فرعاً من هذه النفعية المعاصرة قد انتصر له طاقة من الفلاسفة  
الأمريكيين بوجه خاص ، عرفوا كيف يفتشون فيه القوة والحياة ،  
هذا الاتجاه الجديد فى النفعية قد سائر التطورية فى التماس العمل

المثمر ، والانصراف عن العلم الجرد إلى المنفعة المجدية ، وخالفها في اعتبار المعاني العقلية تعبيراً عن مطالب الكائن الحي غاية حفظ حياته ومساعدته على التطور إلى الكمال ، كما خالف الحدسيين والعقليين في اعتبار هذه المعاني مبادئ كلية ضرورية ؛ وإذا كان التطوريون من أمثال سبنسر قد ردوا هذه المطالب إلى أثر البيئة في الكائن الحي ، فقد عكست هذه النفعية للماصرة هذه الآلية وردت البيئة إلى أثر مطالب الكائن الحي ومطامحه ؛ وكانت الغاية التي تحتفي وراء هذا كله هي المنفعة المثمرة ، ومن ثم كانت نظريات العلم في نظر العمليين مجرد فروض واحتمالات ، معيار الصدق فيها هو مدى ما يحققه الغرض من وجوه النفع العملي ، ومن هنا جاز في منطق هذه النفعية أن يوضع لحل المشكلة الواحدة مجموعة من المذاهب قد تصدق كلها أو يصدق الكثير منها في وقت واحد متى أفضت هذه الفروض إلى تحقيق منفعة ، أما الحق لذاته والباطل لذاته — بصرف النظر عما يترتب عليهما من وجوه النفع أو الضرر — فحديث خرافة !

عموم المذهب بالحياة العملية عامة :

تجلت هذه النفعية الموقلة في المذهب العملي « البرجماتزم » في أمريكا بوجه خاص ، وتعزى الخصائص التي تميز هذا المذهب

إلى بييرس + ١٩١٤ C. S. Peirce وشيلر + ١٩٣٧  
W. James (١) ووليم جيمس + ١٩١٠ (٢)  
وإلى الأخير تنسب بعض المعالم العامة التي تميز التفكير الأخلاقي  
وإن كان جون ديوي + ١٩٥٢ (٣) J. Dewey هو الذي فصل  
في بيان موقف البرجماتزم من الأخلاق كما سنعرف بعد قليل .

بل كان وليم جيمس شديد الإعجاب بسلفه « جون ستورت  
مل » أكبر أعلام النفعية التقليدية ، حتى أهدى كتابه  
« البرجماتزم » إلى ذكرى مل الذي أخذ عنه وضوح العقل  
البرجماني لأول مرة ، وتخيل أنه لو كان حياً إلى عهده لكان قائد  
هذه الحركة العملية ا

وقد اعتبر جيمس مذهبه العملى نظريةً إستمولوجيةً في  
ماهية الحق ، ومنهجاً فلسفياً لإقرار الحقيقة واتفق الرأى  
بصددها (٣) كان أتباع المذهب الصورى أو النزعة المنطقية من

---

W. James Pragmatism, A New name for some (١)  
old ways of thinking ، وهو مترجم إلى الفرنسية مع مقدمة  
الفيلسوف برجسون Bergson ومع ذلك يعترف جيمس في تمهيد كتابه  
بأنه لا يجب اسم « البرجماتزم » ولكن أوان تغييره قد فات !

(٢) لها أنصار أظهرهم شيلر في الجزيرة البريطانية ولورى Le Roy  
في فرنسا وبابيني Papini في إيطاليا ... ولكنها لم تمد جذورها وتمكن  
لنفسها إلا في الولايات المتحدة .

(٣) انظر في تصوير هذا المذهب كنهج ونظرية ، وفي شرح =

الرياضيين والمناطقية يرون أن الحق معنى مطلق يقوم مستقلاً عن تجارب الإنسان ، أو صفةً عينية تقوم في الموجودات مستقلةً عن وجود عقل يدركها أو عدم وجوده ، فرفض المذهب العملي هذا التصور وأنكر إمكان وجود حقائق موضوعية وقيم مطلقة ، واعتبر الحقيقة اختراع شيء جديد وليس اكتشاف شيء موجود ، ومقياسها يقوم في مدى نفعها في دنيا العمل ، إذ ليس للحياة من هدف إلا العمل المنتج ، من هنا وجب أن يُسخر العقل في تيسير حياة الإنسان وإشباع رغباته وألا يشغل نفسه بالبحث في حقائق الأشياء وطبائع الموجودات إلا متى حقق البحث نفعاً ، بل أوجب على الإنسان أن يهتم بوضع الخطط التي تمكننا من السيطرة على الأشياء وتسخيرها لصالح الإنسان ، ويصدق الحكم بمقدار ما تشهد التجربة بفائدته عقلياً وعملياً ، ومن هنا كان معيار الصواب هو المنفعة أو العمل المنتج وليس حكم العقل النظري ؛ إن الفكرة الصادقة هي التي تعمل بنجاح في تجاربنا في الحياة ، إذ ليس الحق إلا مجرد حادث يعرض لفكرة فتصبح صحيحةً بما تحقق من عمل ، وشاهد الصدق فيها قدرتها على تمكيننا

---

== دلالاته ومعزاه كتاب جيبس السالف الذكر في المحاضرة الثانية : « ماذا يعنى مذهب البرجماتزم » ( ص ٤٣ — ٨١ ) من الطبعة الحادية والعشرين وقد صدرت عام ١٩٤٣ .

من السيطرة على الأشياء ، إن الفكرة خطة للعمل أو مشروع له ،  
وعك الصواب والخطأ هو القيمة الفورية في تجارب الحياة .

يقول جيمس : « إن التفكير هو أولاً وآخرأ ودائماً من  
أجل العمل » و « الحق ليس إلا التفكير الملائم لغايته ، كما أن  
الصواب ( الخير ) ليس إلا الفعل الملائم في مجال السلوك » .

وإذا كانت الوضعية قد رفضت التسليم بالحقائق المطلقة  
والقضايا الميتافيزيقية فإن المذهب العملي لا يتردد في قبولها واعتبارها  
صادقة متى كانت مُفضية إلى نفع يتحقق في حياة الإنسان !

وإذا مضينا في هذا الجو تيسر لنا استخدام هذا المذهب  
منهجا للقضاء على النزاع بين الفلاسفة بصدد الحق ، إننا نلجأ  
عند اختبار القضايا المتضادة إلى نتائج العملية في دنيا الواقع ،  
فالفيد منها صائب ، وما لم يترتب عليه نفع في تجار بنا فهو خطأ  
— وإن كره أتباع النزعة المنطقية الصورية ! وعن هذا صدر  
مذهب الذرائع أو التجريب عند « جون ديوى » فاعتبر المعرفة  
بدوره أداة لحل إشكال ، أو خطة للتغلب على صعوبة ،  
أو مشروعاً للتخلص من مأزق ، فالمعرفة وظيفة من وظائف  
الكائن الحي ، وهي تبدو في صورة فرض يقدم حلاً لمعضلة ،  
وبمقدار نجاح الفرض أو إخفاقه في حل الإشكال يكون مبلغ



صدقه أو مدى بطلانه ، ومن هنا سمي مذهبه بمذهب التراث ، وهكذا نرى أن الأفكار وقائع يقدمها العقل ليستكمل بها وقائع التجربة ، ولهذا وجب أن يختبرها العقل ويختير منها أصلها أو أنفعها للإنسان ، كما يختير الصانع آلات أو أجهزة يختار من بينها حراً أنفعها لأداء غرضه ، ومن أجل هذا كانت نظريات العلم فروضاً احتمالية أو ترجحية وليست معرفة يقينية ، وهكذا انصرف العمليون عن البحث في المبادئ الأولى والعلل البعيدة إلى النظر في ثمار الأفكار ونتائجها وآثارها في دنيا التجربة ، وتركوا النظر إلى العمل ، والماضي إلى المستقبل <sup>(١)</sup> .

### موقف العمليين عامة من الوفاء :

وفي ضوء هذا الجو العقل المشبع بالنفعية الخالصة صدر موقف العمليين من الأخلاق ، فمقاس الخيرية والشرية في مجال الأخلاق هو نفسه معيار الحق والباطل أو الصواب والخطأ في مجال المعرفة ، هو منفعة الإنسان ، وقد اتفق العمليون مع السوفسطائية في رد القيم إلى الإنسان ، ولكنهم خالفوا السوفسطائية في جعل الإنسان وليس الفرد معيار هذه القيم ، فقصدوا بهذا التجربة الإنسانية ، وهي تجربة تصطنع في نهاية المطاف بصبغة اجتماعية .

---

(١) توفيق الطويل : أسس الفلسفة ص ١٨٥ وما بعدها .

هذا إلى أن العمليين قد صنّفوا المنافع فكان منها العليا ومنها الدنيا ، وفي ضوء هذه التفرقة — ميزوا بين قيم الأفعال وفق اختلافها فيما يترتب عليها من وجوه النفع .

إن الخير في نظر العمليين هو الحل الموفق لكل ما يعوق اضطراد التقدم الاجتماعى ، والصواب هو الذى يساهم فى حل مشكلة تواجه الإنسان ، والقيم فى مختلف صورها — خلقية كانت أو منطقية أو جمالية أو اقتصادية ... تعتبر فى نظر العمليين — من دعاة البرجماتزم — نسبةً تتوقف على الأغراض التى تهدف لتحقيقها ، إنها مجرد وسائل لتحقيق غايات قيمة فى ذاتها ، هى الخيرات بوجه عام ، من هنا تحدت نظرهم النفسية للقيم الأخلاقية خاصةً ولنيرها من القيم بوجه عام ؛ وشبيه بهذا موقفهم من العقيدة الدينية ، لا يعتقد المقلون ديناً إلا متى أخضعوه لنقد النظر العقلى واطمأنوا بعد هذا إلى صوابه ، وكثير من المفكرين يرون أن إيمان الناس بالعقيدة الدينية ، واستمرار قيام هذا الإيمان فى نفوسهم ، هو الدليل على صدق هذه العقيدة ولو لم يجد العقل النظرى دليلاً منطقياً مساعداً على صوابها ، أما العمليون — من أهل البرجماتزم — فإنهم يرون أن الدليل على صدق عقيدة دينية ما ، يقوم فى وجوه النفع الذى يترتب على الإيمان

بها ، إن التجربة التي تكشف عن المنفعة أو عدمها ، هي محك الصدق والزيف ، ومقياس الحق والباطل ، ومقياس الخير والشر .

موقف ولیم جیمس من الدين والأخلاق :

وقد نشر ولیم جیمس كتابه « إرادة الاعتقاد » عام ١٨٨٦ ثم نشر كتابه عن « مذهب البرجماتزم » عام ١٩٠٧ وفيه فصل ما أجمله في كتابه الأول ؛ صرح في « إرادة الاعتقاد » بأن ماهية الخير تقوم في مجرد إشباع المطالب الإنسانية ، وتحقيق الخير إنما يكون بالنجاح في تجربة من تجاربنا في الحياة ، ويرى جیمس أننا كثيراً ما نضطر في حياتنا إلى إتيان أعمال لا يكون لدينا أساس نظري يبررها ، بل إننا حين لا نأتي عملاً يجهل توقفتنا عن العمل نتيجةً لحكم نصدره — وقد لا يجد له العقل النظري مبرراً — وفي هذا الباب تدخل المسائل الدينية فما يقول جیمس ، فإن من حقنا أن نعتنق عقيدة لا يحملنا على اعتناقها تفكيرنا النظري المجرد ، وقد سبق إلى هذا الرأي جان چاك روسو<sup>(١)</sup> وإن كان في تفسيره عند جیمس طرافة .

وواجبنا الخلقى الذى يقضى بأن نتمسك بالحق يتألف من

---

(١) هاجم روسو العقل وكل ثمراته من علم وفلسفة وفن ، فكان طبعياً أن يقيم الدين على غير العقل .

قاعدتين متعادلتين هما : « اتبع الحق » و « تجنب الباطل » .  
ولكن الفيلسوف الشاك يكتفى بتجنب الباطل فيفوته الاعتقاد  
بمخائيق هامة يعتقد في صحتها الرجل الأقل حذراً ، هب أنى لقيت  
رجلاً غريباً في قطار فقلت لنفسى : أنرى أن هذا الرجل هو  
على ماهر ؟ فإذا قلت ما يقوله الشاك في هذا الصدد ، وهو أنى  
لا أدرى إن كان تكهنى صحيحاً أو غير صحيح ، كنت على التحقيق  
قد منعت نفسى من أن أعرف أى معلومات صحيحة عن اسم هذا  
الرجل ، أما إذا رأيت أن أعتقد بأن هذا هو اسمه ، لكنت  
أمامى فرصة يتمثل أن يتحقق فيها أنى كنت على صواب فيما  
اعتقدت ، فالشاك - فيما يقول جيمس - يخاف أن يُخدع  
أو يُضلل أو يغرر به ، وعن طريق هذا الخوف يفقد العلم بمخائيق  
هامة ، ويضيف جيمس مستفسراً : أى دليل يمكن تقديمه على  
أن انخداع الإنسان « بالأمل » فى أن يعرف حقاً ، أسوأ بكثير  
من انخداعه عن طريق « الخوف » ؟ .

من هنا كان اعتناق الإنسان لدين على أمل أن يكون حقاً  
(أى مفيداً نافعاً) أفضل من رفض اعتناقه مخافة أن يكون  
زائفاً باطلاً .

كان جيمس يهتم بالعقيدة الدينية باعتبارها ظاهرة إنسانية ،

وهو يريد أن يحقق للناس السعادة ، فإذا كان اعتقادهم بوجود الله كنيلا بتحقيق سعادتهم ، وجب أن يعتقدوا في وجوده ، وإذا أثبتت التجربة أنه يكفل سعادتهم كان هذا الاعتقاد حقاً ، حتى ولو عجز العقل النظري عن أن يقيم الدليل المنطقي على أن هذا الاعتقاد حق (١) .

حسبنا هذا عن موقف جيمس ، فإنه لم يهتم كثيراً بالمشكلة الأخلاقية ، وإنما احتلت هذه المشكلة مكان الصدارة في فلسفة جون ديوى (٢) ومن ذهب مذهبه من أمثال جيمس تفتس (٣) J. J. Tufts و J. H. Mead وغيرها من المعاصرين ، فلنقف عند ديوى قليلاً :

### موقف جون ديوى من الأخلاق :

أبان « ديوى » عن مذهبه الأخلاقي البرجاني في سلسلة من الكتب وضع بعضها في صدر حياته الفلسفية ، أظهرها

---

(١) تارن Bertrand Russell, op. cit., p. 842-3 & 852 .

(٢) ولد عام ١٨٥٩ ومات في يونيو من عام ١٩٥٢ وكان أستاذ الفلسفة بجامعة كاليفورنيا .

(٣) ولد عام ١٨٨٢ ولا يزال — فيما نعلم — أستاذاً للفلسفة

بجامعة شيكاغو .

« خلاصة نظرية نقدية في الأخلاق » ١٨٩١ وفيه أبان عن اعتقاده — الذى ينحدر إلى هييجل — فى اتفاق مصالغ الفرد مع مصالغ المجتمع ، وكتابه « دراسة علم الأخلاق » ١٨٩٧ وكتاب « الشروط المنطقية لدراسة الأخلاقية دراسة علمية » ( ١٩٠٣ ) وفيه أنكر المحاولة التى قام بها الأخلاقيون منذ أيام الإغريق لاكتشاف غايات خلقية عامة ثابتة لا يحددها زمان ولا مكان وفى كتاب « علم الأخلاق » الذى اشترك فى وضعه مع « جيمس نفيس » وكتاب « الطبيعة البشرية والسلوك » ١٩٢٢ ثم فى « نظرية التقويم » ١٩٣٩<sup>(١)</sup> وغير هذا من أبحاث ومقالات .

صرح « ديوى » بأن مهمة العقل ليست التوصل إلى المعارف أو كشف الحقائق ، إنه أداة لترقية الحياة ، والتفكير وظيفته خدمة الإنسان ، إنه خطة لمواجهة إشكال ؛ وفى فلسفته خاصة تأكدت قيمة النتائج الاجتماعية والفردية للأفعال الإنسانية باعتبارها مقياس الخير والشر ، ومعيار الصواب والخطأ ؛ إن الخير هو الذى يخدم

---

(١) كتبه بالترتيب : Outline of a Critical Theory of Ethich

ثم The Study of Ethics و Logical Conditions of a Scientific Treatment of Morality وكذلك Ethics ( العطر الثانى والأجزاء الأولى من الثالث من وضع ديوى ) و Human Nature and Conduct و Theory of Valuation .

غايات الجماعة ومطالب الفرد في الجماعة ، والأخلاق عنده تعتبر الفرد غايةً في ذاته وليس وسيلة إلى تحقيق غاية ، وباهتمامنا بكل فردٍ نهتم برفاهية الجماعة التي يعيش في ظلها هذا الفرد ، وصالح الفرد من الناس كوحدة اجتماعية هو المقياس الأقصى للخير والشر ، لأن ما يُنفى حياة الفرد ويخصبها لا بد أن يساهم في إراء حياة الجماعة وإخصابها ، إن الفردية — فيما يقول ديوى — نتاج اجتماعى ، ولا أحد يتميز بالفردية الصادقة ما لم يكن عضواً في جماعة .

وعلم الأخلاق في رأيه ليس علماً نظرياً مجرداً ، وإنما هو جزء من الحياة متممٌ لها ، إن ديوى لا تروقه الفلسفة العامة التقليدية لأنها تجعل العقل متفرجاً عاطلاً وظيفته مجرد التأمل في الحياة ، ويضيق بالفلسفة الخلقية التقليدية لأنها إما أن تجعل علم الأخلاق تحليلاً صورياً بعيداً عن الحياة العملية ، أو ترده في آخر أسره إلى مجموعة من نتائج يُعدها علماءه للناس وهي أبعد ما تكون عن مجرى الحياة ومطالبها ، مع أن الأخلاق النظرية تقوم على النقد والتفكير في غايات إنسانية تفرى بالعمل وتدفع إلى النشاط ومن ثم تصبح الفلسفة الخلقية أداة كد وجهد ونشاط ، وبهذا يصبح من الضلال حصرها في مثل أعلى واحد أو في مجموعة من

المفاهيم الخلقية التي يتوقف بعضها على بعض من الناحية المنطقية  
بل إن ديوى يرفض - مع جيمس - التسليم بموقف  
الوضعية المنطقية من الأخلاق ، إذ كان كارناب<sup>(١)</sup> R. Carnap  
وأير<sup>(٢)</sup> A. J. Ayer ومن ذهب مذهبهما من أعلام الوضعية  
المنطقية يستبعدون الأخلاق المعيارية من نطاق العلم ، لأن قواعد  
الأخلاق ومبادئها ليست قضايا علمية يمكن التثبت من صحتها  
بالتجربة ، إنها لا تشير إلى شيء موجود بالفعل في عالم الواقع  
حتى يتيسر التثبت من صحتها بالاتجاه إلى التجربة ، وإنما هي  
عبارات لا تحتمل صدقا ولا كذبا ، لأنها مجرد أوامر في صيغ  
لغوية مضللة ، أو تعبيرات عن انفعالات نفسية ، ومن هنا تعذر  
وصف الأحكام الخلقية بالصدق أو بالكذب ، فهي كلام فارغ  
أشبه ما يكون بثرة الطفل يعبر بها عن دوافعه دون التعبير بها  
عن معان معقولة ، إنها تعبر عن الوجدانات بحروف ، فهي  
أشبه ما تكون بقول المتألم : أواه<sup>(٣)</sup> ١٩

(١) ولد عام ١٨٩٩ وكان مدرسا في جامعة فيننا ثم أستاذا في جامعة  
براغ ثم هاجر إلى أمريكا وعين أستاذا للفلسفة في جامعة شيكاغو منذ عام  
١٩٣٦ ولما نزل بعد .

(٢) أستاذ الفلسفة الحالي بجامعة لندن (University College)  
وهو الذي يتزعم الآن التبشير بالوضعية المنطقية في إنجلترا .  
(٣) A.J. Ayer, Language, Truth and Logic, ch. VI.



وكان الأستاذ « دنجل » A. Dingle قد ألقى محاضرة عن العلم والأخلاق ، أمام المجلس البريطاني لشئون الصحة الاجتماعية ( نشرتها مجلة Nature ج ١٥٨ الصادر في ١٠/٨/١٩٤٦ ) قال فيها مؤيداً الوضعية المنطقية : إن المسائل الخلقية لا تكون صادقة إلا خارج نطاق البحث العلمى ، لأن بين العلم والأخلاق حاجزاً منيعاً ، إذ يقوم العلم على العقل والتجربة ، أما علم الأخلاق فإنه لا يستند إلى أساس يبرر قيامه ، وينتهى بنا هذا إلى أن نستفسر عن الأساس الذى تقوم عليه الأخلاق ، ولا يزال الأخلاقيون يواجهون هذه المشكلة : كيف يختار الإنسان بين فعلين ؟ ويقول الأستاذ دنجل فى إجابته على هذا السؤال : ليس لدى حل أقدمه ! بهذا الشك واليأس واجهت التجريبية المنطقية مسائل الأخلاق ، أما البرهانزم كما صورها « جيمس » و « ديوى » فقد رفضت هذا الزأى اليأس وصمدت لمواجهة الموقف ، يشهد بهذا جيمس فى كتابه الذى يوحى عنوانه « إرادة الاعتقاد » بمفراه فى هذا الصدد . يقول إن اعتقاداتنا لا يمكن أن تقوم على معرفة علمية موضوعية للحقيقة الموضوعية ، ولكن هذا لا يهم ! إن ما يهمنا هو أن تكون لدينا الإرادة التى تؤكد كل معتقد يمكن استغلاله والانتفاع من ورائه متى اعتنقه الإنسان ، فيكون هذا هو الشاهد على صدقه !

وترفض البرجماتزم التسليم برأى التجريبية للمنطقية الذى قررت فيه أن الأحكام الخلقية لا تحمل معنى ، لأن جميع الأفكار فى نظر العمليين أساسٌ للعمل ، وهى صادقة بمقدار ما تنتج من ثمار وما تحقق من منافع ، ولئن كانت البرجماتزم — كغيرها من صور المذاهب الوضعية — تنكر إمكان قيام علم للأخلاق يتضمن مبادئ عامة مطلقاً تصدق فى كل زمان ومكان ، ويستند إلى أسس عقلية موضوعية ، إلا أنها توصى بإرادة الاعتقاد فتنتهى بهذا إلى التوكيد الأعمى لكل ما يظن الإنسان أنه يعين على أداء ما يسميه « جيمس » . واجبنا العام نحو كل ما يفيد<sup>(١)</sup> .

ويسير « ديوى » فى هذا التيار نفسه ، فيرد خيرية الاعتقاد أو شريته إلى النشاط الذى يبعثه فيمن يدين به ، ومن ثم تتوقف خيرية المعتقدات على ما يترتب على التمسك بها من نتائج ، إنها أحداث فى الماضى ، لا تكون خيراً ولا شراً بالقياس إلى وجود هذه الأحداث أو عدم وجودها ، وإنما تحدّد خيريتها أو شريرتها آثار الإيمان بها فى حياة الإنسان .

---

M. Cornfortk, In Defence of Philos., Against Posi- (١)  
tivism and Pragmatism, (1950), p. 251-53  
« العقليون والتجريبيون فى فلسفة الأخلاق » ص ٥٩ وما بعدها .

ورأى « ديوى » فى معرض رفضه لموقف الوضعية المنطقية من الأخلاق ، أننا إذا سلمنا جدلا بأن التعبير عن القيم مجردُ انفعالٍ أو تعبيرٍ عن أمر ، ما حالَ هذا التسليم دون النظر فى هذه القيم ( الخيرات ) لمعرفة ظروفها ، وللإلمام بنتائجها وآثارها فى الحياة الإنسانية ، إن هذا وحده هو المهم !

ورفضه لموقف الوضعية المنطقية ليس معناه التسليم بموقف خصومها من الحدسيين والعقليين ممن اعتبروا القيم ماهياتٍ تتركز أولياً بالحدس ولا تحتل التعريف ، فإن الذى يعيننا فى نظر ديوى هو التقويم الذى يتصل بتجربتنا فى الحياة .

ولا تروق ديوى مذاهب الأخلاقيين الذين يردون الأخلاقية إلى إشباع رغبة شخصية أو تحقيق مصلحة فردية ، وإن كان يرى أن القيم تظهر على الدوام متصلةً برغبة أو مصلحة ، إلا أن الخير عنده لا يقوم فى إشباع رغبة مباشرة ، بل يقوم فى حل الموقف كله ، ولا يكفى أن يشبع الدافع الحاضر وحده ، بل لا بد فيه من أن يشبع الحافز على رغباتنا التى ننتهى إليها آخر اللطاف ، ومن هنا استوعب الخيرُ الحاضرَ والمستقبلَ معاً ، وهذا التقويم بأحكامه التى تعبر « عما ينبغى أن يكون » يتصل بالواقع اتصالاً وثيقاً ، وينصبّ على النايات عن طريق الوسائل المؤدية إليها ، ابتغاء منفعة الإنسان ، ومن الضلال أن تعدد الأخلاق إلى وضع

غايات بسيدة عامة ، بل إن التقويم يدور حول معرفة الوسائل التي لا غنى عنها للعمل الناجح الموفق ، من هنا تتصل القيمة ( أى الخير ) بكل ما يُرتقى أساليب العمل ويهذب أسباب النشاط ، وبهذا يصبح الخير خُطّة يراد بها تخليص الإنسان من ورطة ، أو إنقاذه من موقف مقلق ، وترتبط قواعد الأخلاق على الدوام بالمواقف التي نعالجها ، ومن ثم لا توضع مقدما وتكون عامة مطلقة— كما ذهب الحدسيون والعقليون من فلاسفة الأخلاق— بل تتغير بتغير ظروفها وأحوالها ، ولا تكون المثل العليا أوامر قصوى ، بل تصبح أداة لمواجهة موقف ، أو مشروعا لحل إشكال ، إنها تزودنا بأسباب الخلاص من ورطة أو بأزق ، وبذلك تحقق الخير في حياة الإنسان<sup>(١)</sup>.

### تقيب :

ذهب المسلمون إلى أن المبادئ الخلقية والمعتقدات الدينية متى ثبتت منفعتها في دنيا الواقع ، فسيان بعد هذا أن تصمد لتقد العقل الحض أو تنهار أمامه ، إن قيمتها مصنونة طالما أثبتت التجربة منفعتها في حياتنا الدنيا ، هذا الاهتمام بدنيا الواقع فتنه

(١) تارن T. E. Hill, Contemporary Ethical Theories,

Ch. X. (1960) وكذلك S. E. Frost, The Basic Teaching of the

, Great Philosophers, (1942), p. 107 ff.

طيبة نحمدها المذهب العمليين ، ولا سيما وأن مذاهب المحدثين من الفلاسفة منذ مطلع العصر الحديث تربط بين الفيلسوف والحياة العملية برابط وثيق ، وقد سائر المذهب العملي هذا الاتجاه بل أمعن فيه حتى توجّه بطابعه الغلاب .

ولكن بعض النقاد يرون أن هذا المذهب ينتهي بجمل للبدايئ الأخلاقية والمعتقدات الدينية مجرد وهم خادع وضلال باطل ، فإن الاعتقاد بالله إذا كان مرجعه إلى تقدير أثره في دنيا الواقع ، دون اكتراث بحقيقة الإيمان من الناحية الموضوعية الخالصة ، كان هذا الاعتقاد احتيالا وضلالا ، وقد عرض برترند رسل — شيخ الفلاسفة المعاصرين في إنجلترا — لنقد هذا الموقف فرأى أن قول العمليين إن « الاعتقاد بالله حق متى حقق للناس السعادة » قول أقرب إلى الإحسان والأريحية منه إلى التفلسف الصحيح ، إن هذا الرأي لا يقنع مؤمناً مخلصاً في إيمانه ، لأن هذا المؤمن لا يطمئن إلا متى استراح إلى وجود موضوع لعبادته وإيمانه ، إنه لا يقول : إني إذا آمنت بالله سعدت ؛ ولكنه يقول : إني أومن بالله ومن أجل هذا فأنا سعيد ، فالسعادة في نظره ليست علة إيمانه — ولو لم يكن لموضوع

---

(١) توفيق الطويل : أسس الفلاسفة ص ١٦٧ — ١٨ وكذلك

إيمانه وجود — وإنما هي ثمرة الإيمان بمعبود لا يشك مؤمن في وجوده ، إن الاعتقاد بوجود الله في نظر المؤمن مستقل عما يشمل أن يترتب على وجوده من نتائج ، وحين أعتقد أن طه حسين موجود ، لا يكون معنى هذا أن اعتقادي قائم على أساس أن لوجوده نتائج طيبة<sup>(١)</sup> .

ويعود « رسل » إلى مناقشة ديوى في موقفه الذي أسلفنا بيانه فيقول : هب أن إنسانا قال لى : هل شربت قهوة في فطورك هذا الصباح ؟ يستعين الرجل العادى على الإجابة على هذا السؤال بمحاولة أن يتذكر ما حدث ، أما إذا كان من أتباع « ديوى » فإنه يترتب حتى يتصور أولا أنه يعتقد أنه شرب القهوة في فطوره ، ثم يرى ما يترتب على هذا الاعتقاد من نتائج — إن كانت له نتائج — ثم يعود فيتصور أنه يعتقد أنه لم يتناول قهوة في فطوره ، ثم يرى ما يترتب على هذا الاعتقاد الجديد من نتائج — إن كانت له نتائج — ثم يأخذ بعد هذا في الموازنة بين هاتين المجموعتين من النتائج ليرى أى الاعتقاد أدعى إلى الرضا وأجلب للاطمئنان ! وإلا اعترف بأنه لا يستطيع أن يجيب على هذا السؤال !

---

(١) Bertrand Russell, op. cit., p. 846 ( في الفصل الذى

عده على « ولهم جيس » .

بل كيف له أن يعرف نتائج اعتقاده بأنه شرب القهوة في  
فطوره؟ إذا قال إن النتائج هي كذا وكذا .. وجب أن يعرف  
مدى خيريتها أو شريتها أن يخطبها بدورها عن طريق ما يحتمل  
أن يترتب عليها من نتائج ا وإذا تيسر ذلك ، كيف يحكم بأن  
نتائج اعتقادٍ منهما أدعى من نتائج الاعتقاد الآخر إلى الرضا  
والاطمئنان؟

وينتهي رسل الأمر إلى القول بأنه يخالف ديوى في أن  
الأخير يطلق صدق الاعتقاد على نتائجه وآثاره ، أما « رسل »  
فيعلق قيمة الاعتقاد على علله وأسبابه ، إن ديوى يهتم بالمستقبل  
الذي يتثبت فيه من قيمة النتائج ، أما رسل فيعنيه الماضي الذي  
تتشوى فيه العلل ، من أجل هذا يعتبر الاعتقاد حقا أو يشبهه أن  
يكون حقا إذا كان على اتصال — معقداً أحيانا — بعلة وأسبابه ،  
إن الماضي لا يمكن أن يتأثر بما تفعل ، ولهذا فإن الحق إذا تحدد  
بما حدث في الماضي ، كان مستقلا عن إرادتنا في الحاضر أو في  
المستقبل ! أما إذا كان الحق يتأكد بنتائج المستقبل فإنه  
بمقدار قدرتنا على تفسير المستقبل يتغير الحق وفقاً لذلك<sup>(١)</sup> .

الرأى عندنا أن الخير — كالحق — مستقل عن الإنسان ،  
ومن ثم لا يختلف باختلاف العواطف والميول وسائر ما يصدر

(١) ibid., p. 859 في الفصل الذى مقدمه على « جون ديوى » .

عن الذات ، لأن اختلاف الناس على شكل الأرض — أمسطحة<sup>١</sup> هي أم كروية — لا ينهض دليلاً على أن الأرض ليس لها شكل ، ولبادئ الأخلاق قداستها بصرف النظر عما يحتمل أن يترتب عليها من نفع أو ضرر ، إنها خطاب موجهٌ إلى البشرية كلها — كبداً الواجب في فلسفة كانت Kant — إن أخلاقية الأفعال الإنسانية تقوم على بواعثها ولا تتوقف على آثارها ونتائجها .

ولكن بعض المفكرين يرى أن فضل المذهب العملي على الفلسفة يشهد به توكيده للعلاقة بين النظر والعمل ، ومساهمته — مع غيره من مذاهب التجريبيين — في المطالبة بوضوح التفكير ، ودراسة المسائل دراسة علمية ، وذلك بإلحاح أصحاب هذه المذاهب في ضرورة اختبار الأفكار بمحك التجربة والعمل ، ولكن خصوم هذا المذهب يقولون إنه لا يؤكد وحدة النظر والعمل. إلا لكي يدل على أن الأفكار ليست إلا مجرد وسائل وأدوات ، وأن الحق هو التحقق من منفعة الفكرة بالتجربة ، وأن النظرية في نظر العلم مجرد أداة للسيطرة على الطبيعة ، إلى حد أن العلماء لا يجدون غرضاً في أن يفسروا الظاهرة الواحدة بعدة نظريات ، وإلحاح العمليين في اختبار الأفكار بمحك التجربة ، ينتهي بتحويل الأفكار إلى مجرد « قواعد للعمل » .



وقد أغفل العمليون النظر إلى الأفكار باعتبارها محاولةً  
لوصفٍ دقيقٍ للعالم المادى الموضوعى ، إنهم يُففلون — بل  
ينكرون القول بأن الأفكار انعكاسٌ للحقيقة الموضوعية مستقلةً  
عن العقل ، فالفكرة تنشأ عن العمل وتُختبر به ، ولا تستطيع  
« البرجماتزم » أن تفسر هذا تفسيراً معقولاً ، إنها لا تستطيع  
أن تفسر لنا حقيقة الفكرة ولا العمل ولا العلاقة بينهما ، لأنها  
تكرر موضوعية العالم الذى تعمل فيه التجربة وتنشأ عنه  
الفكرة<sup>(١)</sup> ، وإذا انهار الأساس الإستمولوجى للمذهب تداعى  
معه الأساس الذى أقاموا عليه مذهبهم الأخلاقى .

ومع هذا فإننا نرى أننا إن تجاوزنا عن نقد المذهب فلسفياً  
وجدنا أن الناس قلما يخضعون للمبادئ التى تُسير سلوكهم لحك  
النقد ومنطق العقل ، وأن من الممكن أن يستريحوا لأثر المعتقد  
الدينى أو المبدأ الخلقى فى حياتهم ، من غير حاجة إلى النظر العقلى  
الحض ، وإذا تعذر عليهم أن يتفكروا معتقداتهم الدينية أو أن  
يعمنوا النظر فى مبادئهم الخلقية ، كان حسبهم أن يعتقدوها  
محاكاةً وتقليداً ؛ وهذا كلام يقال على السكثرة الغالبة من  
الناس ، ولا ينسحب على الصفوة الممتازة من المستنيرين — كما  
قلنا فى كتابنا عن « أسس الفلسفة » .

. Cf. Cornforth, op. cit., p. 236-38 (١)

## الفصل الخامس

### النفعية في القرن العشرين

انتشار النفعية وسيادتها في القرن الماضي —  
اضمحلالها في القرن العشرين — أسباب اضمحلاله  
النفعية في القرن العشرين — أهم اتجاهات النفعيين  
والذين وآثارهم في القرن العشرين .

#### انتشار النفعية وسيادتها في القرن الماضي :

عرفنا من فصولنا السالفة كيف نبئت النفعية في صورة لذة فردية عند الأبيقورية قديماً وهوبز ومن ذهب مذهبه في مطلع العصر الحديث ، ورأينا كيف تحولت اللذة الفردية إلى منفعة للمجموع عند بعض الفلاسفة إبان القرن الثامن عشر على وجه التحقيق ، وكيف ازدهرت هذه النفعية وسيطرت على التفكير — الإنجليزية خاصة — إبان القرن التاسع عشر ، وتبيننا السلطان الذي تهيأ للنفعية التجريبية حتى مات مل عام ١٨٧٣ ، وإن استمرت قائمة حتى مستهل القرن العشرين على يد تلامذته من أمثال الكسندرين الذي مات عام ١٩٠٣ ، وعرفنا كيف احتلت النفعية التطورية مكان الصدارة في الفلسفة الإنجليزية حتى مات

سپنسر عام ١٩٠٣ ولسلى ستيفن بعده بعام ، وراينا كيف نهضت النفعية الحدسية واسترعت الأنظار بعد أن دعا إليها هنرى سدجويك الذى مات والقرن الماضى يستوفى أنفاسه . وهكذا أقبل القرن العشرون وقد بلغت النفعية أوجها ، وتغلقت فى شتى مجالات المعرفة البشرية وهيمنت على تفكير أهلها ، فماذا كان مصير هذا التراث النفى فى الخمسين عاما التى انقضت من قرنا العشرين ؟

أغفلنا الإشارة إلى النفعية العملية البرجمانية التى نهض بالدعوة إليها فلاسفة أمريكا بوجه خاص ، لأن أكبر أعلامها « جون ديوى » قد مات فى صيف عام ١٩٥٢ ، ولما يزل كبار دعائها — من أمثال جيمس تفتس وجورج هربرت ميد — أحياء يرزقون — فيما نعلم —

اضممهولها فى الفرده العشرين :

ولكن مأساة النفعية فى القرن العشرين أنها افتقدت النفوذ الذى كان قد تهبأ لها فى القرن الماضى ، وانحسر سلطانها عن أكثر مجالات المعرفة التى كانت قد غزتها من قبل ، ولم نجد بين الفلاسفة المعاصرين — مع استثناء دعاة البرجماتزم فى أمريكا — نصيراً من طراز بنجام ومل وسپنسر وسدجويك .

كانت إنجلترا — فيا عرفنا — مهد النفعية ومثوى دعايتها ،  
فلنستمع إلى شهود ثلاثة من أهلها في القرن العشرين .  
يقول مكزى + J. S. Mackenzie ١٩٣٥ في كتابه :  
« المدخل إلى الفلسفة الاجتماعية »<sup>(١)</sup> أن ليس ثمة ما يمكن أن  
يقال عن مذهب المنفعة العامة بعد مآت سدجويك عام ١٩٠٠ ،  
إذ لم تعد المنفعة بده مذهباً سائداً ، فقد توقف نفوذها في التفكير  
الأخلاقي ، وإن كانت لاتزال الاتجاه السائد بين مفكري  
الاقتصاد .

وتحدث « ألبى » E. Albee في كتابه « تاريخ النفعية  
الإنجليزية »<sup>(٢)</sup> عن كتاب سدجويك « مناهج علم الأخلاق »  
فصرح بأنه آخر تعبير عن النفعية التقليدية ، وإن كانت نفعيةً  
تختلف عن كل ما سبقها — وما عاصرها — من صور النفعية  
المعروفة .

بل صور الموقف السالف الذكر أحسن تصوير « جون  
بلامناتز » في كتابه السالف الذي نشره لأول مرة عام ١٩٤٩  
عن النفعيين من الإنجليز فقال : إن النفعية التي كانت إلى القرن

---

(١) أعيد نشره عام ١٩١٧ تحت عنوان المجلد في الفلسفة الاجتماعية  
. Outline of Social Philosophy

(٢) Hist. of English Utilitarianism طبعة عام ١٩٠٢ .

الماضى أعظم مساهمة قدمتها الفلسفة الإنجليزية إلى التراث العقلي  
البشرى في مجال الأخلاق والسياسة ، قد تحطمت حتى لم يمد جزءاً  
منها سليماً ، ويزيد الموقف أسوأ أنها لم تجد وارثاً يتلقى تراثها  
ويخلفها في سيادتها على التفكير الأخلاقى والسياسى ، ليس في  
إنجلترا اليوم مذهب يتمتع بمثل ما تمتعت به النفعية من سيادة في  
الدوائر العقلية ، إن إنجلترا اليوم تتألف من طوائف صغيرة يتشيع  
كل منها لنظرية ما - انحدرت إليها فى الأغلب والأعم عن فلاسفة  
أوربيين وليسوا من الإنجليز - وليس من بين هذه النظريات  
نظرية واحدة تهيأ لها ما تهيأ للنفعية من رواج وانتشار ، إن  
الإنجليز اليوم يعتقدون الديمقراطية ويتمسكون بالاشتراكية<sup>(١)</sup> ،  
ولكن الديمقراطية والاشتراكية اللتين تتحدث عنهما إنجلترا  
فى عصرنا هذا ، ليستا مذهبتين من مذاهب الفلسفة الخلقية  
والسياسية ، إن المبادئ التى استمدتتا منها يختلف بعضها عن  
البعض اختلافاً بيناً ملحوظاً ، وليس فى إنجلترا كلها مدرسة من  
فلاسفة الإنجليز المتنازعين يعتقدون مذهباً واحداً ويزودون  
المستنيرين بأكثر الملاحظات التى تدور على ألسنتهم عند ما يدور

---

(١) فى الوقت الذى صدر فيه ذلك الكتاب (عام ١٩٤٩) كان  
العالم يحولون حكم إنجلترا ، ولكن الواقع أن حزب المحافظين كان قوياً ،  
حتى أنه عاد إلى الحكم بعد ذلك ، وهو خصم الاشتراكية العالية كما نعرف .

بينهم حديث عن الأخلاق والسياسة ، أما النفعيون فقد كانوا في إنجلترا كما كان الماركسيون في ألمانيا منذ بضع عشرات من السنين ، كانوا أرباب التفكير في السياسة والاجتماع ، وقد شاعت أفكارهم وانتشرت على أوسع نطاق ، وإن لقيت من خصومها أقسى حالات ، لقد كان النفعيون في إنجلترا أهل السياسة النظرية ، ولم يكونوا أقل وطنية وحباً لبلادهم من الماركسيين من الألمان . . . . .<sup>(١)</sup> .

هذا هو المصير الذى لقيته النفعية في وقتنا الحاضر في إنجلترا التى اتفق المؤرخون على أنها كانت أخصب تربة فى الأرض لإنبات النفعية ، وأصلح أجواء الدنيا لنموها ، وهذه هى شهادة شهود ثلاثة من أهلها .

وليس هذا هو حال الفلسفة الخلقية عامة إبان القرن العشرين ، فإن بعض مذاهب المعاصرين يقف مع أحسن المذاهب التى سبقته فى صف واحد — فيما يقول « هل » فى مطلع كتابه الذى أصدره عام ١٩٥٠ عن الفلسفة الخلقية المعاصرة<sup>(٢)</sup> .

---

(١) Plamenatz, *The English Utilitarians*, (1949), p. 145

(٢) T.E. Hill, *Contemporary Ethical Theories*, (1950), p. 1

## أسباب اضمحلال النفعية في القرون العشرين :

أما لماذا اضمحلت الفلسفة النفعية في القرن العشرين وافترقت نفوذها وانحسر سلطانها ؟ فرد ذلك — فيما يلوح لنا — إلى ظهور مثالية جديدة في جامعة أكسفورد ، اجتذبت إليها أنصاراً من الطبقة الأولى بين فلاسفة الإنجليز ، نجحوا في التبشير بها والتحكين لسلطانها في بلادهم ؛ تزعم هذه الحركة توماس هل جرين ، أستاذ الفلسفة الخلقية في جامعة أكسفورد ، وقد مات عام ١٨٨٢ ، ونشر برادلي في العام التالي لوفاته كتابه القيم « المدخل إلى علم الأخلاق » Prolegomena to Ethics ؛ تأثر جرين بالمثالية التي أنشأها « كانت » وهذبها « هيجل » ، وسرعان ما تحول بعده تيار الفلسفة الخلقية عند فلاسفة الإنجليز ، انصرف عن اتجاه الحسين والتجريبيين — الذين صدرت مذاهب النفعية عن فلسفتهم الحسية — إلى هذا الاتجاه المثالي الجديد الذي ناهض النفعية والوضعية واللاأدرية التي عرفت في إنجلترا إبان ذلك الوقت ، وصدرت بعد مقدمة « جرين » مجموعة من كتب في الفلسفة الخلقية وضعها أساتذة فلسفة في مختلف جامعات الجزيرة البريطانية ، وكلها تهاجم النفعية التجريبية في كل صورها ، وتعترف بديتها لفلسفة « كانت » و « هيجل » في ألمانيا ،

وكبار دعائها في إنجلترا وفي طبيعتهم توماس هل جرين وإدوارد كيرد + ١٩٠٨ E. Caird وفرنسيس هربرت برادلي<sup>(١)</sup> + ١٩٢٤ ممن كانوا يقومون بالتدريس في جامعة أكسفورد ، وإن كانت المثالية قد اتخذت عند الأخير طابعاً مستقلاً عن طابعها عند هيغل .

ومن أظهر هذه الكتب التي قاومت الاتجاه النفعي القديم ومثلت الاتجاه المثالي الجديد في الفلسفة الخلقية : كتاب أصدره عام ١٨٩٢ أستاذ الفلسفة الخلقية بجامعة « برمنجهام » جون هنري مورهد J. H. Muirhead تحت عنوان « أصول علم الأخلاق »<sup>(٢)</sup> وثان أصدره عام ١٨٩٤ أستاذ الفلسفة الخلقية بجامعة إدنبره جيمس سث J. Seth تحت عنوان « دراسة في مبادئ الأخلاق »<sup>(٣)</sup> . وثالث أصدره — على نمط الكتاب السالف — سين M. C. Sen أستاذ الفلسفة بكلية ريبون Ripon

---

(١) لفر كتابه « دراسات أخلاقية » عام ١٨٧٧ ، وهاجم فيه النفعية ، وعبر فيه عن مثاليته مبكراً ، نشره بعد مقدمة جرين لفلسفة هيوم وترجمه والاس لينطق هيغل ، وقبيل أول كتاب نشره Caird عن « كانت » وكل هذه الكتب تميز عن النزعة المثالية الجديدة في إنجلترا .

(٢) Elements of Ethics الطبعة الرابعة كانت عام ١٩٣٤ .

(٣) Study of Ethical Principles (الطبعة السابعة عام ١٩٢٦) .



تحت عنوان «أصول الفلسفة الخلقية»<sup>(١)</sup> ورابع أصدره عام ١٨٩٥  
عميد جامعة بلفاست داركي C. F. D'Arcy عن «دراسة موجزة  
لعلم الأخلاق»<sup>(٢)</sup> وخامس أصدره عام ١٨٩٧ أستاذ الفلاسفة  
بجامعة كاردينف جون ستورت مكنزي J. S. Mackenzie  
تحت عنوان «المجمل في علم الأخلاق»<sup>(٣)</sup> بل انتشر الاتجاه  
الجديد حتى بلغ فلاسفة أمريكا وبدأ عند جون ديوي<sup>(٤)</sup>؛ ومن  
تاريخ أولى طبعات هذه الكتب نلاحظ أنها تنحدر إلى أواخر  
القرن الماضي، وقد كانت كلها تحمل على الاتجاه النفى في غير  
رفق ولا رحمة.

كان طبيعياً بعد ظهور هذا الاتجاه الجديد وانتشاره بين  
المشتغلين بالفلسفة في إنجلترا أساتذة وطلابا، أن يضعف نفوذ  
النقبة الحسية، ويخفت صوتها في القرن العشرين، ولا سيما وأن  
الاتجاه الجديد المطعم بفلسفة الألمان كان أغنى وأخصب من

---

(١) Elements of Moral Philosophy طبعته الثانية عام ١٩٠٤.

(٢) Short Study of Ethics (الطبعة الثانية كانت عام ١٩٠١).

(٣) Manual of Ethics (الطبعة السادسة عام ١٩٢٩) وأعيدت

عام ١٩٤٨.

(٤) في كتابه Outlines of a Critical Theory of Ethics

طبعته الأولى كانت عام ١٨٩٦.

الاتجاه التجريبي القديم الذي كان يجهل الفلسفة الألمانية كما أشرنا من قبل<sup>(١)</sup> .

شاخت النفعية ولكنها لبثت قائمة هزيلة ضعيفة حتى أيامنا الحاضرة ، واستيفاء للحديث عنها نشير إلى أظهر الفلاسفة المعاصرين الذين ما زالوا ينتصرون لصور هذه النفعية في إنجلترا خاصة وفي غيرها بوجه عام ، وإن كنا لا نجد في تراثهم النفعي من الأصالة والإبداع ما يبرر الوقوف عنده للإسهاب في شرحه أو تفصيل الحديث عن عناصره .

أهم اتجاهات النفعيين واللذبيين وآثارهم في القرن العشرين :  
أما عن نفعية الحدسيين في القرن العشرين فقد بقيت بين تلامذة سدجويك قائمة في مدرستين — ضعيفتين — تمثل أولاهما « رامبلي اليزايث كونستانس جونس E. E. Constance Jones التي كانت معلمة في كامبردج وعضواً في مجلس جامعة برستول<sup>(٢)</sup> وقد جددت النظرية تحت عنوان : مذهب اللذة

---

(١) انظر ص ١٣٥ من هذا الكتاب .

(٢) من مؤلفاتها : *New Law of Thought* و *Primer of Logic* وغير ذلك ، وهي التي كتبت مقال H. Sidgwick في المجلد ١١ من *Encyc. of Religion & Ethics* ( صدر عام ١٩٢٠ ) .

العقل Rational Hedonism وفندت ما وُجّه إلى المذهب من ملاحظات واعتراضات .

والمدرسة الثانية التي دعت للنفعية العقلية كان لسانها روبرتسون J. M. Robertson الذي أبان عن مذهبه في كتابه « تاريخ مجمل للأخلاق »<sup>(١)</sup> ، والإشارة إلى هاتين المدرستين تكفي ، لأن الفروق بينهما لا تبرر الوقوف عندهما طويلا ، فحسبنا أن نقول إن أحص ما يميز روبرتسون موقفه من الأنانية المتطرفة ، ورأيه في الإجرام ، فهو لا يلوم الأناني الشاذ في أنانيته إذ لا يده في ذلك إله يتصرف في ضوء ما يبدو متمشياً في نظرته مع مصلحته ، ولا يكثر إن بدا تصرفه متنافياً مع العمل لصالح الآخرين ، لأنه لا يعبأ بوخزات الضمير !! مع أن أستاذه كان حريصا على أن يُخضع الأنانية لمنطق العقل .

أما الإجرام عنده فوليد ظروف بائولوجية أو ثمرة سوء التربية أو نتيجة ضغط الأحوال التي تكتنف الجرم ، ومن هنا تلاشت الإرادة الحرة ، وانهدمت المسئولية في مذهبه ، بل رأى أن مهمة النفعي أن يحمي نفسه والمجتمع من صنوف الأشرار ملتصقا أحسن السبل لتحقيق ذلك ، أما فيما عدا هذا فقد ساير

(١) Short Hist. of Morals وقد نشر عام ١٩٢٠ .

روبرتسن أستاذه سدجويك في نفعيته .

أما عن النفعية التطورية عند سبنسر وستيفن وتوماس هكسلي + T. Huxley ١٨٩٥ ومن إليهم في أواخر القرن الماضي فقد وجدت في القرن العشرين أنصارا وإن قلّ عديدهم عما يتوقع القارئ ، وقد رد بعضهم المفهومات الأخلاقية إلى التطور السكوني واهتم غيرهم بالتطور العضوي ، من أظهر ممثلي الفريق الأول : ستابلدون Olaf Stapledon في كتابه « نظرية حديثة في الأخلاق »<sup>(١)</sup> وتابع هذا الاتجاه في أمريكا :

وودبريدج F. J. Woodbridge .

ومن ممثلي الاتجاه الثاني : بطرس كروبتكين P. Kropotkin في كتابه « المعونة المتبادلة : عامل التطور » و « علم الأخلاق : نشأته وتطوره »<sup>(٢)</sup> و « وادنجتون » C. H. Waddington في كتاب « العلم والأخلاق »<sup>(٣)</sup> و « جوليان هكسلي » حفيد توماس السانف الذكر في محاضراته (يونيه ١٩٤٣) المنشورة في

---

(١) A Modern Theory of Ethics (1929)

(٢) Ethics, Origin & Development Trans. 19٢6، وكذلك

Mutual Aid, A Factor of Evolution (1915)

(٣) Science & Ethics (1942) فيه مقال كتبه وادنجتون ومناقشة

بين المؤلف وغيره .

كتاب : توماس وچوليان هكسلى « التطور والأخلاق »<sup>(١)</sup>  
وغيرهم من دعاة التطور .

أما عن المذاهب اللذبية السيكولوجية بوجه عام فقد تمثلت  
في مذاهب صدرت في القرن العشرين عن فكرة اللذة حينما  
وفكرة المحبة حينما تانيا وفكرة الرغبة أو المصلحة حينما ثالثا ،  
ودافع عن اللذة « ديورانث دريك » D. Drake في كتابه  
« مشاكل السلوك »<sup>(٢)</sup> و« جيمس ما كاي J. Mackaye في كتابه  
« منطق السلوك »<sup>(٣)</sup> وموريس شليك Moritz Schlick (منشى  
ندوة فينا التي ابتدعت الوضعية المنطقية المعاصرة) في كتابه  
« مشاكل الأخلاق »<sup>(٤)</sup> وستيس W. T. Stace في كتابه  
« معنى الأخلاق »<sup>(٥)</sup> وغير هؤلاء كثيرون .

ومن أظهر القائلين بنظريات المحبة جورج سنتايانا  
G. Santayana في كتابه « حياة العقل »<sup>(٦)</sup> — ه أجزاء ،  
و « جون ريد » J. R. Reid في كتابه « نظرية في القيمة »<sup>(٧)</sup>  
وغيرها .

---

(١) . Evolution & Ethics, (1947)

(٢) . The Problems of Cnduct

(٣) . The Logic of Conduct

(٤) . Problems of Ethics

(٥) . Concept of Morals

(٦) . Life of Reason

(٧) . A Theory of Value

ومن الداعين لمذاهب تقوم على المصلحة: پيرى R. B. Perry  
في كتابه « نظرية عامة في القيمة<sup>(١)</sup> » وباركر D. H. Parker  
في كتابه عن « القيم الإنسانية<sup>(٢)</sup> » وغيرها .  
ومع أننا نكتفي بذكر أمثلة من دعاة هذه المذاهب ، دون  
أن نعد لإحصاء أسمائهم ، فقد حرصنا على أن نسجل أهم الكتب  
التي نشرها هؤلاء الفلاسفة حتى يرجع إليها من أراد أن يلم  
بتفاصيل مذاهب اللذين والنفعيين في التحسين عاما الأخيرة ،  
وقد نلخصها « توماس إنجلش هيل » أستاذ الفلسفة في كلية  
ماكلاستر بأمریکا في كتاب قيم نشره لأول مرة عام ١٩٥٠  
عن « الفلسفة الخلقية المعاصرة<sup>(٣)</sup> » وقد آثرنا أن نمر بهذه  
المذاهب مسرعين لأنها تكاد تكون مجرد تكرار لمذاهب  
النفعيين المشروحة في هذا الكتاب ، وسرد هذا قيا بدا لنا إلى  
أن المثالية الألمانية — كما أشرنا من قبل — قد زحفت في أواخر  
القرن الماضي إلى إنجلترا<sup>(٤)</sup> واجتذبت إليها الطبقة الأولى من

---

(١) General Theory of Value

(٢) Human Values (1931).

(٣) T. E. Hill, op. cit. (1950) وخاصة في الفصل الثامن من  
القسم الثالث ، والفصول ١٢ و١٣ و١٤ من القسم الرابع من هذا الكتاب .  
(٤) الواضح أن أبحاث « كانت » الأخلاقية التي لعرت بالألمانية =

فلاسفتها المتمازين ، حتى إذا أخذت إنجلترا تسترد نزعها التجريبية الأصيلة كان فلاسفتها قد أخذوا ينصرفون عن النفعية أو يثيرون الشك في فلسفة الأخلاق بوجه عام ، يشهد بهذا موقف الوضعية المنطقية المعاصرة من قضايا الأخلاق (والجمال والمنطق) ومبادئها .

هذه إشارات مقتضية للاتجاهات النفعية وأسباب اضمحلال نفوذها في القرن العشرين ، ليس فيما ذكرناه عنها ما يبرر الوقوف لمناقشتها ، فحسبنا بعد هذا أن نقف قليلاً لنضع النفعية في الميزان ، عسى أن نقبين ما لها من محاسن وما عليها من مآخذ :

---

== أواخر القرن الثامن عشر (١٧٨٥ و ٨٧) قد ترجمها إلى الإنجليزية لأول مرة Abbott عام ١٨٣٣ تحت عنوان *Fundamental Principles of the Metaphysics of Ethics* (وقد ترجمه H.J. Paton أستاذ الفلسفة الخلقية الحال بجامعة أكسفورد مرة أخرى عام ١٩٤٧) ثم *Kant's critique of Practical Reason and other works on the Theory of Ethics* وهو يتضمن البحث الأول أيضاً .

## فصل ختامى

### النفعية في الميزان

تمهيد — مناقشة للوقف النفسى : ( ا ) اللذة  
كفاية للسلوك الإنسانى — ( ب ) اللذة كميّار  
للأحكام الخلقية — ( ج ) الأخلاقية بين مذاهب  
النفعيين ومذاهب الحدسيين — ( د ) بين النفعيين  
ولإمام العقليين « كانت » — ( هـ ) مناقشة النفعيين  
فى توحيدهم بين اللذة والسعادة — ( و ) مكان  
السعادة فى مذاهب الأخلاقيين — ( ز ) رأينا فى  
مكان السعادة من الأخلاقية .

تمهيد :

عرضنا النفعية فى أظهر صورها كما عرفت عند أشهر أتباعها ،  
وعقبنا على كل داعية من أهلها بمناقشة الأفكار التى انفرد بها ،  
ووزن الآراء التى أضافها إلى التراث الذى سبقه ، وبقى علينا  
أن نناقش النفعية فى صورتها العامة المشتركة بين جبهة النفعيين ،  
نحاول أن نضعها فى مكانها من سائر المذاهب الأخلاقية المعروفة ،  
وأن نعيد النظر إلى مشاكلها العامة فى ضوء ما عرف عنها عند  
مدارس الأخلاقيين .



ويقتضى وزن المذهب النفعي أن نعرض لمناقشة أهله في تصورهم للذة غرضاً لرغبات الإنسان وهدفاً لسلوكه ، ثم معياراً لتقويم أفعاله الإرادية ومقياساً لأحكامه الخلقية ، فإذا تداعت اللذة غايةً للسلوك ومعياراً للأحكام ، وضح تهاافت الموقف النفعي في قيامه على أساس من مذهب اللذة السيكولوجي من ناحية ، وفي توحيد أهله بين منفعة الفرد ومنفعة المجموع من ناحية أخرى ، كما يقتضى تقويم المذهب النفعي مناقشة أهله في توحيدهم بين اللذة والسعادة ، والتحقيب بالإشارة إلى الأخلاقية في تصور المذهب العقلي الذي رفض موقف هذين المذهبين معاً ، فإذا أبنا موجزين عن أظهر الخصائص التي تميز هذا المذهب ، وضحت قيمة المذهب النفعي ومكان السعادة في كبرى المذاهب في فلسفة الأخلاق .

### مناقشة الموقف النفعي :

يقوم مذهب المنفعة على أساس أن اللذة هي الفرض الوحيد الذي تهدف إليه رغبات الإنسان ، وأنها مستوى الأفعال الإنسانية ومعيار الأحكام الخلقية ، وكلا الأمرين لا يصمدان للند ، ومن هنا كان تداعي النفعية يتداعي الأسس التي قامت عليها :

(١) اللذة كفاية ومهارة للساوك الإنساني :

إن الإنسان كثيراً ما يرغب في اللذة ، ويندفع إلى أفعال قد تجلب له ألماً ؛ إن كل شيء - حتى الألم - يمكن أن يكون هدفاً لرغبة الإنسان . فالماسوشي masochist قد يرغب مخلصاً في إيلاء نفسه .. لأنه من غير شك يستمد من ألمه الذي أراده لنفسه لذة - فيما يلاحظ برترند رسل B. Russel من قبل<sup>(١)</sup> .

بل تؤكد نظرية دارون + Darwin ١٨٨٢ أن الإنسان البدائي كثيراً ما كانت تسيطر عليه دوافع غريزية وميول فطرية تهدف لحفظ حياته وصيانة نوعه ، فتحمله على أن يأتي أفعالا لا يعرف أنها شير لذته ، كالاتصال الجنسي حين يقع لأول مرة ، أو رضاعة الطفل لندى أمه في بداية الأمر ، لم تكن اللذة ولا توقعها هو الدافع إلى إتيان مثل هذه الأفعال ، وإنما دفع إلى إتيانها ميل فطري لم يحمى اكتساباً ، بل إن بعض الميول الفطرية قد تؤدي صاحبها وتسبب له ألماً مُمضاً أو خطراً جسيماً ، فغريزة الأمومة كثيراً ما تدفع أشي الحيوان - عامة - إلى احتمال

---

(١) B. Russell, *ibid*, p. 807 والماسوشية ضدما السادية Sadiam

والسادی يجيد لذة في إيلاء غيره وإتزال العذاب به .

المتاعب الأليمة في سبيل صغارها ، وقد يضحي الفرد بلذاته بل بحياته في سبيل المجموع ، أو من أجل مبدأ يعتقد أو عقيدة يدين بها ، فإن زعم أصحاب مذهب اللذة السيكولوجي أن مرجع هذا إلى رغبة المضحى في اكتساب الشهرة بعد الموت — كما يبدو هذا في حال المؤلف الذي يوصى بنشر مؤلفاته بعد مماته — قلنا إن الكثيرين من أمثال هؤلاء الشهداء ملحدون لا يؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب — فيما لاحظ راشدال Rashdall من قبل ، واللذة التي يجدها الشهيد في تضحيته ليست الباعث على استشهاده ولا الغاية من تضحياته ، إنه يضحي من أجل مبدأ أو فكرة ، وتفتن اللذة بتضحيته ولا تكون قط باعثاً عليها ، ولا غاية تهدف التضحية إلى تحقيقها .

إن اللذة لا تُطلب إلا لتكون أداة لغاية تسمو عليها ، ولا ينشدها الإنسان غايةً قصوى لكل فعل يأتيه ، وقد كانت الأثرة شريعة الغابة ولكن الحضارة الإنسانية قد قضت أن تقوم الأفعال الإنسانية على أساس من البذل والإيثار — وإن لم تطمع في إلغاء الأنانية من حياة الإنسان .

وقد لاحظنا أن النفعيين — من بنيتهم إلى مل — لم يميزوا في وضوح بين مذهب اللذة الفردية بأنانيته ، ومذهب اللذة

العامة بغيره ، فربطوا بينهما — كلٌّ منهما بطريقته — ولكن الدراسات السيكولوجية قد أثبتت تهافت هذا الزعم ، وانتهت إلى التفرقة بين أفعال الإنسان التي تصدر عن دوافع فطرية خالصة ، وبين تصرفاته التي تجرى بمقتضى مبدأ أو قانون ، ورأى علماء النفس في مباحثهم في سيكولوجيا الشعوب أن أحكام الناس التي قوّم بها الأفعال الإنسانية قد ظهرت في أول أمرها في صورة أفكار دينية وتقاليد اجتماعية قديمة قدم الحياة الاجتماعية ، وخضع الفرد للدين والعرف منذ فجر التاريخ ، فسارت أفعاله بإملاء سلطة خارج ذاته ، ثم تطور الأمر حتى ضاق الإنسان بكل سلطة تملئ عليه قواعد سلوكه ، فلجأ إلى باطن نفسه وراح يستمد منها قواعد تصرفاته ، فكان الضمير أو العقل أو نحوه مدبر الحياة الإنسانية وواضع معايير الأحكام الخلاقية ، وغايات الأفعال الإرادية ، وقد رأينا في مواضع متفرقة تهافت النفعيين في توحيدهم بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ( مثلا ص ١٢٢ — ٢٦ و ١٨١ — ٢٩٠ ) .

ولو أن اللذة كانت الناية القصوى من وجودنا لكان علينا أن نشدها في كل مظانها ، وأن نلتصق المزيد منها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، ولو فعلنا هذا لنجمت عنه آلام ، وكانت

عواقب الاندفاع شراً محتتماً ، وقد رأينا كيف انتهى الذين استجابوا لهذه الدعوة إلى الزهد حيناً وإلى الانتحار حيناً آخر ! مع أن من الواضح أن التخلص من الحياة هجراً وبأس لا يليق بإنسان سليم يحترم إنسانيته ، أو يجعل حياته مسيرةً لمنطق عقله ، فإن شرط الفضيلة أن يكون صاحبها حياً ، والمثالية الأخلاقية تستبعد النشاؤم وتقتضى الحرص على الحياة كشرط لقيام الفضيلة كما قلنا من قبل .

والواقع أن إباحة بعض اللذات لا يكون في عرف الأخلاق إلا وسيلةً لتحقيق غايات أكرم بالفرد وأليق بإنسانيته ، أو لأنها لا تتعارض -- على الأقل -- مع مطالبه السامية ومثله العليا .

وإذا كنا نبحث بالفعل عن أعظم لذة لنا ، لما كان هناك معنى لقولنا : ينبغي أن نبحث عن أعظم لذة لنا — إلا إذا اتفقت هذه اللذة مع لذتنا الخاصة — فيما يقول سدجويك — إن من الخطأ السافر أن « نوحّد » بين الأخلاقية التي تصور ما ينبغي أن يكون ، وبين الواقع الذي يعبر عما هو كائن — وإن جاز أن يستند المثل الأعلى إلى الواقع — بل إن التجربة لتشهد بأن إشباع ميولنا ورغباتنا كثيراً ما يتنافى مع مبدأ الواجب و يصطدم مع أبسط قواعد الأخلاق التقليدية ، ومن هنا تعذر إقامة

مذهب اللذة الأخلاقي على أساس من مذهب اللذة السيكولوجي .  
وقد قيل بحق إن الطريقة الوحيدة للشعور باللذة هو نسيانها  
وليس تركيز الانتباه فيها ، فكلمنا قل تفكيرنا في اللذة ازداد  
شعورنا بها ، وقد كان « سدجويك » على حق حين صرح بأن  
اللذة لا تتحقق — في أكل صورها على أقل تقدير — طالما  
جعلها الإنسان هدف تفكيره وملتقى خواطره ، وبمثل هذا كان  
من المستحيل أن يشعر بلذات التفكير والدراسة شعوراً كاملاً  
أولئك الذين يمتازون بحب شديد للاستطلاع يؤدي إلى استبعاد  
الفعل الذي يزاولونه عن مركز اهتمامهم ولو مؤقتاً ... هذا حق  
بوجه عام ، وإن جاز أن يلتمس الإنسان في بعض الأوقات لذاته  
لذاتها ، كحال من يقضى أجازته في مكان قصيٍّ لمجرد الاستجمام ،  
أو التماساً للقدرة على احتمال واجباته فيما بعد<sup>(١)</sup> .

من هنا ضاق الكثيرون من الأخلاقيين بإقامة الأخلاقية  
على وجدان اللذة ، وأخذوا على أصحاب هذا الاتجاه قصور  
نظرتهم وغفلتهم عن أثر العوامل الطبيعية الأخرى في توجيه  
السلوك الإنساني ، ومكنوا للغيرية والمشاركة الوجدانية والضمير  
والعقل ونحو ذلك من عوامل احتلت على يدهم مكانها في الحياة

---

. D'Arcy, *ibid*, Part III, Ch. II. (١)

الخلقية ، وقد أشرنا عند مناقشة هوبز إلى المذاهب التي وضعها أهلها رداً عليه ودخضاً للأثرة التي يمكن لها في مذهبه ، فاللذة لا تكفي لقيام مذهب أخلاق يوجه السلوك الإنساني ويهدي صاحبه سواء السبيل ، بل قد تهدم الأخلاقية وتقضى عليها ، وقد لا يعدو الحق من يقول إن التجربة تشهد بأن الأخلاقية قد تقوم في إعراض الإنسان عن لذته لشخصيته ومصالحته الفردية ، بمعنى أن الموقف الخلقى ينشأ عندما يتعارض العقل مع الهوى ، ويتنازع الواجب مع الشهوة ، وتصطدم الغيرة بالأثرة ، ويتمشى هذا الموقف مع الأخلاقية يوم تكون الغلبة لنداء العقل ، أو صوت الضمير أو نحو ذلك ، فليست اللذة هي التي تجعل الأفعال الإنسانية متمشية من الأخلاق ، بل إن الأخلاقية هي التي تبيح بعض اللذات أحيانا .

إذن فموضوع الرغبة عند الإنسان المستدير هو في الأرجح ما يحقق أهدافه العليا وغاياته السامية ، وقد يحقر الإنسان مباحي الحياة ومثمها ويعيش في كد وجهاد لكي يقيم أسرته أو يشارك في تقدم العلم ، وقد لا تقترن هذه الأفعال بلذة ما ، بمعنى أن الإنسان قد ينهض بها اعتقاداً منه بأنه يقوم بواجب تفرضه عليه إنسانيته ، والقول بأننا نرعب في شيء لجرد ما يترتب عليه من

لذة ، يشبه قولنا — فيما يقول وليم جيمس في الجزء الثاني من كتابه « أصول علم النفس » ص ٥٥٨ — إن الباخرة لا تستطيع الإبحار بتعبير أن تستهلك لها — وهو مسألة عرضية — وإذن فليس في وسع باخرة أن تبحر إلا بدافع واحد هو استهلاك الفحم !! ومن ثم لا يكون استهلاك الفحم عرضاً ملازماً للإبحار ، بل يصبح الغاية من إبحار السفينة .. ومثل هذا يقال في رأى الذين اعتبروا اللذة غاية السلوك الإنسانى<sup>(١)</sup> .

وصفة القول أن النعميين قد أرادوا بمذهبهم أن يحققوا السعادة للمجتمع ، ولكن هذه السعادة تقوم على صراع بين أفراد قوامه طلب المنفعة الشخصية أو اللذة الفردية ، واستخف هؤلاء النعميون بما انتهت إليه العلوم الاجتماعية التي لم تكن قد ظهرت إلى عهدهم من أن الحياة الاجتماعية لا تستقيم بتعبير التضامن والتشارك الوجداني وغيره مما يقوم مع الأناية وقد سبقها ، حقيقة إنهم فطنوا إلى هذه العوامل وحاولوا تأويلها في ضوء مذهبهم ، ولكنهم أحالوها إلى ظواهر مصطنعة متكلفة غريبة عن طبيعة الإنسان ، يقبلها الأفراد ابتغاء منافع شخصية أو لذات فردية ، فشوهوا بهذا جلالها وابتذلوا مفهومها ، وتجاوزوا بهذا التأويل حقيقتها فيما لاحظ « لوسين » Le Senne .

(١) Ch. Johnston, ibid, p. 171 — 77



(ب) اللذة كعيار الأمطار الخلقية :

أما إن اللذة مقياس الأفعال الإنسانية ومقياس الأحكام الخلقية فنثار للنقد ، لأن المفاضلة بين اللذات لا تكون إلا بمتضى . قاعدة عليا لا يمكن أن تكون هي اللذة ، وفي هذا ما يكفي لهدم الأساس الثاني للمذهب النفعي ، وقد أشرنا إلى إن تفرقة « مل » بين كيف اللذات تبضمن القول بوجود مقياس غير اللذة يستخدم في التفرقة بين أنواعها ، مع أن مذهبه الذى يقرر اللذة معياراً وحيداً لغيرية الأفعال الإنسانية أو شريتها ، ومن ثم لا يتخالف اللذات إلا من ناحية الكم وحده ، وقلنا إن انتقاله إلى الحديث عن كيفها لا يمكن أن تكون اللذة أساسه ، إن المذهب النفعي يقوم على مصادرة مفادها أن اللذة هي الخير الوحيد ، ومن البين أن اللذات بما هي لذات لا تسمح بالتفرقة الكيفية ، لأن هذه التفرقة تتنافى مع المصادرة السالفة ولا تتمشى على منطوق المذهب الاستقرائى فى الأخلاق ( ص ١٧٥ — ١٧٦ ) .

والناس مختلفون فى تقديرهم للذة ، لأن اللذة ثمرة تجربة فردية ، ومن هنا كان اختلافها باختلاف خبرات الأفراد ، حتى لقد ذهب بعض اللذين إلى أن السعادة عسيرة المثال ، فتأدى بهم هذا إلى الزهد حيناً وإلى الانتحار حيناً آخر .! بل إن

ما سماه النفعيون بأكبر قسط من اللذة لا يمكن أن يكون  
مقياساً لتقدير الأعمال الإنسانية وتقويمها ، لأن هذا الميار  
يختلف باختلاف الأفراد ، فمن العبث أن تعتبر اللذة معياراً كلياً  
للسلوك الإنساني .

نتهى من هذه المناقشة إلى رفض اللذة غايةً وحيدةً  
لسلوك الإنسان ، ومعياراً لتقويم أفعاله ، إنها تعبر عن  
الجانب المظلم الغامض من النفس البشرية ، فكيف تسو  
بها على العقل — وهو الجانب المشرق الوضاء السامى فى الطبيعة  
البشرية . . ؟

ولكن هذه النتيجة لا تمنعنا من الاعتراف بمخطر اللذة  
عنصراً ضرورياً فى حياتنا ، ومقوماً رئيسياً من مقومات وجودنا ،  
وما من مذهب فى الأخلاق يستطيع أن يجهر أو يضمن القول بأن  
اعتناقه يحقق لصاحبه الألم ويحلب له التماسه ؛ ومن هنا ذهب  
أصحاب المذاهب التى تقوم على الإعراض عن اللذات ومحاربة  
مباهج الحياة وممتعاها ، إلى أن السلوك الذى تقتضيه مذاهبهم  
يحقق لهم اللذة ويوفر لهم السعادة ! هكذا زعم الكلية والروائية ،  
والبوذية ومن ذهب مذهبهم من أصحاب الاتجاهات الفلسفية  
أو العقائد الدينية التى اصطبغت بطابع صوفى .

ويزداد تهافت النفعية وضوحاً ، عند ما نوازن بين موقف أتباعها وموقف العقليين من الأخلاقية بوجه عام :

( ح ) الأذهانية بين مذاهب النفعيين ومذاهب المرسيين :

عرفنا كيف توقفت الأخلاقية في مذاهب التعمين على نتائج الأفعال الإنسانية ومدى ما تتضمنه من لذة أو ألم ، من منفعة أو ضرر ، فكانت اللذة بهذا هي الخير الأقصى الذي تنتهي عنده رغبات الإنسان ، وبقي علينا أن نزن هذا الموقف في ضوء الموقف الحدسي من الأخلاقية بوجه عام :

يقوم المذهب الحدسي بمعناه الضيق على الحدس باعتباره نواتج الإدراك الفطري الذي يتأثر بالوجدان والغريزة ، ولا يسمو إلى مرتبة العقل والتجريد الذي نلاحظه في التفكير النظري ، وقد رأى أتباعه أن خيرية الأفعال وشريرتها تقوم في باطن هذه الأفعال ، ولا تتوقف على غايات تهدف إلى تحقيقها ، فالتعاطف الوجداني خيرٌ لأن في طبيعته — التي لا تستقيم بغير التضحية — ما يحتم اعتباره خيراً ، والقتل شرٌّ لأن في طبيعته العدوانية ما يحتم اعتباره شراً ... وهلم جبراً ، ولا تتوقف خيرية الأفعال ولا شريرتها على إرادة الإنسان — ولا حتى إرادة الله كما تتمثل في

الأواسر والنوامى المتضمنة في الكتب المقدسة ، وتدرج هذه الخيرية والشريعة بمحس فطرى مباشر ، يستوى فيه الناس في كل زمان ومكان .

أما العقليون<sup>(١)</sup> — وهم حدسيون بالمعنى الواسع — فقد اتفقوا مع الحدسيين في التسليم بهذا الحدس المباشر ، ولكنهم لم يفتنوا به ، فأضافوا إليه العقل وما ينشأ عنه من استدلالات تقوم على القوانين العقلية أو تسير بمقتضاها ، وتأدى بهم هذا إلى رد الخيرية إلى العقل ، وتعليق الواجب على البواعث التي تؤدي إليه — وهى التقدير العقلى لمبدأ الواجب كما سنعرف بمد قليل — وإذا كان النفعيون يقيمون الأخلاقية على اللذة التي تقرن بإشباع الرغبات وإرضاء الميول ، فإن العقليين يرون في قهر النفس وواد رغباتها وقع مطالبها المثل الأعلى للسلوك الإنسانى ، إن الخير الأقصى يقوم في النشاط العقلى المحض الذى لا مجال فيه لميول أو رغبات ، ولا مكان فيه لمع أو لذات ، ومن هنا كان القانون الخلقى عند جميع أتباع هذه النزعة عقلياً صرفاً ، لا بمعنى أنه

---

(١) يوصف النفعيون أحياناً بأنهم عقليون — بالمعنى العادى وليس بالمعنى الفلسفى ، لأنهم يطلقون حيرة الأعمال على نتائجها اللذذة ، ويدعون تقدير هذه النتائج للعقل ، وشتان بين هذا المعنى وبين معنى العقليين التقليدى في الفلسفة وفروعها — انظر للمعنى التقليدى في كتابنا : « أسس الفلسفة » في الفصل الثالث من الكتاب الثالث ، ولا سيما من ١٤٩ وما بعدها .

لا يُستمد من الحساسية فحسب ، بل بمعنى أن من الممكن إدراكه حدسياً ، ودون حاجة إلى تفسير عقلي ، إنه غاية في ذاته ، ومطابقة الأفعال الإنسانية لهذا القانون هي الخير الأقصى ، إنه لا يتطلب تفسيراً عقلياً لأن هذا التفسير لا يتيسر إلا بإخضاع القانون لغايةٍ ما ، أو إخضاع الواجب للخير ، وهذا ما يجرى العقليون على إنكاره .

لقد رفض هؤلاء العقليون مذهب المنفعة ، بل أنكروا مذهب السعادة الذي ستهجدت عنه بعد قليل ، أنكروا أن تكون اللذة أو المنفعة أو السعادة غايةً للأخلاقية ، ومعياراً لتقويم الخير والشر ، ولتفسير هذا نقف عند « كانت » Kant قليلاً :

( ٥ ) بين النفعيين وإمام العقليين « كانت » :

رفض « كانت » كل مذهب أخلاق يقوم على مبادئ حسية أو عواطف أخلاقية ، فأنكر السعادة في كل صورها ، أنكرها حين بدت في صورة لذة فردية عند أمثال الأبيقورية قديماً ومن ذهب مذهبهم حديثاً ، أو في صورة لذة عامة عند أمثال بنتام ومل ، لأنهم جميعاً أقاموا الأخلاقية على الحساسية الطبيعية ، بل أنكروا السعادة حتى حين تجلت عند الحدسيين من أمثال « شاقسبري » و « هاتشيسون » قائمةً على العواطف

الأخلاقية ، إن هذه المذاهب كلها عرجاء في نظر « كانت » لأنها تقوم على الحساسية الجزئية حيناً ، أو العواطف الأخلاقية حيناً آخر ، فتمثل في إقامة قانونٍ « كَلِّيٍّ ضروري » وهو ما تتطلبه فلسفة الأخلاق .

عارض « كانت » التجريبيين — من تسمين ووضعين — في إقامة الأخلاقية على التجربة الحسية ، ورفض رأيهم في اعتبار الخير مجرد اصطلاح تعارف عليه الناس في زمان معين ومكان محدد ، والنظر إلى الحكم الخلقى على أنه تقريرٌ عن واقع يمكن التثبت من صحته بالتجربة ، والولع باصطناع مناهج الاستقراء عند دراسة المشكلة الخلقية ... (١) رفض « كانت » هذا الاتجاه التجريبي ، ورأى مع جبهة العقلين أن الخير « ضرورة عقلية » إنه بديهي أولى ومن ثم كان نقيضه مستحيل الوقوع ، إنه لا يُستمد من التجربة ولكنه يجيء بالاستدلال القياسى ولا يحتاج إلى برهان — شأنه شأن المسلمات الرياضية — إنه يقوم في الفعل الإنسانى ولا يكون قط مجرد صفة تضاف إلى الأفعال الإرادية ، فهو مع سائر القيم موضوعى ثابت وليس مجرد وجدانٍ ذاتى متغير كما تصوره

(١) فارتن في هذه الموازنة : توفيق الطويل : العقليون والتجريبيون

في الأخلاق فلسفة .

النفيعون وسائر التبحر يبين ، إن الأخلاق عند « كانت » تقتضى القدرة على رفض الأعمال التي تسير إشباع النزعات الطبيعية ، استجابة للعقل ومن غير دافع حسي ، وهذا الأمر يتطلب « حرية الإرادة » التي يتعذر بدونها اختيار السلوك الأخلاقي ، وغاية هذه الأخلاقية إنسانية خالصة يفرضها العقل وحده ، ومن ثم أمكن فرضها على كل كائن ناطق ... وبمثل هذا استخف العقليون بالأخلاقية التي تصورها النفيعون قائمة على إشباع الرغبات وتحقيق اللذات وجلب المنافع فردية كانت أو عامة ...

وبهذا كان الواجب عند « كانت » أمراً مطلقاً وليس مشروطاً ، إنه يصدر عن العقل العملي وحده غير متأثر بميل أو هوى أو عاطفة — ما كان منها خسيساً أو نبيلاً ... إن « كانت » يشك في إمكان قيام فضيلة يكون الباعث عليها ميلاً أو هوى أو مصلحة ، إن خيرية الفعل تتوقف على البواعث التي تدفع إليه وليس على النتائج التي تنجم عنه ، ولا يكفي أن يطابق الفعل في نتائجه وآثاره مبدأ الواجب ، بل ينبغي لكي يكون أخلاقياً أن يصدر عن باعث من احترام عقلي لمبدأ الواجب<sup>(١)</sup> ، ومن أجل هذا أوجب « كانت » على الإنسان ألا يأتي فعلاً

---

Kant, Groundwork of the Metaphysics of Morals, (١)

Eng. Trans. by H. J. Paton, 1947, p. 65 — 7 .

لا يستطيع إرادته أن يجعله قاعدة عامة للناس في كل زمان  
ومكان<sup>(١)</sup> ، وليس في قواعد الأخلاق ما يبيح الاستثناء مهما  
كانت الظروف... إلى آخر ما هو معروف .

من هنا نرى التباين الملحوظ بين النفعية في أدق صورها  
الحسية ، والواجب في شكله الصوري المحض كما بدا في الأمر  
المطلق عند « كانت » وأمثاله من العقليين ، إن مبدأ « كانت »  
في التناقض الذاتي يقدم لنا صورة بغير مادة ، مجرد صورة للعقل  
مع إغفال كل ما يتصل بمضمون الرغبات الخاصة ، أما النفعية فإنها  
— على عكس هذا — تقدم لنا مادة بغير صورة ، تتناول جميع  
الرغبات كما هي موجودة بالفعل ، وترى أن العدل يقضى بإشباعها  
جميعا بالتساوي ، طالما كان الوجدان اللاذ الذي يقترن بإشباعها  
كلها يتساوى فيها جميعا من حيث الشدة والديمومة .

بهذا يفزل الذين والنفعيون عن حقيقة لها خطرها الأخلاقي ،  
ذلك أن الإنسان لا يبتدئ بالفعل إشباع رغباته ، بل يلتمس  
تحقيق ذاته موحدة في كل ، وأن قيمة الإشباع تتوقف على نوع  
الإنسان الذي يفتق هذا الإشباع ، قد يكون الإشباع مجرد إرضاء  
للذة بهيمية ، وقد يكون تحقيقا لسعادة إنسانية ، وقد يكون غبطة

---

(١) ibid, p. 69-71 وفارن : توفيق الطويل : المثل الأعلى بين

وأد الشهوة وإشباعها .



تدريس أو نحو ذلك ، والنظر إلى الإشباع على هذا النحو ، معناه الاهتمام برغباتنا من حيث اتصالها بصورتها لا مادتها ، أى من حيث اتصالها بالعالم — الإنسان — التى تحمل فيه ، ولكن اللذيين والنفعيين يتجاهلون هذه الصورة ، إنهم يهتمون برغباتنا وإشباعها باعتبارها مجرد أفواه مفتوحة تنشد ما يملأها ويسد حاجتها ، وترى أن لذات إشباع هذه الرغبات مجرد كميات من السكر تُقدّم إليها ، من هنا كانت النفعية مادة بتير صورة<sup>(١)</sup> .

وقد أكد المؤرخون قيام هذا التباين بين اللذة والواجب ، غراى « برادلى » + ١٩٢٤ (فى كتابه دراسات أخلاقية ف ٤) أن مذهب « كانت » يتميز بأنه « أداء الواجب لذاته أى من أجل الواجب » أما المذهب النفعى فإنه يتميز بأنه « طلبُ اللذة لذاتها أى من أجل اللذة » وذهب چونت دىوى فى كتابه « خلاصة علم الأخلاق » إلى أن المذهب الكانتى لا يزودنا إلا بأخلاق صورية خالصة ، فهو نظرية تحاول أن تجمد الخير لا فى الإرادة نفسها ، بل فى الإرادة بغض النظر عن أية غاية يمكن للإنسان تحقيقها بإرادته ، وقد وصف « مويرهيد » المذهب الكانتى بمثل هذه الأوصاف ، مشيراً إلى برادلى ودىوى ، ولكنه مضى فيما أشار إليه برادلى من تباين بين المذهب الكانتى

. Mackenzie, ibid. p. 189 (١)

العقل والمنطق النفى الحسى ، وسار فيه إلى أقصى آماده ، فيزرى « كانت » فى الخير الأسمى بأنه « الغاية باعتبارها تضحية للذات » .  
هذه إشارات موجزة تصور بعض ما قيل فى التضاد القائم بين اللذة عند النفعيين والواجب عند العقليين ، وهى تكفى لبيان الموقف الذى انحدر إليه النفعيون ، بالقياس إلى السمو الذى بدأ فى مذاهب العقليين — مع ما فى هذا السمو الشامخ من نقص وقصور سنعود إليه فى تعقيبنا الأخير .  
بقى أن نعرف تهاقت الموقف النفى فى توحيد أهله بين اللذة والسعادة :

### مناقشة النفعيين فى توحيدهم بين اللذة والسعادة :

قلنا إن جمهرة النفعيين قد وحدوا بين اللذة والمنفعة ، متجاهلين أن من اللذات ما قد يجلب لصاحبه ضرراً ، وأن من الآلام ما قد يحقق نفعاً ، وأنهم وحدوا بين المنفعة والسعادة متجاهلين أن التسليم بهذا التوحيد ينتهى بإدخال فلاسفة — من أمثال أفلاطون وأرسطو — فى زمرة اللذيين والنفعيين ، مع أنهم من أشد الأخلاقيين مقتاً للنفعية واستخفافاً باللذة غايةً للسلوك الإرادى ومعياراً لتقويم الأفعال الإنسانية — انظر ص ٢٨ وما بعدها —  
وللتوحيد بين اللذة والسعادة قصة وردت أنبأها متناثرة فى

فنايا فصول هذا الكتاب ، يعيننا الآن منها أن السعادة عند سقراط وأرسطو قد تحولت إلى لذة عند التورينائية والأبيقورية على الترتيب — انظر ص ٤١ — ٤٢ — فاختلط مدلول الفظنين حتى توحدوا وكان بينهما من قبل تفاوت ملحوظ وتباين لا يخفى ، واتصلت هذه اللذة الفردية عند القدماء من أمثال الأبيقورية ، بالأناية السافرة في مطلع العصر الحديث عند هوبز ومن ذهب مذهبه ، ثم تحولت إلى لذة للمجموع عند رواد النفعية التقليدية ممن جرى على أقلامهم نطق السعادة مرادفاً لمدلول اللذة ، وفي غمرة هذا الخلط غفل الكثيرون من قدماء ومحدثين عما فطن إليه أرسطو من فروق جوهرية تميز بين مدلول الحدين ، وفي ضوء مذهب السعادة عند أرسطو نقف قليلاً لنميز بين اللذة والسعادة ، فلكشف بهذا عن خطأ النفعيين في التوحيد بينهما :

إن اللذة مجرد وجدان سار يقترن بإشباع الرغبات الشخصية ، أما السعادة فهي هذا الوجدان حين ينشأ عن تحقق الذات مَوْجِدَةً في كل بصرف النظر عن المنافع الشخصية والرغبات الذاتية ، بل برغم الألم الذي قد ينشأ عن الامتناع عن إشباعها ، أو الفشل في إرضائها ! قد تقتضى الأخلاقية التضححية بالذات والمنافع حتى لينشأ عنها ألم نبيل لا يتنافى مع قيام السعادة !

إن السعادة ليست إنفاء تاماً للألم ، بل هي كمال يتحقق خلال الألم ، لأن سلوك الإنسان في مذهب السعادة يخضع لفكرة الإلزام الخلقى ، فالواجب يصطدم بالرغبة أو الهوى فيتشأ الحاجة إلى التضحية باللذة ، أو الضرورة التي تقتضى معاناة الألم ، وعنصر الألم في التضحية لا يقلل قط من السعادة التي تقترن بها .

إن الأفعال الإنسانية فيما يرى أرسطو لا تكون خيراً لأنها تحقق لذة ، بل إنها تقترن باللذة لأنها خير ، ومذهب السعادة يخالف مذهب اللذة في أنه لا يوصى بمزاولة الفضيلة ابتغاء ما ينجم عنها من متع ولذات ومنافع ، بل يوصى باتباعها لأن هذا هو الطريق الوحيد إلى تحقيق السعادة — فيما صرح سقراط ومن ذهب مذهبه ، كان طبيعياً — بعد هذا الذي فطن إليه أرسطو منذ أكثر من اثنين وعشرين قرناً من الزمان — أن نرى بين الحديثين من فلاسفة الأخلاق من أدرك خطأ النفعيين في توحيدهم بين اللذة والسعادة ، فبرز بين مدلول اللفظين على نحو ما عرفنا عند الحديث على الحديثيين من أمثال « كبرلند » و « هاتشيسون » و « بطار » ، وإن اختلف مفهومها في مذاهبهم عنه في مذهب السعادة عند أرسطو بوجه خاص .

ويبدو مذهب السعادة الأصيل ( القديم ) على تضاد مع مذهب اللذة واتفاق مع مذاهب العقليين في الكثير من الحالات ،

يبدو هذا في أن الإلزام الخلقى الحقيقى لا مكان له في مذاهب النفعيين ، مع أن مكانه ملحوظ عند أتباع مذهب السعادة والحُدسيين والعقليين على السواء ، فهؤلاء على اتفاق في مطالبة التاجر بالتزام الأمانة لذاتها ، وسيان بعد هذا أن تؤدى أمانته إلى ربح أو خسارة ! إنهم يجرمون عليه أن يتخذ أحداً من الناس « أداة » لتنمية ثروته أو تحقيق رغباته أو تعظيم نفسه ، ومثل هذا ينسحب على غير التاجر من البشر .

ومع هذا يوجب أتباع السعادة — دون الحُدسيين والعقليين — قيام اللذة مقتزنةً في الذهن بعمل الخير ، إنها علامة الخيرية أو مقياسها ، بمعنى أن الفعل لا يكون خيراً بالمعنى الدقيق إلا متى طابق الواجب وافترن باللذة ، ولكنهم شاركوا الحُدسيين والعقليين في رفض اللذة غايةً غالياً للحياة الإنسانية ، ومعياراً أسمى للأحكام الخلقية ، وفي القول بأن القانون الخلقى عامٌ مطلقٌ وليس نسبياً متغيراً كما ظن اللذيون والضعفزيون<sup>(١)</sup> ، إنه أصلاً يستمد سلطته من باطنه وليس من الجزاءات التي فرضها العرف أو الدين أو نحوه من سلطات خارجية ، ومعنى هذا أن معيار الأخلاقية في مذهب السعادة — وعند الحُدسيين والعقليين — موضوعيٌّ ثابتٌ وليس ذاتياً نسبياً متغيراً — كما صورته جبهة

. Cf. Sen, *ibid.* p. 115 (١)

التجربيين من الأخلاقيين — نفعيين كانوا أو وضعيين .  
ويلاحظ أن مذهب السعادة يتفق — فيما يلاحظ فنت  
Wundt — مع مذهب آخر يطلق على كثير من مذاهب  
الأخلاقيين ، هو مذهب الكمال ، وإن غلب على هذا المذهب  
الاهتمام بتكميل النفس أخلاقياً كأداة لتحقيق الخير في حياة  
البشر<sup>(١)</sup> .

نرى مما أسلفنا أن مذهب السعادة الأصلي Eudaemonism  
لا يفتقر بالذات غاية للسلوك الإرادى ، أو معياراً للأحكام  
الأخلاقية ، وينشد السعادة التي لا تقوم على إشباع الذات  
الفردية وتحقيق المنافع الشخصية ، ويتصل بشقيه — الفردى  
والجماعى — بكمال الحياة الإنسانية غايةً فصوى للسلوك الإرادى ،  
وفي ضوء هذا يبدو نقص المذاهب النفعية .

### ( و ) مظهر السعادة في مذاهب الأبيقوريين :

عرفنا أن السعادة قد اتخذت عند القائلين بها صوراً شتى ،  
فكانت عند أرسطو ومن ذهب مذهبه هي الخير الأقصى ، وهو

---

(١) فإذا سلمنا بالتوحيد بين السعادة والكمال كان « لينتز »  
ومدرسته من أتباع مذهب السعادة ، وإن اختلف المذهبان في أن مذهب  
السعادة — عند القدماء — ينشد سعادة الفرد ، ومذهب الكمال  
— عند المحدثين — يتمس سعادة المجموع .

الذى يحمل قيمه في باطنه ويُختار لذاته ولا يكون قط وسيلة إلى غاية أبعد منه ، ويتمثل في الحكمة باعتبارها فضيلة العقل النظرى الذى يميز الإنسان من سائر الكائنات ... الخ .

وكانت السعادة عند أتباع مذهب اللذة الأنانى — قداماء ومحدثين — مجرد لذة فردية يلتمسها صاحبها باعتبارها الشيء الوحيد الذى يُعتبر خيراً في ذاته ، كما كانت عند أصحاب مذهب المنفعة العامة من المحدثين أعظم مقدار من اللذة يصيب أكبر عدد من الناس — ومنهم صاحب الفعل نفسه ، ومن هنا كانت الأنانية في هذا المذهب أساس العمل لصالح المجموع .

أما الحدسيون<sup>(١)</sup> من المحدثين فقد ميزوا بين مدلول اللذة ومدلول السعادة ، وتجاوزوا نطاق الأنانية إلى مجال الإيثار ، وردوا السعادة إلى طاعة الضمير الذى اختلفوا في أسمائه واتفقوا في مدلولها ، واعتبروه مدبر الحياة الإنسانية وواضع الأحكام الخلقية ، وإذا كان بطر قد ردّ إلى هذا الضمير السلطة العليا على

---

(١) تارن في اللوازنة بين الحدسيين والتجريبيين ( الثانيين ) من الأخلاقيين : توفيق الطويل في كتابه « أسس الفلسفة » ١٩٥٢ ب ٤ ف ٣ ولا سيما ص ٢٢٩ وما بعدها . وقد كتب G. E. M. Joad للتوفى هذا العام ( ١٩٥٣ ) في اللوازنة بين المذهب الحدسى والنفسى عدة فصول في كتابه :

. Guide to the philos. of Morals & Politics ( طبعة ١٩٤٨ ) .

الجانب الحاس في الطبيعة البشرية ، فإن شاقسبرى قد جعل السلوك الخلقى وليد انسجام تام بين شعور الفرد بأنانيته وشعوره الإيثارى نحو الجماعة ، وإن لم يتناف هذا مع رد السعادة إلى طاعة الضمير الذى سماه بالحاسة الخلقية .

أما العقليون من المحدثين فقد رفضوا مفهوم السعادة عند جميع اللذيين والنفعيين والقائلين بمذهب السعادة الأصيل ، رفضوا أن تكون اللذة أو المنفعة أو السعادة فى أية صورة من صورها باعتباراً على الفعل الإرادى أو غايةً لسلوك الإنسانى ، واعتبروا الواجب أسراً مطلقاً يتنافى مع نزعاتنا الطبيعية وميولنا الفطرية ، وأظاموا الأخلاقية على قهر النفس وواد مطالبها وقمع رغباتها ، وبهذا باعدوا بين القانون الخلقى والتجربة مصدرأله ، فبرروا بهذا اعتبار هذا القانون صادقاً صدقاً مطلقاً لا يحدده زمان ولا مكان . وقد يوحى هذا — وما أسلفناه عن المذهب العقلى — بأن العقليين — دون سائر الأخلاقيين — قد استبعدوا السعادة من مذهبهم الأخلقى ، وهذا غير صحيح ، فلتقف قليلاً لتفسير هذا الموقف عند « كانت » باعتباره إمام العقليين المتزمين :

إن « كانت » لم يستبعد السعادة من حسابه ، إنه لا يضع السعادة غايةً مباشرة للأفعال الفاضلة : كما فعل اللذيون والنفعيون وأتباع السعادة جميعاً ، ولكنه يراها مقضنة لاحالة فى أى



مذهب أخلاقي عن الخير الإنساني الأقصى — شأنها في ذلك شأن  
الفضيلة وإن كانت السعادة في مرتبة أدنى — بل يصرح « كانت »  
بأننا إذا لم نجد من الأسباب ما يبرر الاعتقاد بأن السعادة والفضيلة  
تقومان في نهاية الأمر متحدتين متصلتين ، انهدم الأساس  
الذي تقوم عليه الأخلاقية ، أي أن الهدف الأقصى الذي ينشد  
الإنسان الفاضل تحقيقه هو العمل بمقتضى قانون العقل ، وهو  
قانون الاتساق الصوري عند « كانت » فمن واجبه ألا ينشد  
الفضيلة من أجل السعادة ، بل عليه أن يطلب الفضيلة من أجل  
الواجب ، ومع أن « كانت » يعتقد أن الرجل الفاضل وإن كان  
لا يقصد مباشرة إلى تحقيق السعادة ، إلا أن الخير الكامل هو  
الذي يتضمن السعادة والفضيلة معا ، فإذا لم ينته الأمر بتوحيدهما  
في سمط واحد ، انهارت الأخلاقية كما أشرنا منذ حين ، من هنا  
كان من الخطأ أن يقال إن نزعة العقلية الصارمة في الأخلاق  
تعارض مع سعادة الإنسان ، بل من المتعذر أن يقال إن ثمة  
مدرسة من مدارس الأخلاقيين قد ذهبت إلى مثل هذا الرأي ،  
وإذا كان بنتام قد أقام مذهبه — كما عرفنا — مقابلا لمبدأ  
التقشف والزهد والحرمان ، فإن هذا المبدأ لا يقال على مذهب  
« كانت » وإن جاز إطلاقه على نزعة اللطرفين من الكلبيين .

(١) بل إن بنتام نفسه لا يشير في هذا الصدد إلا إلى طائفة الجانسنست  
و بعض رجال السلاهوت ، والمعروف أن الرواقية أنفسهم — وقد  
سائر « كانت » نزعهم — لا يعتبرون التضيحة بالسعادة خيرا في  
ذاتها ، بل إن الرواقية والأبيقورية — فيما لاحظ « كانت » نفسه —  
قد كانا على اتفاق في التوحيد بين التفضيلة والسعادة ، واختلف  
بين الفريقين يقوم في أن الأبيقورية قد اعتبروا التماس السعادة  
تفضيلة ، بينما ذهب الرواقية على عكس هذا إلى أن التماس  
التفضيلة سعادة<sup>(٢)</sup> .

من هذه الإشارات الخاطفة نرى أن مذاهب الأخلافيين  
على اختلاف صورها وتباين نزعاتها لم تغلُ من فكرة السعادة  
التي تمثلت في صور شتى بدت صريحة أو مستترة<sup>(٣)</sup> ، فأى هذه  
الاتجاهات أدنى إلى الصواب . . ؟

---

(١) أتباع جانسن + ١٦٣٨ C. Jansen وقد أدانت الكنيسة  
هذا المذهب الديني .

(٢) عرض Mackenzie مذهب « كانت » في الغاية الأخلاقية في  
فصل « المستوى كسعادة » س ١٨٩ وما بعدها من الطبعة السادسة ،  
ولكن هذا الجزء يدعو في الطبعة الثالثة ملحقا بالفصل السابق ( المستوى  
باعتباره قانونا ) س ٢٠٣ وما بعدها وفيها إضافات حذفت في الطبعة السادسة  
وقد رجنا إلى الطبعة الأخيرة في إشاراتنا لهذا المؤلف إلا في بضع هوامش  
حرصنا فيها على أن تنس على الطبعة الثالثة .

(٣) وقد انتهى التصوف الإسلامي إلى نظرية في السعادة التي تتحقق =

(ز) رأينا في سطر السعادة من الأهمية :

تناول كل مذهب من مذاهب الأخلاقيين السالفة فكرة السعادة من زاوية خاصة ، فأصاب من وجوه ، وأخطأه التوفيق من وجوه أخرى ، والرأى عندنا أن أئمن ما في دنيا الإنسان حياته ، وأئمن ما في حياته سعاده ، ومع ذلك فإن حياتنا لا تبدو على أكل صورها بوضع سعادتنا غاية « مباشرة » لسوكننا  
إن السعادة التي تقوم في الحكمة قد تلائم المشتغلين بالنظر العقلي ، ولكنها لا تناسب سواد الناس ، وقد لا تثير في نفوسهم أدنى غيظة ا ومع هذا فما نظن أن المشتغلين بالحكمة يضعون السعادة غاية مباشرة لتأملاتهم العقلية ، وإن كانت سعادتهم تتحقق عرّضا أثناء اشتغالهم بالنظر العقلي ، وسنعود إلى بيان هذا بعد قليل .

إن وضع السعادة غاية مباشرة كان في رأينا من بين العوامل التي جرّت جميع اللذيين والنفيعين إلى تصورهما مجرداً لذة خالصة

---

== بالفناء في الله ، كما يبدو في مذاهب الاتعاديين والحلوليين وأصحاب وحدة الوجود من الصوفية ، كما انتهت الفلسفة الإسلامية إلى نظرية صوفية في العادة التي تتحقق بالاتصال بالله عن طريق التأمل العقلي بوجه خاص ، ولكننا سنغفل هاتين النظريتين لأن طابهما الصوفي والميتافيزيقي كاد يطمس طابهما الأخلاق .

فردية حيناً وعامة حيناً آخر ، ولكنها في كل حالاتها تقوم على  
الأنانية السافرة ، وقد ناقشنا هذا التصور في مناسبات مختلفة فيما  
سلف من فصول هذا الكتاب — انظر مثلاً ص ٤٩ و ٥٧ و  
٧٠ — ٧٢ و ١٢٢ وما بعدها و ١٨١ وما بعدها ... الخ .

ومع هذا فإن تصور السعادة عند الحدسيين والعقليين — وهم  
الذين رفضوا أنانية اللذين والنفسيين — لا يخلو من مأخذ :

حقيقة إن السعادة في تصور الحدسيين أسمى منها في تصور  
النفسيين ، إنها تنشأ عن طاعة الضمير ولا تقوم في مجرد اللذة ،  
وأساسها تصور الطبيعة البشرية مؤلفة من جانب سُقْطِيٍّ ، وجانبٍ  
عُلُوِّيٍّ أسمى يسيطر على الجانب الأدنى ، ومع ذلك فإن في تصورهم  
للأخلاقية غموضاً ولبساً ، إن قولهم إن الخيرية قائمة في طبيعة  
الأفعال الخيرية ، وأنها تدرك بحس فطري يقيني مباشر ، لا يحل  
إشكال الأخلاقية ولا يبرر قيامها ، إن الأخلاقية لا تساغ بغير  
نظر في الطبيعة البشرية في نزوعها إلى السكال ، ولا تستقيم بغير  
غاية يضعها العقل هدفاً للسلوك الإرادي ، وتكثير يبرر الأخلاقية  
ويفسر مقوماتها ؛ ومع أن الضمير الذي ردوا السعادة إلى طاعته ،  
قد أرادوا به الضمير العام وليس ضمير فرد بعينه ، إلا أن  
التجربة تشهد بأن أحكام الضمير تختلف باختلاف الأفراد في كل  
زمان ومكان !

وحسبنا إبانة عن سطحية الحدسيين أن نشير إلى أن المنظرين منهم — تمثيلاً مع أساس النزعة الحدسية التي ترى أن إدراك الخيرية والشرية فطريٌّ في الناس جميعاً — قد صرحوا بأن دراسة المبادئ الخلقية دراسة نظرية لا يمكن أن تؤدي بأصحابها إلى الكشف عن خير أو حق لم يكن معروفاً من قبل ، ومن ثم اعتبروا الدراسات العملية في الأخلاق ومبادئها مجرد ترف عقلي ... ! Intelléctual luxury<sup>(١)</sup> .

والحاحنا في تعقل الخيرية وتفسيرها نظرياً لا يعني أننا نُقر — جملةً وتفصيلاً — تصور العقليين المتزمين للأخلاقية عامة والسعادة بوجه خاص ، فإنهم كانوا بدورهم ينظرون إلى اللبائى الأخلاقية كما ينظرون إلى السلمات الرياضية ، من حيث إنها لا تحتاج إلى دليل عقلي !

والسعادة في مذهبهم تكاد تختفي في غمرة الحديث عن الواجب الذي يرتد إلى العقل المجرد من كل مادة ، ولا يصدر عن حساسية أو عاطفةٍ بالغا ما بلغ نبها وسموها ، وبهذا تتكشّف

---

(١) وإن ذهب جمهور الحدسيين المعتدلين إلى أن الضمير يمكن — إلى حد ما — أن يعلم ، وأن اللبائى الخلقية قد يصطدم بعضها مع بعض ، ومن ثم تفسر الحاجة إلى « التفكير » لمعالجة هذا النزاع ، ومن هنا عرفوا « الإنشاء » casuistry في الأخلاق .

صوريته الصارخة وسليته السافرة وتزمته الملحوظ ؛ قد يُرشد الإنسان إلى ما ينبغي أن يمتنع عن فعله ، ولكنه لا يهديه إلى ما ينبغي إنيانه من أفعال ، ويرفض العاطفة في كل صورها مصدراً للواجب ، ولا يبيح الاستثناء أبداً ..... الخ وهذا تزمت لا يسيفه منطق ولا تشهد به تجربة ... إلى آخر ما أبان عنه النقاد من قبل<sup>(١)</sup> من هنا كان طبيعياً أن تنحرف السعادة في مذاهب العقليين باعتبارها على الفعل الإرادي أو غايةً للسلوك الإنساني .

والرأى عندنا أن مذهب السعادة كان — منذ نحو ثلاثة وعشرين قرناً من الزمان — أعمق في تصور الأخلاقية وفهم مقوماتها من مذاهب المحدثين — نفعيين كانوا أو حدسيين وعقليين . إن الطبيعة البشرية تكاد تكون في نظر اللذين والنفعيين حساسيةً صرفاً ، وفي نظر العقليين عقلاً محضاً ، أما مذهب السعادة فإنه يرى الطبيعة البشرية عقلاً وحساسيةً ، وفي انسجامهما — وليس في إنكار أحدهما — تقوم الحياة الأخلاقية ، ومع هذا لا يقل أتباع السعادة عن الحدسيين والعقليين إلحاحاً في المطالبة بإعلاء نداء الضمير أو صوت العقل حتى يقوى على ضبط جميع النزعات الجامحة

---

(١) من أظهر هؤلاء Dewey في « خلاصة علم الأخلاق » و Bradley في « دراسات أخلاقية » و Muirhead في « أصول علم الأخلاق » و Adamson في فلسفة « كانت » و Makenzie في مجله في « الأخلاق » وغيرهم كثيرون .

والميل الشاردة والمواطف النابية، وسائر ما يتقافى مع سمو النفس ونبلها، إن الطبيعة البشرية لاتستقيم بغير الحساسية، ولكن هذه الحساسية تقوم في مكان أدنى من مكان العقل الذي يكشف عن القانون الخلقى، إن المطالبة بإعدامها ووأد نزعاتها ضلال مبین، إذن فلتتبق حية تزاوُل نشاطها في ظل طاعتها لأوامر العقل، من هنا جاءت قوة المبدأ الذي يقره مذهب السعادة: مُت لکی تعيش ا يجب أن ترتفع إلى المثل العليا على سُلّم صيغت درجاته من أهوائك ونزواتك، ولتقدّم لذاتك ومتمك قرباناً على مذهب سعادتك، إن الحياة صراع بين الخير والشر، فهدّ طريقك إلى السعادة بمحاول التضحية وإنكار الذات، ولكن هذه التضحية في كل حالاتها « وسيلة » لاترتقى قط إلى مرتبة « الغاية »، إنها تُبشّر « بتحقق الذات » الذي فيه تقوم السعادة الحقة، وشتان بين هذا وبين القول بانكار الذات ووأد رغباتها وقع مطالبها غاية للحياة الأخلاقية .

من هنا نرى أن فكرة القانون الخلقى أعمق في مذهب السعادة منها في مذاهب العقلين جميعاً، إنه ينظر إلى هذا القانون من حيث علاقته بوجودنا الإنساني كله، ولا يرى في الحساسية شراً يجب استئصاله، بل يراها مجلّي الجسم ومظهر نشاطه، من هنا أوجب الإبقاء عليها وأبطل العمل على إخماتها وقيل نزعاتها

مع إخضاعها لأوامر العقل ، وشتان بين هذا وبين استئصال هذه الحساسية وقمع رغباتها في مذاهب المتزمتمين من العقليين ، والمتمسكين من الصوفية ، والمتطرفين من الدينيين<sup>(١)</sup> ، ليس بين دوافعنا الطبيعية - في مذهب السعادة الأصيل - ما يستحق أن يُباد ، إن لكل منها مكانه في نظام الحياة الخلقية وتديرها ، من هنا لا تكون الالذة في ذاتها موضع احتقار ، إنها خير متى اقترنت بالرغبات التي يبيح العقل إشباعها ، ومن ثم تدوب في اللذات موحدة في كَلِّ هو السعادة .

من هنا أجبنا لأنفسنا أن نقول إن فهم أرسطو للسعادة - منذ أكثر من اثنين وعشرين قرناً - يبدو لنا أدنى إلى الصواب من تصور المحدثين لها ! إنه لم يتصور السعادة لذة خالصة ولا توة على الالذة واحتقاراً للحساسية - وهي جزء من طبيعة الإنسان ، ولكنه يهاجم الالذة حين يُطلب لذاتها - كما كان ينشدها النهميون - لأن الالذة عنده غاية اليهاثم ، ومع هذا فهي في الأصل مجرد ميل ، والميل لا تكون خيراً ولا شراً في ذاتها ، إنها تتبع الأفعال الإنسانية التي يمكن أن توصف بأنها خير أو شر ، وتصبح الالذة خيراً حين تقترن بأفعال تسير بمقتضى العقل ، وتصبح شراً حين تقترن بأفعال تتنافى مع نداء العقل ؛ وليس للشهوة

---

(١) تارن توفيق الطويل : الثل الأعلى بين وآد الشهوة وإشباعها .



في رأى أرسطو حدٌ تقف عنده ولا تتجاوزه بطبيعتها ، والعقل هو المرشد الأمين الذى يقيم الحدود ويضع الحواجز ، وفي هذا تفرق الفضيلة عن الرذيلة ، فإذا استجاب الإنسان لنداء العقل بارادته الحرة بلغ السعادة وحقق الفضيلة في أكل صورها ، والسعادة ليست إلا اسماً جديداً يطلقه أرسطو على الخير الأقصى<sup>(١)</sup> .

بمثل هذا تفادى أرسطو كثيراً من أخطاء المحدثين من الأخلاقيين — نفعيين كانوا أو عقليين ، ومع هذا نرى أن أكبر مأخذه — التى شابه فيها النفعيين — أنه جعل السعادة غايةً تُختار لذاتها ، ولا تكون قط وسيلة إلى غاية أبعدها منها ، إن السعادة — بمعناها الأخلاقى عندنا — نتيجةٌ عرضيةٌ تصاحب حياة الإنسان أو أفعاله التى تجرى وفق غاية يضعها عقلٌ ذراكٌ ، وتتجه إلى تحقيقها إرادة حرة ، ومع اعترافنا بأن حياة الإنسان لا تستقيم على أكل وجوهها بغير السعادة ، فإن هذه السعادة نتيجةٌ وليست غايةً عليا تُطلب لذاتها ، وكَم من أفعال لها جلالها الأخلاقى لا يأتى أصحابها رغبةً في تحقيق السعادة لأنفسهم أو لغيرهم من الناس ، يبذلون هذا في عمل المربية التى تخلص في تنشئة أطفالها على أحسن وجه ، والشهيد الذى يهب

---

Cf. *Nicomachean Ethics of Aristotle* (Peters' Trans.) (١)


في الكتاب الثانى في الفصلين الثانى والسادس خاصة ، وانرا فيما يتصل بالسعادة الكتابين الأول والعاشر .

حياته قربانا على مذهب فكرة يدين بها أو عقيدة يؤمن بصوابها ،  
والفيلسوف الذى يتفانى فى مجته عن الحقيقة لذاتها ، وبصرف  
النظر عما يترتب على كشفها من وجوه النفع ... إن السعادة التى  
يحتمل أن تقترن بهذه الأفعال الجليلة تبيء عرضاً ولا تكون فى  
الأغلب والأعم غايةً يتجه إلى تحقيقها هؤلاء عامدين ، فالسعادة  
كاللذة والمنفعة من حيث إنها أضيق من أن تكون مذهباً  
يستوعب جميع الأفعال التى تقتضيها مبادئ الأخلاق ، ومن  
الضلال أن يُعتبر طلبُ السعادة واجباً أخلاقياً ، فإن غاية الإنسان  
تسمو حين تتمثل فى أداء واجب تفرضه عليه إنسانيته ، لا بمعنى  
أن يكون هذا الواجب أمراً مطلقاً لا يصدر عن وجدان ...  
إلى آخر ما ذهب إليه المتزمتون من العقليين ، بل الواجب الذى  
يتفانى — فى بدء سزاوتنا له — مع نزعاتنا الطبيعية وأهوائنا  
الذاتية ، ولكنه يكاد يصبح بالتمرد والمران طبيعةً ثانية ، وهكذا  
ننظر إلى السعادة — مع خطرها فى حياتنا — من خلال  
الواجب ، ولا ننظر قط إلى الواجب من خلال السعادة ، بهذا يحقق  
الإنسان وجوده الإنسانى الذى يسمو به على سائر الكائنات ،  
ويصبح بحق نتاج الخليقة وبطل روايتها ؟



القاهرة  
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية  
١٩٥٣

Bibliotheca Alexandrina



0450941

التمن ٥٠ قرناً